أبعدوا على يد هولاكو طاغية التتار، ففرّ منهم من فرّ خوفاً من السيف، واختفى من اختفى، وشرّد من شرّد، وأتى بهم السلاطين المماليك، ورفعوا عنهم ما أصابهم، وأعادوا إليهم بعض ما فقدوا، وأعزوهم بعد ذلّ، وحضنوهم بعد تشريد، وجمعوا أمرهم بعد اختفاء، فكيف يتدخل هؤلاء الخلفاء في شؤون من آواهم، وأوضاع من نصرهم ورفعهم؟ أو كيف ينافسونهم وينازعونهم؟ وأصبح ذلك أمراً متبعاً وطريقةً سائرةً، فبقوا صورةً في الحكم بل اسماً ليس له دلالة على شيء، وزاد أمر ما صاروا عليه عما كان عليه أسلافهم في بغداد في أسوأ أوضاعهم عندما كان يسيطر عليهم العسكريون من عربٍ أو تُركٍ أو فُرسٍ، وهذا ما جعل الخلفاء لا يُعرفون، ويختفون خلف السلاطين من المماليك الذين بيدهم الحل والعقد كله، وإن لم يتعرضوا للقتل وسمل الأعين، ومما زاد اختفاؤهم أو عدم معرفتهم أن ألقابهم كانت متشابهةً فقد عرف اثنان منهم بلقب الحاكم بأمر الله، وآخران بلقب المستكفي بالله، وآخران الواثق بالله، وآخران المعتضد بالله، وثلاثة بلقب المتوكل على الله، وهذا ما يجعل التفريق بينهم صعباً على المرء الذي لا يعرف تاريخهم بشكل جيد، ولربما لو كان لكل واحدٍ منهم لقب خاص به لكان الأمر أسهل.

وعندما لا يتوفر المال لدى السلطان ويصعب فرض ضرائب جديدة لاستحالة ذلك بسبب الفقر الذي تئن منه البلاد كأن يلجأ بعض السلاطين إلى فرض أتاوة على التجارة التي تمر بموانئ البلاد سواء أكان ذلك في البحر الأحمر أم في البحر المتوسط مما خفض أهمية التجارة، ورفع أسعار البضاعة، وقلل من توفّرها في الأسواق الداخلية فزاد ذلك من النقمة على المماليك وخاصةً من التجار الذين كانوا ينقلون البضائع من الشرق إلى الغرب مثل القرنفل والبهارات وما إلى ذلك. كما كان يلجأ بعض السلاطين إلى إيجاد أنواع من الأعمال غير المشروعة ويضرب عليها الرسوم لتدر عليه المال اللازم له ليحقق به أغراضه، وهذه وإن كانت تختلف عما يوجد من أمثالها في هذه الأيام إلا أنها محرّمة ولا يصح قيامها أو وجودها في مجتمع إسلامي، لم يكن ليقصد من وراء تلك الأعمال هاتيك الأيام إفساد

المجتمع وتنفيذ مخطط مرسوم لإبعاد الناس عن الإسلام سواء أكان المخطط داخلياً أم خارجياً فالأمر واحد، وهو ما يحدث في المجتمعات الحالية، وإنما كان الهدف منه في تلك الأيام تأمين المال، ويلجأ بعض المسؤولين إلى مثل هذا النوع من المنكرات، ومع هذا فقد كان نادراً وقليلاً ما يحدث ومستنكراً، ولا يلبث أن يأتي سلطان آخر ويمنعه ويعلن تحريمه وعدم مشروعيته، ويبدو أنه حدث مرةً واحدةً، وهو وجود البغايا. وإذا لم يتم هذا ولا ذاك فقد كان السلطان يقطع كبار الأمراء الإقطاعات الواسعة ليقفوا بجانبه، لذا أصبحت البلاد التي تحت نفوذ المماليك عبارة عن إقطاعات يتصرف بها أصحاب النفوذ، وكثيراً ما كانوا يهملونها، ويكتفون بما تدر عليهم من أرباح ولو كانت قليلةً إلا أنها تكفيهم لاتساع الأراضي المقطوعة إليهم، وكذلك فإن الفلاحين لا يبذلون الجهد اللازم فيها لأنهم يعملون فيها لغيرهم .لذا قلت الموارد، وزادت المعيشة ضنكاً. وإذا كان السلطان يستطيع الحصول على إرضاء أمراء المماليك بما كان تحت يده من مال ومن تصرّف بفرض الضرائب، وإقطاع الأرض إلا أنهم هم أنفسهم كانوا يحرصون على تحصيل مبالغ من المال كبيرة لشراء المماليك لهم، أو ليقوموا بما قام به من سبقهم، ومن هو أعلى منهم رتبةً، وتدور بعد ذلك الدائرة على الشعب، وهذا ما أخّر البلاد وزاد من معاناتها، وتقوقع الناس وانعزلوا في قراهم وأريافهم، لفقرهم وجهلهم وبعدهم عن المشاركة في الحياة العامة والخاصة لما يعانونه.

وكانت الروح الدينية لدى السلاطين والمماليك والشعب عامةً مرتفعةً، ويبدو هذا في كثرة المنشآت الدينية التي ظهرت في تلك المرحلة من مساجد وتكايا ومدارس وأربطة وحلقات العلم، وتقوم على تدريس العلوم الدينية، وتقديم الخدمات لطلبة العلم، هذا بالإضافة إلى الكتب الدينية التي صدرت آنذاك، وربما كان ذلك يعود إلى الحروب الدينية التي خاضها المماليك ضد التتار من جهة، وضد الصليبيين من جهةٍ ثانية، أو إلى الحماسة الدينية التي انتشرت في تلك الآونة إثر الغزو الصليبي ومساندة النصارى المحليين له، وهم الذين عاشوا في حمى المسلمين مدةً طويلةً من

الزمن شعروا فيها بالأمن والطمأنينة والرخاء ولكن عندما لاح لهم وصول أبناء عقيدتهم إلى بلاد المسلمين وأنهم على شيءٍ من القوة إذا بهم يضربون كل ما وجدوه من حماية المسلمين لهم عرض الحائط، ويساندون الصليبيين، وهذا ما أدى إلى إثارة الحماسة الدينية لدى المسلمين الذين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع النصارى سواء الغزاة منهم أم من كان يسكن في البلاد، كما وجد المسلمون أنفسهم أنهم هم وعقيدتهم الهدف من هذا الغزو لا شيء سواه. وربما كان تدوين الكتب الدينية وانصراف الناس نحوها نتيجة العزلة التي عاشوها والتقوقع الذي اعتادوا عليه فانبرى أهل العلم إلى التدوين باستثناء أوقات الجهاد، وربما كانت هذه المرحلة أغنى أوقات التدوين، فظهر من مشاهير العلماء أمثال: النووي(١)، والعز بن عبد السلام(٢)، وابن تيمية(٣)، وابن قيم الجوزية(٤)، والمزي(٥)، وابن حجر

---

(١) النووي: ولد ببلدة (نوى) من قرى حوران ببلاد الشام، وإليها نسبته، هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي، محيي الدين، علامة الفقه والحديث، كانت ولادته عام ٦٣١، وتعلم بدمشق، وأقام بها، وتوفي ببلدته (نوى) عام ٦٧٦.

(٢) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي: عز الدين الملقب بسلطان العلماء، ولد بدمشق عام ٥٧٧، زار بغداد عام ٥٩٩، ورجع إلى دمشق بعد شهر، تولى الخطابة بجامع دمشق، أنكر على الصالح إسماعيل بن العادل تسليم صفد للصليبيين فلم يدع له، فغضب عليه وسجنه، ثم أطلقه، فسار إلى مصر فتولى فيها القضاء، وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠.

(٣) ابن تيمية: ولد عام ٦٦١ وهو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري الحراني الدمشقي، تقي الدين، أبو العباس، قاتل المغول، وطلب إلى مصر لفتوى أفتاها، فسجن في القاهرة، ثم نقل إلى الإسكندرية، وأطلق سراحه عام ٧١٢ فعاد إلى دمشق، واعتقل بها وأطلق عام ٧٢٠، ومات بسجن قلعة دمشق معتقلاً عام ٧٢٨، وخرجت دمشق بجنازته وقيل: إن مؤلفاته بلغت ثلاثمائة مجلد.

(٤) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، ولد في دمشق عام ٦٩١، تتلمذ على ابن تيمية ونشر علمه، وسُجن معه، وأطلق سراحه بعد موت أستاذه، وتوفي بدمشق عام ٧٥١، وألف تصانيف كثيرة.

(٥) المزي: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي: محدث الديار الشامية في عصره، ولد بظاهر حلب، ونشأ بالمزة (من ضواحي دمشق) وتوفي بدمشق عام ٧٤٢، وصنف كتباً كثيرة.

العسقلاني[١]، والذهبي[٢]، وابن جماعة[٣]، وابن كثير[٤]، والمقريزي[٥]، وابن تغري بردي[٦]، والقلقشندي[٧]، وابن قدامة[٨]، والمزي الفلكي

---

(١) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين: أصله من عسقلان بفلسطين بالقرب من غزة، ولد بالقاهرة عام ٧٧٣، ولع بالشعر والأدب، ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز لسماع الشيوخ، وعلت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٢.

(٢) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله: ولد في دمشق عام ٦٧٣، وهو من أصل تركماني، حافظ، مؤرخ، علامة محقق، رحل إلى القاهرة، وطاف كثيراً من البلدان، وصنف كثيراً من الكتب، وكفّ بصره عام ٧٤١ وتوفي بدمشق عام ٧٤٨.

(٣) ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، أبو عبد الله: ولد في حماه عام ٦٣٩، ولي الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء بمصر، كان من خيار القضاة توفي بمصر عام ٧٣٣.

(٤) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد عام ٧٠١ في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل إلى دمشق عام ٧٠٦، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤.

(٥) المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس، الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية أصله من بلدة بعلبك في بلاد الشام، ولد ونشأ بالقاهرة، وكانت ولادته عام ٧٦٦، اتصل بالسلطان الظاهر برقوق، وولي الخطابة والحسبة والإمامة عدة مرات، وعرض عليه قضاء دمشق عندما سافر إليها عام ٨١٠، وتوفي بالقاهرة عام ٨٤٥.

(٦) ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين: مؤرخ بحاثة، ولد بالقاهرة عام ٨١٣، كان أبوه من مماليك السلطان الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، وتعني تغري بردي «عطاء الله» مات أبوه بدمشق عام ٨١٥، فنشأ يوسف في حجر القاضي جلال الدين البلقيني الذي توفي عام ٨٢٤، وتأدب يوسف وقرأ الحديث، وأولع بالتاريخ، وبرع في فنون الفروسية، وصنف الكتب الكثيرة وتوفي بالقاهرة عام ٨٧٤.

(٧) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: ولد في قلقشنده في قرى القيلوبية بقرب القاهرة، وتوفي بالقاهرة عام ٨٢١، صنف الكتب الكثيرة، ومن أشهرها صبح الأعشى في قوانين الإنشا، ويعد دائرة معارف.

(٨) ابن قدامة: محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أو عبد الله، المقدسي، الدمشقي: ولد عام ٧٠٥، وأخذ عن ابن تيمية والذهبي، وصنف أكثر من مائة مجلد، ويعد من كبار الحنابلة، وتوفي بدمشق عام ٧٤٤.

المتوفى عام ٧٥٠. وأعداد كثيرة من كبار العلماء يصعب حصرهم.

وأما من ناحية الغزو والجهاد فقد كان للمماليك دور بارز وأثر واضح فيه، وهو الذي أعطى تلك السمعة، وأظهر لهم الهيبة لدى المسلمين في كل أرض، ولو أنصفناهم في هذا الميدان لرفعنا من سمعتهم، ولكن دعاة العصبية في هذا العصر يصعب عليهم إعطاء الحق لأهله، ويحاولون أن يمسحوا المجد عن غيرهم، وينسبوا لأنفسهم ما لم يأتوا به.

لقد وقف المماليك أمام التتار الذين لم يستطع أن يقف أمامهم أحد وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت المشهورة، وتابعوا فلولهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام مهزومين بعد أن دخلوها ظافرين، واستمر وقوفهم في وجه المغول الذين حاولوا أخذ بلاد الشام وغزو مصر في أوقات متتابعة، وبقوا في صمودهم حتى ذاب هؤلاء الغزاة في المجتمع، واعتنقوا عقيدته، ثم حاول التتار في أيام تيمورلنك مرة أخرى غزو مصر، وإن كانوا قد تمكنوا من أخذ بلاد الشام، ودخول دمشق، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى مصر لصمود المماليك، وصحيح أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أظهر الخضوع لتيمورلنك، وضربوا السكة باسمه بعد أن انتصر على السلطان العثماني بايزيد، غير أن تيمورلنك لم يلبث أن توفي عام ٨٠٨، وضعفت دولته بعد ذلك، وبقي المماليك، بل كان (شاه رخ) ابن تيمورلنك يرجو المماليك أن يسمحوا له بزيارة القدس وكسوة الكعبة و....

وكما وقف المماليك في وجه التتار وقفوا كذلك في وجه الصليبيين، وتمكنوا من إخراج بقاياهم من بلاد الشام عام ٦٩٠، ومن جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وانتقلت أعداد من الصليبيين إلى جزيرة قبرص، وبدؤوا يشنون الغارات منها على مصر إلا أنهم في النهاية قد خضعوا للمماليك، وأصبحت تعترف بسلطانهم عليها، واستقر فرسان الاسبتاريين من الصليبيين في جزيرة رودوس، واتخذوها قاعدةً لهم، وأخذوا يغيرون على مصر أيضاً، فانبرى المماليك لهؤلاء الصليبيين، وتوجهوا إلى غزو رودوس التي كادت تقع بأيديهم لولا الدعم الصليبي الأوربي الكبير.

وأخضع المماليك النوبيين النصارى الذين تمادوا في تعدياتهم على المسلمين فاعترف النوبيون بسلطان المماليك، ودانوا بعد ذلك بالإسلام.

وفي أواخر العهد المملوكي وقف سلاطين هذا العهد أمام التقدم الصليبي البرتغالي الذي جاء من الجنوب، وأحرزوا النصر في بداية الأمر، ثم هُزموا ولكنهم لم ييأسوا، ولم يتوانوا في الإعداد لصدّ هؤلاء الغزاة الجدد، ولولا التقدّم العثماني من الشمال ودخول بلاد المماليك، والقضاء عليهم، وأخذ مكانهم للدفاع عن بلاد المسلمين ضد البرتغاليين لاستمر المماليك في موقفهم في هذا الميدان وعلى هذه الثغرة. هذه الخدمات الواسعة التي قدّمها المماليك للدفاع عن بلاد المسلمين لم يقدرها دعاة العصبية حق قدرها، بل قلّلوا من أثرها، لأنهم يعدونهم غرباء عن الأمة، وكانت غربتهم سبباً في هذا الضعف الذي حلّ بالأمة حسب زعم هؤلاء القوميين، لكن الإسلام لم يعترف بهذا التقويم الصادر عن العصبية.

الفصل الأول

قيام دولة المماليك

كان الترك الذين يؤسرون في الحروب يشكلون أكبر نسبة للرقيق، وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر إذ كانت تلك الجهات مسرحاً دائماً للقتال، وتمتد بلاد الترك إلى ما بعد تلك المناطق كثيراً حيث تتوغل إلى منغوليا وغيرها من بلدان أواسط آسيا، وتصل إلى بلاد الأفغان اليوم ونواحي واسعة من سيبيريا، وتتجه تلك الأقوام باستمرار نحو الغرب، وتصطدم مع المسلمين، وتكون أعداد من الأسرى كبيرة، وإن كانت جموع أخرى تدخل ديار الإسلام، ثم لا تلبث أن تدين بديانة أهل البلاد، وتعمل بعدئذٍ على نشر الإسلام، ومحاربة أبناء جلدتها أيضاً، ومن هؤلاء السلاجقة، والتركمان الغز، ثم العثمانيون و. . . .

ثم غدا الصقالبة مصدراً آخر للرقيق، وكان يؤتى بهم من شرقي أوربا إلى ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والأندلس حيث يباعون، وعمل اليهود في تجارة الرقيق، وحصلوا على أموال وفيرة من وراء هذه التجارة، وغدت بعض الأسواق في أوربا لهذا الرقيق الذاهب إلى البلدان الإسلامية وبيزنطة. «فإذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه، ويسلّمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار. وصار الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك، علّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه

فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلّم كل طائفةٍ معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب، لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة، وينتقل في أطوارها رتبةً بعد رتبةٍ إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذّبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل. وقد كان لهم خدام وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً، أو أخلّ برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبةٍ شديدةٍ بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادةً يدبّرون الممالك، وقادةً يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسةٍ يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدّى»[1].

كان هذا الوضع أيام الأيوبيين، ولم يختلف عند أيام المماليك إذ أخذوا عنهم كثيراً من تقاليدهم ونظمهم ولا غرابة في ذلك فهم ساداتهم.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب الملك الأيوبي السابع قد استكثر من المماليك الذين نسبوا إليه كالعادة - فهم المماليك الصالحية، وذلك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمه إسماعيل، وقد أعطى هذا الملك الصالح الحرية لمماليكه هؤلاء حتى ضجّ منهم الناس فاضطر أن يبعدهم عن السكان فبنى لهم قلعةً خاصةً بجزيرة الروضة عام ٦٣٨، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه، وقد عرف هؤلاء المماليك بالبحرية إضافةً إلى الصالحية، والبحرية نسبةً إلى جزيرة الروضة، وإن كانت هذه النسبة ليست خاصةً بهم إذ أطلقت على كثيرين غيرهم إذ جلبوا مما وراء البحار وخاصةً الصقالبة الذين جيء بهم عن طريق البحر.

---

(١) الخطط للمقريزي الجزء الثاني ص٢١٣ - ٢١٤.

توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يقاتل الصليبيين عام ٦٤٧، وكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته حتى وصل إلى مصر ابنه توران شاه الذي استدعته حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين، على حين كانت هي تدير أمور المملكة، وشؤون القتال باسم زوجها المتوفى، ولا يعلم أحد خبر وفاته. ووصل الصليبيون إلى المنصورة، وجيوش المسلمين تتراجع، فجمع الأمير بيبرس البندقداري جماعة من المسلمين، وقادهم وتمكن من إبادة الصليبيين الغزاة. كما قاد الأمير فارس الدين أقطاي المملوكي المماليك، وهاجم الصليبيين، وانتصر عليهم حتى أيقنوا بعدم إمكانية البقاء فانسحبوا إلى دمياط.

كان توران شاه قد وصل من بلاد الشام، وقاد الجيوش بنفسه، واضطر لويس التاسع ملك فرنسا إلى طلب المهادنة والصلح بعد أن وقع أسيراً بأيدي المسلمين، وانتهت الحملة الصليبية السابعة حيث انسحب الملك لويس التاسع إلى عكا، ودفع جزيةً كبيرةً وفداءً له.

اختلف توران شاه مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري عام ٦٤٨، كما كان قد اختلف مع زوجة أبيه شجرة الدرّ التي عادت السلطة إليها بعد مقتل ابن زوجها، فعيّنت عز الدين أيبك، ثم تنازلت له بعد أن تزوجت به. وفي هذه الأثناء انسحب الفرنسيون من دمياط.

غضب الأيوبيون من سيطرة عز الدين أيبك، وسار الملك الناصر يوسف[١] صاحب حلب إلى دمشق فدخلها، وزحف نحو مصر غير أن عز الدين أيبك قد تمكن من ردّه، وتحالف مع الملك لويس التاسع خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

أرسل هولاكو وفداً إلى عز الدين أيبك، وفي الوقت نفسه أرسل إلى الملك الناصر يوسف.

عمل عز الدين أيبك الملك المعزّ على إنهاء معارضة الأيوبيين، بأن

(١) الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي.

جعل أميراً أيوبياً بجانبه، وقد اختار لهذه الإمارة طفلاً صغيراً لا يزيد على السادسة من عمره، وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن، وهو المعروف باقسيس، أما أبوه فقد عاش في كنف الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكن هذا الطفل لم يلبث أن توفي، غير أن هذه الطريقة لم تنطل على الأيوبيين فاستمرت المعارضة فأعلن أيبك ارتباط مصر بالخلافة العباسية وأنه يحكمها نيابةً عن الخليفة العباسي المستعصم الذي بدأ يخطب له.

استمر الملك الأيوبي الناصر يوسف في معارضته لعز الدين أيبك، وعرض على ملك فرنسا لويس التاسع المقيم في عكا مساعدته مقابل تسليمه بيت المقدس، غير أن الملك المعز قد هدد لويس التاسع بقتل الأسرى الصليبيين في مصر جميعهم إن اتفق مع الناصر يوسف، وفي الوقت نفسه عرض عليه التحالف معه مقابل أن يتنازل له عن نصف الفدية المقررة عليه، فرأى بعدئذٍ الملك لويس التاسع أن يقف على الحياد بين الطرفين مستفيداً من خصومتهما بعضهما لبعض أو عمل على التحريض بينهما.

زحف الملك الأيوبي الناصر يوسف على مصر، والتقى مع المماليك عند بلدة العباسة، وأحرز النصر في بداية الأمر غير أنه قد هزم في الجولة الثانية إذ انضم جزء من مماليكه إلى المماليك، وفر الأيوبيون من الميدان، ورأى الملك المعز عز الدين أيبك ملاحقتهم، وعرض على ملك فرنسا الصليبي لويس التاسع دعمه مقابل تسليمه بيت المقدس إن أخذها، ورأى لويس التاسع الصليبي رجحان جانب المماليك فانضم إليهم حيث لم يرغب أن تفوته هذه الفرصة، واحتل يافا بينما سار المماليك بإمرة فارس الدين أقطاي إلى غزة وكذا سار الملك الناصر يوسف نحو غزة ولكن لم تحدث لقاءات لأن الخليفة المستعصم قد أصلح بين الطرفين بحيث تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين وذلك عام ٦٥١، وبذا لم يسلّم المماليك بيت المقدس للصليبيين، فلما خاب أمل الملك لويس التاسع عاد إلى فرنسا عام ٦٥٢، وقد اضطر إلى ذلك إذ توفيت والدته التي كانت تحكم له فرنسا وباسمه.

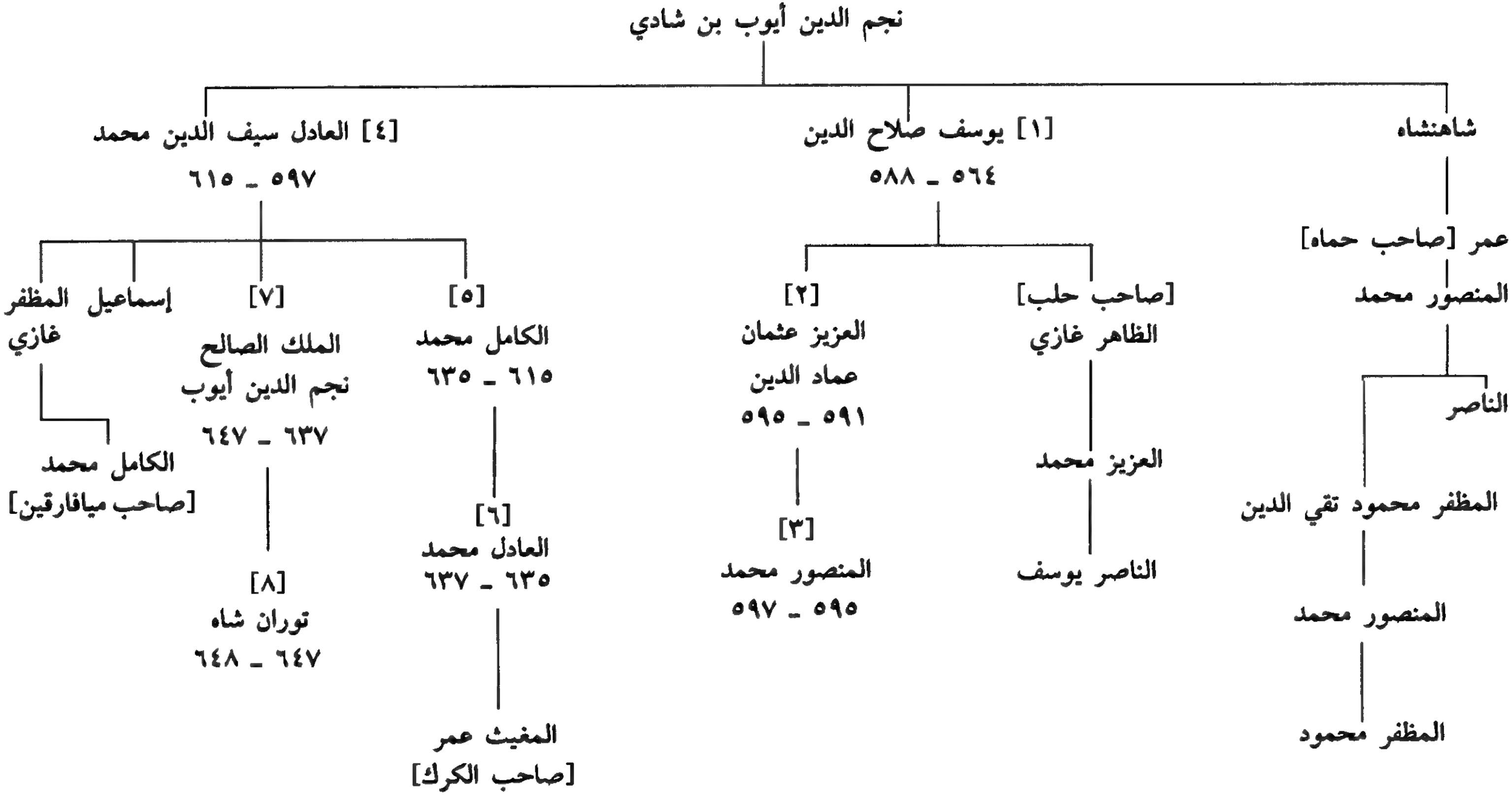

الأسرة الأيوبية

قامت في هذه الأثناء حركة في الصعيد ضد المماليك وقد تزعمها شريف يُدعى حصن الدين إلا أن أيبك قد وجّه لهم قوةً بإمرة فارس الدين أقطاي فاستطاع أن يقمعها.

أصبح الأمير فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء وأكثرهم شهرة، وينافس الملك المعز عز الدين أيبك، ويحمل عليه بعض تصرفاته في تعهده للملك الصليبي بتسليمه بيت المقدس، وتلقب فارس الدين أقطاي باسم الملك الجواد، وتزوج إحدى الأميرات الأيوبيات هي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه، لكن الملك المعز عز الدين أيبك قد استدعى أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه مع مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها إلا أن الباب قد أغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك المعز أيبك بالضرب، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، وقتلوه، وأسرع أنصار أقطاي عندما علموا بالخبر لإنقاذه وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظناً منهم أنه لم يقتل بعد، ولكنهم لم يلبثوا أن أخبروا أن أمره قد انتهى، وهكذا انقسم المماليك إلى معزية وهم مماليك الملك المعز عز الدين أيبك، وصالحية أو بحرية، وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

بدأ بعض أمراء المماليك البحرية يفرّون إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأيوبي الأول لعز الدين أيبك والمتصالح معه حالياً، لذا فإن الناصر يوسف قد طلب من الملك المعز أيبك أن يعطي هؤلاء المماليك جنوبي بلاد الشام فيكون قد أبعدهم خوفاً من شرّهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فلا تتفتت قوة المسلمين تجاه أعدائهم إلا أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخافه، واعتقد دعمه للمماليك البحرية، واتفاقه معهم على أمر، لذا فقد استعد، وأقام بالعباسة استعداداً لأي طارئ، وبقي على حالة استعداده أو استنفاره مدة ثلاث سنوات، وعاد بعدها إلى القاهرة بعد أن تمّ حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم رسولاً هو نجم الدين البادراني فأصلح بينهما

على أن يكون للملك المعز عز الدين أيبك مصر وساحل بلاد الشام. ولجأ المماليك البحرية بعد هذا الصلح الذي دارت بنوده بين الملك المعز عز الدين أيبك المملوكي والملك الناصر يوسف الأيوبي لجؤوا إلى الملك الأيوبي المغيث عمر[١] صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً ببلاد مصر.

أراد الملك المعز عز الدين أيبك أن يحصر المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس شجرة الدر زوجة أيبك وعملت على التخلص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تحرّضه على غزو مصر وتتعهد له بدعمه للتخلص من أيبك ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة، فعملت مع المماليك واستطاعت قتله عام ٦٥٥هـ.

اختلفت المماليك بعضهم مع بعض فالصالحية منهم تناصر شجرة الدر، والمعزية تعارضها، وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدم المماليك الصالحية غير أن المماليك المعزية قد قبضوا عليه وسجنوه وتغلبوا على الأمر، وبدأت المماليك الصالحية تفرّ إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصة إلى المغيث عمر صاحب الكرك وتحرّضه على أخذ مصر، وقد حاول مرتين ٦٥٥ و ٦٥٦ غير أنه فشل في كلتا المحاولتين بجهود سيف الدين قطز. أما المماليك المعزية فقد قدموا عليهم نور الدين علي بن عز الدين أيبك الذي غدا سلطاناً لمصر، أما الذي يقوم بالنيابة عنه فهو الأمير سيف الدين قطز، ولكن لم يلبث قطز أن عزل نور الدين علي، وتسلم السلطنة بنفسه بحجة أن الأول كان ضعيفاً وظروف البلاد تقتضي رجلاً قوياً، فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوين شرسين هما التتار والصليبيون.

استولى التتار بقيادة هولاكو على بغداد عام ٦٥٦، وخاف الملك

---

(١) المغيث عمر: ابن الملك العادل محمد ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

الناصر يوسف فراسل هولاكو يجامله، ويطلب منه الدعم لأخذ مصر غير أنه لم يحدث بين الطرفين ما يدعو إلى التفاهم. وزحف التتار إلى بلاد الشام، ووجد الناصر يوسف نفسه ضعيفاً أمام جحافل التتار فاتصل بالمماليك، وطلب منهم المساعدة.

استولى التتار على حلب في صفر عام ٦٥٨، ثم استولوا على ميافارقين بإمرة يشموط بن هولاكو بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً لم يعرفه المغول من قبل، واستشهد صاحبها الملك الأيوبي الكامل محمد[١]، وخضع الملك الأشرف موسى[٢] صاحب تل باشر فأعطاه هولاكو إمارة حمص مكافأةً له، وكان الملك الناصر يوسف قد انتزعها منه منذ عام ٦٤٦، وزحف هولاكو نحو دمشق، ففرّ منها الناصر يوسف، واتجه إلى غزة فاستقبله سيف الدين قطز ومن معه، وبدأ قطز يتقرّب من جيش الناصر يوسف ويضم أمراءه إليه، حتى لم يبق مع الناصر يوسف إلا قليل فذهب بهم إلى جنوب الأردن حيث استقر قرب الجفر ليعيش منزوياً بمن معه منعزلاً عن الأحداث التي تدور في بلاده، وعلم هولاكو بهذا فأرسل مجموعة من الجند إلى الجفر، وأحضرت الناصر يوسف، فاستقبله هولاكو استقبالاً كريماً ورأى فيه ضالته، ومنّاه بالتربع على عرش دولةٍ أيوبية تشمل مصر والشام تحت حمى التتار، وقدّمه على الأشرف موسى إذ وجد في الأول خيراً له لما عنده من إمكانات وطاقات.

حاصر هولاكو دمشق في ربيع الأول عام ٦٥٨، وشدّد الحصار حتى استسلمت في ربيع الثاني أما القلعة فقد صمدت حتى ٢١ جمادى الآخرة من العام نفسه غير أنها سلمت من التهديم لالتماس أعيانها لديه، واتجه هولاكو نحو انطاكية بعدها.

---

(١) الكامل محمد: ابن الملك المظفر غازي بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

(٢) الأشرف موسى: ابن المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولم يكن ليسيطر إلا على تل باشر قرب الرها.

وصل إلى هولاكو نبأ وفاة أخيه مانغو خان التتار الأعظم، لذا فقد ترك بلاد الشام بعد أن ولّى عليها مكانه القائد كتبغانوين، واتجه إلى قره قورم حاضرة التتار لحضور اجتماع رؤساء التتار لانتخاب الخان الأعظم لهم، وهو يطمع أن يحصل على هذا المنصب لما قدم من خدمات لهم بمد نفوذهم إلى العراق والشام، فلما وصل إلى تبريز بلغه خبر انتهاء الاجتماع وإتمام عملية الانتخاب، واختيار أخيه قوبلاي خاناً أعظم للتتار، فسكت احتراماً لأخيه.

أما المماليك البحرية الذين فرّوا إلى بلاد الشام خوفاً من المماليك المعزية وأميرهم سيف الدين قطز، واتجهوا إلى الملوك الأيوبيين، وخاصةً إلى الناصر يوسف، والمغيث عمر فقد رجع بعضهم إلى مصر خوفاً من المغول، وترك بعضهم الآخر الناصر يوسف الذي تفاهم مع التتار على كرهٍ منه، أو اعتزل بعد فراره من التتار وانضمام جيشه في غزة إلى سيف الدين قطز هؤلاء قد ساروا إلى المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري، وبدؤوا يُغيرون على أملاك الناصر يوسف الجديدة، وهذا ما جعل الناصر يوسف يسير بجيش إلى الكرك، ويحاصرها ووجد المماليك أنفسهم في وضع خطير وخاصةً الذين كانوا بجانب الناصر يوسف وفرّوا من عنده مغاضبين لموقفه حتى ليقال إن الظاهر بيبرس كان قد عرض على الناصر يوسف إعطاءه أربعة آلاف مقاتل للوقوف في وجه التتار عندما أرادوا عبور نهر الفرات لمنعهم من ذلك لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذا الطلب، في هذا الوقت عفا قطز عن المماليك البحرية فبدؤوا يتجهون نحوه من بلاد سلاجقة الروم، ومن الكرك، ومن دمشق، وغدا المماليك مرة أخرى مجموعة واحدة، واستقبل قطز هؤلاء استقبالاً لائقاً وخاصةً بيبرس إذ أنزله بدار الوزارة وذلك عام ٦٥٨.

بعد أن سقطت دمشق بيد التتار أرسل هولاكو وفداً إلى الأمير سيف الدين قطز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض قطز على رجال وفد

هولاكو وأعدمهم، وعرض أجسادهم للناس، وأخذ قطز يحشد الحشود، ويفرض الضرائب فوجد معارضةً من العلماء على هذه الضرائب، وعلى رأسهم العز بن عبد السلام الذي أعلن أن على الأمير إذا أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحلي التي في بيته وبيت أمثاله من الأمراء وأن يضربها نقوداً فإن لم تف بالحاجة يفرض بعدها الضرائب، فامتثل قطز بذلك، وفعل ما وجّه إليه.

وتمّ الاستعداد، وأرسل قطز حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلى جهات غزة فانتصر على حملة تتارية متقدمة، وبقي يناور التتار كي لا يعلموا بتحرك الجيش الرئيسي الذي يقوده سيف الدين قطز.

سار سيف الدين قطز بجيشه مع الساحل الشامي باتجاه عكا، وهدد الصليبيين إن بدرت منهم أية بادرة شرّ، وطلب منهم أن يكونوا على الحياد إن لم ينصروا المسلمين، ولم يكن وضعهم يومئذٍ بالذي يساعدهم على التحرك سواء أكان بجانب المسلمين أم بجانب التتار. ووافى الأمير سيف الدين قطز قائده الظاهر بيبرس عند عين جالوت، وتدفق التتار إلى ذلك الميدان، واحتدمت المعركة وهجمت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين، فتقدم أمير الجيش الإسلامي سيف الدين قطز، وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته «وإسلاماه» واندفع نحو التتار يقاتل والتف حوله جنود المسلمين، وأنقضوا على التتار فأفنوهم، وقُتل قائد التتار «كتبغا» في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

ووصلت أخبار معركة عين جالوت إلى دمشق فابتهج المسلمون، وانطلقوا يهاجمون التتار، ويعملون بهم ذبحاً، وشملت هذه المذبحة النصارى أيضاً الذين وقفوا بجانب التتار وأعانوهم على المسلمين، واستأسدوا على المسلمين أثناء حكم التتار، ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول قطز إليها في ٢٧ رمضان عام ٦٥٨ أي بعد استسلام قلعتها بثلاثة أشهر وستة أيام، وهذه المدة التي حكم التتار فيها دمشق. وبدأ التتار يفرون من بلاد الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكن قطز من فتح بلاد

الشام بعدة أسابيع، وأعاد بعض الملوك الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء ودفع الأتاوات السنوية للسلطان في مصر، وكذلك أقطع أمراء المماليك إقطاعاتٍ واسعةً إذ أعطى علم الدين سنجر الحلبي نيابة دمشق يحكمها باسمه، ومنح حلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان الظاهر بيبرس يرغب بها، وقد طلبها من قطز لملاحقة التتار فلم يقبل منه فأصبح بنفسه شيء عليه.

عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز وربما كان للخلاف السابق بين المماليك البحرية الذين منهم بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم قطز، وقد اضطر المماليك البحرية للعودة إلى مصر بعد أن فرّوا منها عندما لم يجدوا لهم مقاماً في الشام لهجوم التتار فكان لا بدّ من الاتفاق لحماية ديار الإسلام، فلما أصبحت ديار الإسلام في أمان من هجوم التتار عاد الخلاف، وظهر من جديد، وقتل قائد جناح المماليك البحرية أمير المماليك المعزية، وربما كان سبب هذا القتل ما بقي في نفس بيبرس من قطز عندما رفض إعطاءه ولاية حلب، وهو يريد أن يتابع التتار، ويستعيد للمسلمين أرضهم، وعلى كلٍّ فقد قتل الأمير سيف الدين قطز، واتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

إن انتصار المماليك في عين جالوت قد جعل دعايةً واسعةً لهم وخاصةً أن الناس كانوا لا يتصوّرون هزيمةً كهذه الهزيمة تلحق بالتتار بسبب الرعب الذي أصابهم والهلع الذي ملأ قلوبهم.

إن الهجوم الصليبي الشرس من الغرب على ديار الإسلام والغزو التتاري الوحشي من الشرق ودعم النصارى الذين عاشوا في كنف المسلمين منذ فجر الإسلام إلى كلا العدوين الصليبي والتتاري والحقد الواضح الذي بدا منهم، كل هذا جعل المسلمين يعودون قليلاً إلى دينهم، كما كانت دعوة حكامهم بالدرجة الأولى إلى وحدة صفوف المسلمين للوقوف في وجه الأعداء وخاصةً أولئك الذين تعرّضت بلادهم للتخريب الصليبي أو

للتدمير التتاري، لذلك اعترف المماليك بسلطة الخلافة العباسية عليهم، والخلافة هي محطّ أنظار المسلمين في كل مكان، ويمكن أن يلتفّ حولها المسلمون، وتتوحد كلمتهم بها، ولا يوجد في ديار المسلمين سوى خليفةٍ واحدٍ لذا فهو الذي يمكن أن يحمل راية الجهاد ويقاتل المسلمون جميعاً تحت هذه الراية. وهذا الاعتراف بالخلافة العباسية قد أكسبهم الصفة الشرعية التي اعترف العباسيون بحكمهم، وفي الوقت نفسه فقد أكسبهم القوة، وعندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ قام المماليك يحملون عبء الجهاد، وقد وفقوا في ذلك فأنزلوا بالتتار هزيمة عين جالوت عام ٦٥٨.

كان الملك المظفر سيف الدين قطز قد استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي فلما قتل قُطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقّب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قطز بشهر واحد، وطلب من الملك الأشرف موسّى الأيوبي، والملك المنصور صاحب حماه الأيوبي أيضاً، والأمير حسام الدين لاجين العزيزي صاحب حلب مساعدته فلم يوافقوه، وسيّر الظاهر بيبرس حملةً إلى دمشق حملت سنجر إلى القاهرة مقيداً بالأغلال، ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر.

وقام رجل شيعي بالقاهرة يدعى الكوراني يدعو لنفسه، ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرةً أخرى أو الشيعة كما يسميها، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليها بسرعة.

ومع استقرار الوضع للظاهر بيبرس وقفت دولة المماليك على أقدامها، كما أن الخلافة قد عادت من جديد.

ولما كان المماليك هم السلاطين، وهم ولاة الأمور إذ لهم الدور الأول في تسيير شؤون الدولة سواء أكان في الداخل أم في الخارج لذا كان لا بد من بحث أمور هؤلاء السلاطين على نطاق أوسع من بحث الخلفاء، فالسلاطين هم الذين نسب إليهم العهد، ولم ينسب إلى العباسيين، وهم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بالنسبة إلى المسلمين في جهات الأرض.

ففي مرحلة قيام دولة المماليك تولّى أمر مصر أربعة من السلاطين هم:

١" ـ شجرة الدر	٦٤٨	٨٠ يوماً
٢" ـ المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥	٧ سنوات
٣" ـ نور الدين علي	٦٥٥ ـ ٦٥٧	٢ سنة
٤" ـ سيف الدين قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨	سنة واحدة

وبعد أن تولى السلطنة الظاهر بيبرس السلطنة بمدة أصبحت الخلافة أو حملت الدولة اسم الخلافة من جديد، واتجهت إليها أنظار المسلمين أكثر من السابق.

وتولى أمر المماليك نوعان من السلاطين يعودون في أصولهم إلى جهتين وهما:

١" ـ المماليك البحرية	٦٤٨ ـ ٧٩٢
٢" ـ المماليك الجراكسة أو البرجية	٧٩٢ ـ ٩٢٣

الفصل الثاني

عصر المماليك البحرية

٦٤٨ ـ ٧٩٢

١ ـ شجرة الدر:	٨٠ يوماً	٦٤٨ ـ ٦٤٨		
٢ ـ عز الدين أيبك:	٧ سنوات	٦٤٨ ـ ٦٥٥		قتل
٣ ـ نور الدين علي:	٢ سنة	٦٥٥ ـ ٦٥٧	ابن أيبك	خلع
٤ ـ سيف الدين قطز:	١ سنة	٦٥٧ ـ ٦٥٨		قتل
٥ ـ الظاهر بيبرس:	١٨ سنة	٦٥٨ ـ ٦٧٦		توفي
٦ ـ السعيد بركة:	٢ سنة	٦٧٦ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٧ ـ العادل بدر الدين:	أقل من سنة	٦٧٨ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٨ ـ المنصور قلاوون:	١١ سنة	٦٧٨ ـ ٦٨٩		توفي
٩ ـ الأشرف خليل:	٤ سنوات	٦٨٩ ـ ٦٩٣	ابن قلاوون	قتل
١٠ ـ الناصر محمد:	١ سنة	٦٩٣ ـ ٦٩٤	ابن قلاوون	خلع
١١ ـ العادل كتبغا:	٢ سنة	٦٩٤ ـ ٦٩٦		
١٢ ـ المنصور لاجين:	٢ سنة	٦٩٦ ـ ٦٩٨		قتل
١٣ ـ الناصر محمد: أعيد	١٠ سنوات	٦٩٨ ـ ٧٠٨	ابن قلاوون	اعتزل
١٤ ـ المظفر بيبرس الجاشنكير:	١ سنة	٧٠٨ ـ ٧٠٩		قتل
١٥ ـ الناصر محمد: عاد	٣٢ سنة	٧٠٩ ـ ٧٤١	ابن قلاوون	توفي
١٦ ـ المنصور أبو بكر:	أقل من سنة	٧٤١ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٧ ـ الأشرف كجك:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٨ ـ الناصر أحمد:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٣	ابن الناصر محمد	خلع
١٩ ـ الصالح إسماعيل:	ثلاث سنوات	٧٤٣ ـ ٧٤٦	ابن الناصر محمد	توفي
٢٠ ـ الكامل شعبان:	أقل من سنة	٧٤٦ ـ ٧٤٧	ابن الناصر محمد	قتل
٢١ ـ المظفر أمير حاج:	أقل من سنة	٧٤٧ ـ ٧٤٨	ابن الناصر محمد	قتل

٢٢ ـ الناصر حسن:	٤ سنوات	٧٤٨ ـ ٧٥٢	ابن الناصر محمد	خلع
٢٣ ـ الصالح صالح:	٣ سنوات	٧٥٢ ـ ٧٥٥	ابن الناصر محمد	خلع
٢٤ ـ الناصر حسن: أعيد	٧ سنوات	٧٥٥ ـ ٧٦٢	ابن الناصر محمد	قتل
٢٥ ـ المنصور محمد:	٢ سنة	٧٦٢ ـ ٧٦٤	ابن المظفر أمير حاج	خلع
٢٦ ـ الأشرف شعبان:	١٤ سنة	٧٦٤ ـ ٧٧٨	ابن حسين	قتل
٢٧ ـ المنصور علي:	٥ سنوات	٧٧٨ ـ ٧٨٣	ابن الأشرف شعبان	توفي
٢٨ ـ الصالح حاجي برقوق:	١ سنة	٧٨٣ ـ ٧٨٤	ابن الأشرف شعبان	خلع
٢٩ ـ الصالح حاجي برقوق:	أقل من سنة	٧٩١ ـ ٧٩٢	ابن الأشرف شعبان	خلع

وهم مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذين كثر عددهم، وزادت تعدياتهم فضجّ منهم السكان فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة عام ٦٣٨ فعرفوا بالمماليك البحرية، وإن كان هذا الاسم ليس خاصاً بهم إذ كثيراً ما أطلق على غيرهم بسبب حملهم عن طريق البحر، وإن لحق بهم هذا الاسم فيما بعد وأصبح دلالةً عليهم، كما عرفوا أيضاً باسم الصالحيين نسبة إلى لقب سيدهم الصالح نجم الدين أيوب، وأقل من هذا الاسم وذاك أطلق عليهم النجميين لاسم السيد نفسه.

حكم هؤلاء المماليك البحرية مصر مدة أربع وأربعين ومائة سنة ٦٤٨ ـ ٧٩٢، وقد تمثّل هذا الحكم في أسرتين فقط، وهما أسرة الظاهر بيبرس البندقداري، وقد دام حكمها مدة عشرين سنة (٦٥٨ ـ ٦٧٨) وقد حكم هو وولداه، ودام حكمه ثماني عشرة سنة، وحكم ابنه الأول السعيد بركة ما يقرب من سنتين، ثم خلع، وحكم ابنه الثاني العادل بدر الدين سلامش عدة أشهر وخلع بعدها. وكان الظاهر بيبرس قد حرص على بقاء أسرته في الحكم من بعده، وهيأ الأسباب لذلك، وكان خوفه من المماليك أنفسهم، وقد برز منهم يومذاك المنصور قلاوون لذا فقد سعى إلى ضمان قلاوون بل فكر بأن يجعله يقف بجانب أولاده من بعده، وزوّج ابنه وخليفته السعيد بركة من ابنة قلاوون غازية، وظنّ بأن هذه المصاهرة سيقف قلاوون بجانب ابنه السعيد بركة، وعندما حاصر المماليك السعيد بركة اتصل بالمنصور قلاوون وطلب دعمه فنصحه بالتنازل عن السلطنة، وقد فعل ذلك، ووافق قلاوون على استلام العادل بدر الدين سلامش أخي السعيد بركة وابن

الظاهر بيبرس السلطنة وذلك لأنه صغير ويمكن أن يتصرف بالأمر، ولم تمض عدة أشهر، حتى دعا المنصور قلاوون أمراء المماليك وبسط لهم الوضع القائم، وأن الأمر يتطلب رجلاً حكيماً يدبر شؤون الدولة، وأن الصغير يعيق الأمر ولا يصلح للأمر فاتفق الجميع على خلع العادل بدر الدين سلامش وسلطنة المنصور قلاوون.

أما الأسرة الثانية فهي أسرة المنصور قلاوون نفسه، وقد استمر أمرها أربع عشرة ومائة سنة (٦٧٨ ـ ٧٩٢) وحكم هو وأولاده وأحفاده، لم يتخللها سوى خمس سنوات خرج أمر مصر من أيديهم، إذ تسلم العادل كتبغا والمنصور لاجين والمظفر بيبرس الجاشنكير وقد قتل ثلاثتهم، حكم الأوليان منهم مدة أربع سنوات ٦٩٤ ـ ٦٩٨، وحكم الثالث ما يقرب من سنة (٧٠٨ ـ ٧٠٩).

أما أفراد الأسرة فقد حكم المنصور محمد أبو ناصر قلاوون إحدى عشرة سنة توفي بعدها (٦٧٨ ـ ٦٨٩)، ورجع الحكم بعده ضعيفاً إذ حكم ابنه الأشرف صلاح الدين خليل مدة أربع سنوات (٦٨٩ ـ ٦٩٣) وقتل بعدها، وجيء بأخيه الناصر محمد، ولم يطل عهده بأكثر من سنة حتى خلع، وتسلطن العادل كتبغا مدة سنتين ثم علا السلطة المنصور لاجين عندما كان العادل في زيارة لدمشق، لكن المنصور لاجين لم يلبث أن قتل، وأعيد إلى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وبقي عشر سنوات ٦٨٩ ـ ٧٠٨ غير أنه اعتزل، فتسلم السلطة المظفر بيبرس الجاشنكير، وشعر الناصر محمد بن قلاوون أنه هضم حقه فاستعاد السلطنة بالاتفاق مع بعض الأمراء، واستمر أمره حتى توفي، وقد أحبه الناس، لذا فقد حكم أبناؤه من بعده رغم ضعفهم وصغر سنهم، إذ تسلم السلطنة ثمانية من أبنائه. كان الأول منهم المنصور سيف الدين أبو بكر، وخلع قبل مرور عام على حكمه، وكان أمر الثاني الأشرف علاء الدين كجك كالأول لم يصل عهده إلى العام، ويشبههما الثالث الناصر أحمد، أما الرابع فهو الصالح إسماعيل، وقد حكم ثلاث سنوات (٧٤٣ ـ ٧٤٦) ومات بعدها، وجاء الخامس

الكامل شعبان وقتل قبل أقل من عام، وكذا السادس المظفر أمير حاج كان مصيره القتل، ولم يصل أمره إلى العام، وحكم السابع الناصر حسن أربعة أعوام (٧٤٨ ـ ٧٥٢) وخلع بعدها، وخلع الثامن الصالح صالح بعد ثلاث سنوات من حكمه (٧٥٢ ـ ٧٥٥) وأعيد الناصر حسن فاستمر سبع سنوات (٧٥٥ ـ ٧٦٢) وقتل بعدها. وتولّى الأمر بعدئذ المنصور محمد بن السلطان المظفر أمير حاج وخلع بعد عامين من حكمه ٧٦٢ ـ ٧٦٤، وجاء بعده ابن عمه الأشرف شعبان فحكم أربعة عشر عاماً ٧٦٤ ـ ٧٧٨ وقتل بعدها، وخلفه ابنه المنصور علي لمدة خمس سنوات توفي بعدها ٧٧٨ ـ ٧٨٣، وخلفه أخوه الصالح حاجي فلم يمض عليه سوى سنة حتى خلع، وتسلطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة غير أنه أعيد الصالح حاجي بعد سبع سنوات (٧٨٤ ـ ٧٩١) وحكم مدة سنة واحدة (٧٩١ ـ ٧٩٢) ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه، وأعيد إلى سلطانه، وانتهى أمر المماليك البحرية بشكل دائم، وجاء عهد المماليك الجراكسة أو البرجية.

ونلاحظ أن أسرة المنصور قلاوون قد حكم منها خمسة عشر سلطاناً توفي منهم أربعة وفاة طبيعية أو تركوا الحكم نتيجة الوفاة الطبيعية بينما خلع سبعة منهم خلعاً، وقتل خمسة منهم، وأن بعضهم وهو الناصر محمد قد خلع مرة، واعتزل مرة، وعاد حتى توفي، وأن الناصر حسن قد خلع، وأعيد ثم قتل. . .

وكان أكثرهم يتولى الأمر وهو صغير لذا يكون ألعوبةً بيد كبار الأمراء فيخلعونه أو يقتلونه، وما بقاء هذه الأسرة في الحكم هذه المدة الطويلة إلا بسبب ما تمتع به المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد من حب، وهما من الذين توفوا وفاة طبيعية من بين الأربعة السلاطين الذين توفوا هذه الوفاة، وقد حكم المنصور قلاوون مدة أحد عشر عاماً، وحكم الثاني وهو الناصر محمد ثلاثة وأربعين عاماً، وبذا يكون قد حكم اثنان من هذه الأسرة خمساً وخمسين سنة أي ما يقرب من نصف مدة الأسرة كلها، أما الآخرون وهم ثلاثة عشر سلطاناً فقد حكموا تسعة وخمسين عاماً أي بمعدل أربع سنوات

ونصف لكل سلطان غير أن خمسةً منهم لم يتجاوز أحدهم السنة بل لم يصل إلى سنة ثلاثة خلعوا خلعاً واثنان قتلا، وحكم واحد منهم مدة سنتين وخلع بعد ذلك. وحكم اثنان ثلاث سنوات خلع واحد منهما، ومات الثاني، وحكم واحد مدة أربع سنوات وقتل بعدها، وآخر خمس سنوات وتوفي بعدها، وقتل واحد بعد أربعة عشر عاماً. وهذا كله يدل على مدى ضعف هؤلاء السلاطين باستثناء اثنين منهم، وتلاعب أمراء المماليك بالسلاطين لصغر سنهم، والحسد الذي كان بينهم.

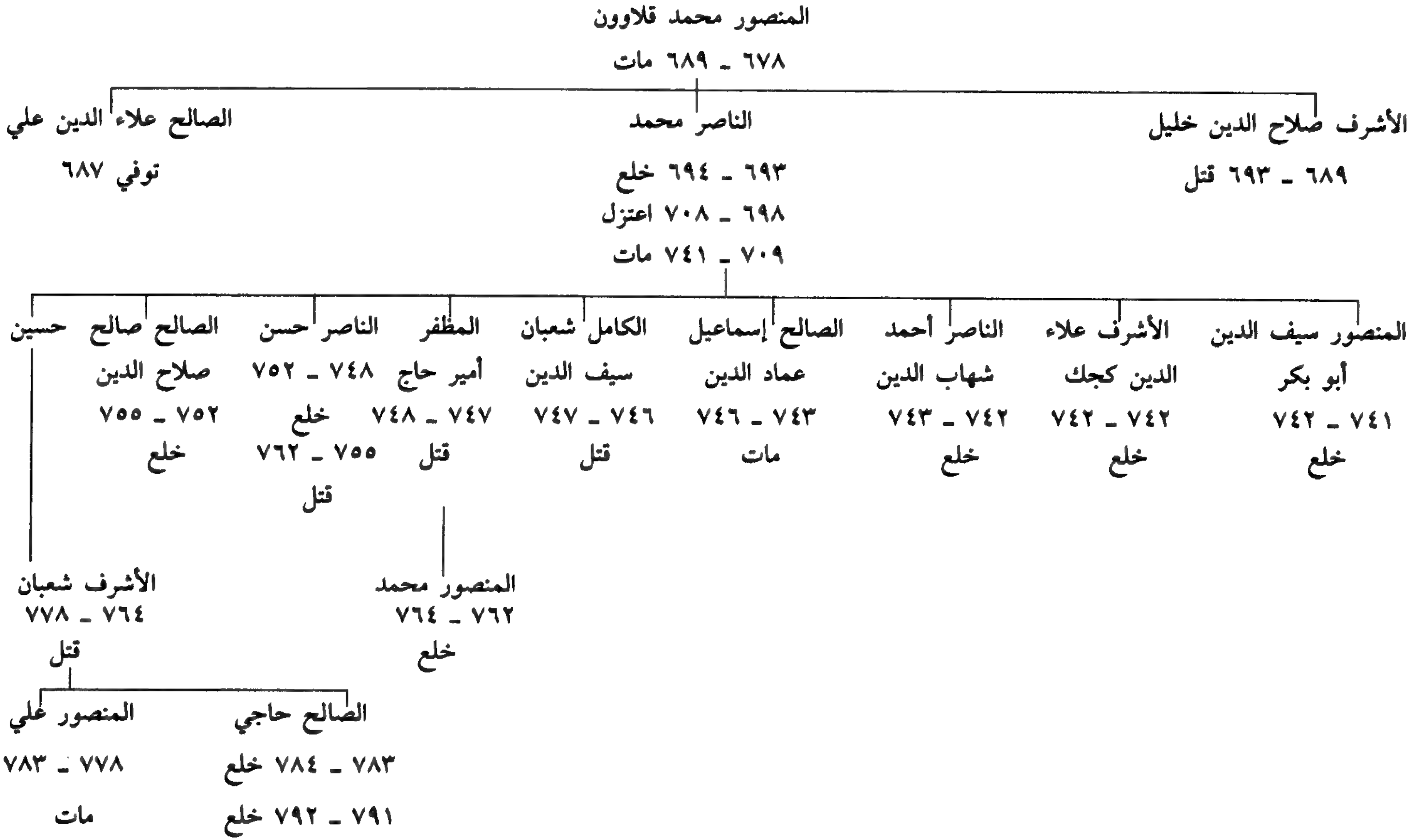
المنصور محمد قلاوون
٦٧٨ ـ ٦٨٩ مات
الأشرف صلاح الدين خليل
٦٨٩ ـ ٦٩٣ قتل
الناصر محمد
٦٩٣ ـ ٦٩٤ خلع
٦٩٨ ـ ٧٠٨ اعتزل
٧٠٩ ـ ٧٤١ مات
الصالح علاء الدين علي
توفي ٦٨٧
المنصور سيف الدين
أبو بكر
٧٤١ ـ ٧٤٢
خلع
الأشرف علاء
الدين كجك
٧٤٢ ـ ٧٤٢
خلع
الناصر أحمد
شهاب الدين
٧٤٢ ـ ٧٤٣
خلع
الصالح إسماعيل
عماد الدين
٧٤٣ ـ ٧٤٦
مات
الكامل شعبان
سيف الدين
٧٤٦ ـ ٧٤٧
قتل
المظفر
أمير حاج
٧٤٧ ـ ٧٤٨
قتل
الناصر حسن
٧٤٨ ـ ٧٥٢
خلع
٧٥٥ ـ ٧٦٢
قتل
الصالح صالح
صلاح الدين
٧٥٢ ـ ٧٥٥
خلع
حسين
المنصور محمد
٧٦٢ ـ ٧٦٤
خلع
الأشرف شعبان
٧٦٤ ـ ٧٧٨
قتل
الصالح حاجي
٧٨٣ ـ ٧٨٤ خلع
٧٩١ ـ ٧٩٢ خلع
المنصور علي
٧٧٨ ـ ٧٨٣
مات

الخلافة العباسية
في مصر

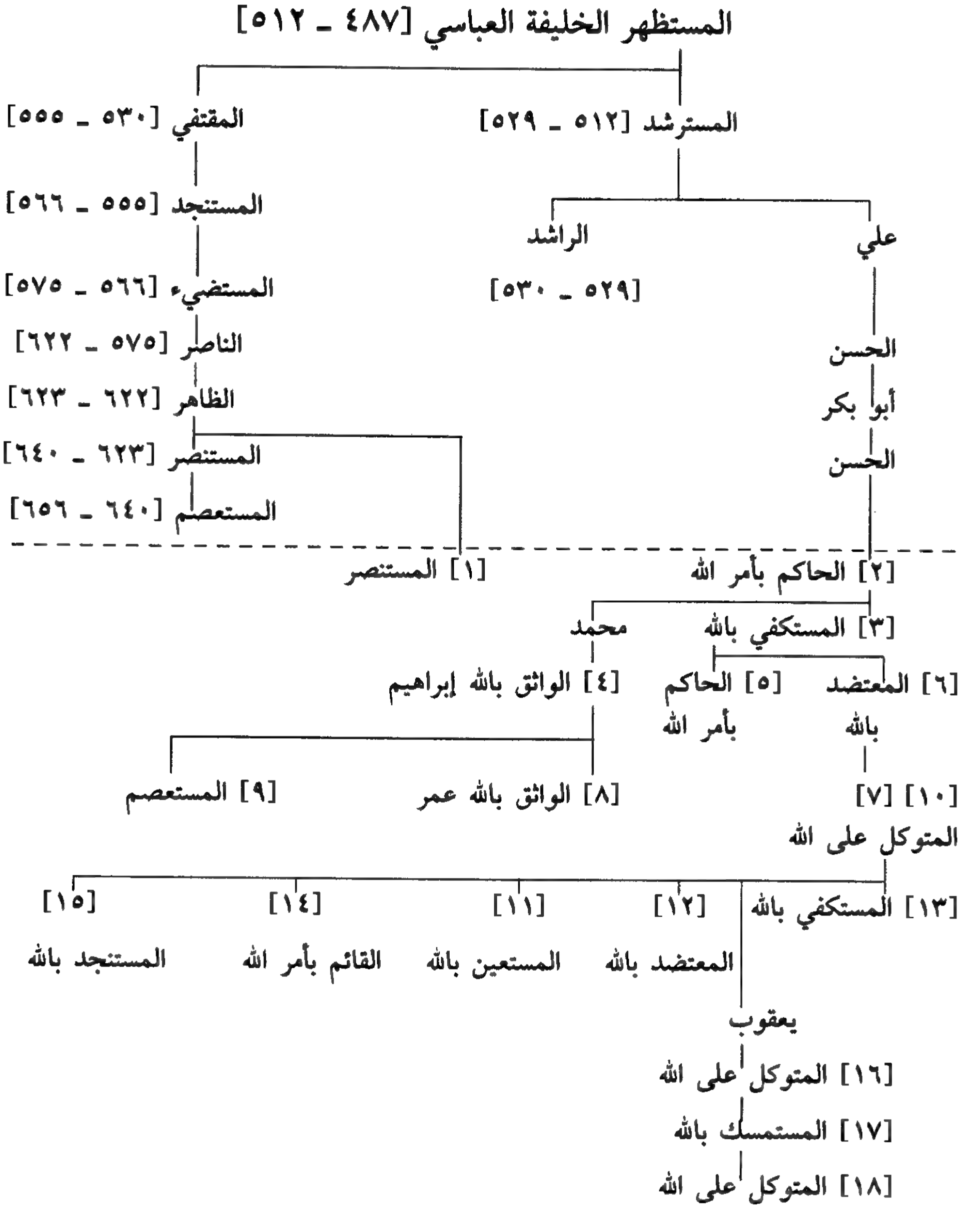

خلفاء بني العباس في القاهرة

١ ـ المستنصر	٦٥٩ ـ ٦٦٠	
٢ ـ الحاكم بأمر الله «الأول»	٦٦١ ـ ٧٠١	
٣ ـ المستكفي بالله «الأول»	٧٠١ ـ ٧٣٦	
٤ ـ الواثق بالله «الأول»	٧٣٦ ـ ٧٤٢	
٥ ـ الحاكم بأمر الله «الثاني»	٧٤٢ ـ ٧٥٣	
٦ ـ المعتضد بالله «الأول»	٧٥٣ ـ ٧٦٣	
٧ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٦٣ ـ ٧٨٥	للمرة الأولى... خلع
٨ ـ الواثق بالله «الثاني»	٧٨٥ ـ ٧٨٨	
٩ ـ المستعصم	٧٨٨ ـ ٧٩١	
١٠ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٩١ ـ ٨٠٨	للمرة الثانية
١١ ـ المستعين بالله	٨٠٨ ـ ٨١٥	خلع
١٢ ـ المعتضد بالله «الثاني»	٨١٥ ـ ٨٤٥	
١٣ ـ المستكفي بالله «الثاني»	٨٤٥ ـ ٨٥٤	
١٤ ـ القائم بأمر الله	٨٥٤ ـ ٨٥٩	خلع
١٥ ـ المستنجد بالله	٨٥٩ ـ ٨٨٤	
١٦ ـ المتوكل على الله «الثاني»	٨٨٤ ـ ٨٩٣	
١٧ ـ المستمسك بالله	٨٩٣ ـ ٩١٤	
١٨ ـ المتوكل على الله «الثالث»	٩١٤ ـ ٩٢٣	تنازل للسلطان العثماني سليم وتوفي عام ٩٥٠

ـ ١ ـ

المستنصر بالله

أحمد بن محمد الظاهر

٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ

هو أحمد أبو القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣)، أخو الخليفة العباسي المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠)، عمّ الخليفة المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦)، كان داخل السجن عندما اقتحم التتار بغداد، فلما فتح السجّانون أبواب السجون أطلق أحمد أبو القاسم فهرب، وتمكن من الخروج من بغداد فاتجه إلى عرب العراق فبقي مدةً عندهم، فلما انتصر المماليك في عين جالوت على التتار، ثم طردوهم من الشام، توجه أحمد أبو القاسم إلى القاهرة، وكان الأمر فيها للسلطان بيبرس فوصل إليها في أوائل رجب من عام ٦٥٩ ، فأثبت نسبه فبايعه بالخلافة السلطان بيبرس، ثم قاضي القضاة تاج الدين، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك في شهر رجب من العام نفسه، وخطب له، ونقش اسمه على السكة، ولُقّب بالمستنصر على لقب أخيه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ودعا للسلطان بيبرس، ثم صلى بالمسلمين.

قرر الخليفة المستنصر التوجه إلى العراق لقتال التتار فخرج، وخرج معه السلطان بيبرس يشيعه حتى دمشق، فجهّزه بجيش، وانضم إليه الملوك في بلاد الشام، وصاحب سنجار، والخليفة الحاكم بأمر الله الذي بويع في حلب الذي تنازل له بسبب أنه أكبر منه سناً، ولصلته بأواخر خلفاء بني العباس في بغداد، وسار معه تحت لوائه، واستطاع الخليفة المستنصر أن

يدخل مدينة الحديثة على نهر الفرات، وسار بعدها إلى هيت فدخلها أيضاً، فالتقى بعدها بجيشٍ من التتار، وحدثت معركة بين الطرفين، قتل فيها الخليفة المستنصر، ونجا منها الخليفة الحاكم بأمر الله مع عدد قليل من أنصاره، وذلك في الثالث من محرم عام ٦٦٠.

وبذا كانت خلافة المستنصر دون ستة أشهر بعشرة أيام.

ـ ٢ ـ

الحاكم بأمر الله

أحمد بن الحسن

٦٦١ ـ ٧٠١

هو الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الضبي ابن الخليفة المسترشد بالله ابن الخليفة المستظهر بالله. كان قد اختفى عندما سقطت بغداد بيد التتار فلما خفّ الطلب، وانخفضت موجة التدمير التتاري هرب مع جماعة من أنصاره، وسار إلى عرب بني خفاجة فأقام عندهم مدةً، ثم سار إلى دمشق، وأقام عند عيسى بن مهنا زمناً فطلبه الملك الناصر صاحب دمشق غير أن هجوم التتار قد كفّ عنه الطلب. فلما جاء الملك المظفّر إلى دمشق أرسل في طلبه الأمير قلج البغدادي فالتقى به وبايعه بالخلافة، ودعاه الظاهر بيبرس للسير إلى القاهرة وقد همّ بذلك غير أن أحمد أبا القاسم ابن الخليفة قد سبقه مما اضطره أن يعدل الرأي في السير إلى القاهرة وأن يتوجه إلى حلب حيث بويع هناك بالخلافة، وقد جهّزه صاحب حلب، وأرسل معه فرقة لقتال التتار، وإنقاذ بغداد منهم، وتلقّب بالحاكم بأمر الله، وسار إلى عانة والحديثة والتقى بالخليفة المستنصر الذي بويع في القاهرة، وتنازل له لأنه أصغر منه سناً، وقاتل تحت رايته والتقيا مع التتار في معركةٍ قتل فيها الخليفة المستنصر أحمد أبو القاسم، ونجا أحمد أبو العباس هذا مع عددٍ قليلٍ فاتجه إلى الرحبة، ومنها إلى عيسى بن مهنا فراسل الظاهر بيبرس فيه فطلبه فسار إلى القاهرة، ومعه ولده، ومجموعة من أتباعه، فأكرمه الظاهر

بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة وخطب بمسجدها عدة مرات. وبعد أن أثبت نسبه بايعه السلطان وقاضي القضاة والعلماء وبقية الناس، وذلك في مطلع عام واحد وستين وستمائة (الثامن من محرم)، فبقي المسلمون سنةً دون خلافة من عام (٦٦٠ ـ ٦٦١)، كما مرت عليهم مدة ثلاث سنوات دون خلافة (٦٥٦ ـ ٦٥٩) أي منذ سقوط بغداد بيد التتار إلى قيام خلافة المستنصر بن الظاهر بالقاهرة.

بقي اللقب الذي اختاره الخليفة لنفسه وهو «المتوكل على الله» كما هو، لم يغيره، واستبقى الملك الظاهر بيبرس الخليفة في القاهرة، ولم يعد يفكر بإرساله إلى بغداد لقتال التتار واسترجاع بغداد كحاضرة للعباسيين، وإنما أراد تقوية مركز الخلافة بالقاهرة بوجود الخليفة فيها، وليس هو إلا رمز تقوى به السلطة، ويدعمه السلطان، ويقوى به أهل السنة أيضاً، وتعود إلى المسلمين خلافتهم ويقوى سلطانهم بالتفافهم حول الخليفة الذي هو رمز السلطة الإسلامية، وتكتسب الدولة المملوكية الصفة الشرعية، ويعظم نفوذها، وتزداد أهميتها لدى الدول الإسلامية الأخرى، وبالفعل فقد أصبح المماليك محط أنظار المسلمين وأقوى دولة لهم في تلك الحقبة من التاريخ.

وإلى جانب الخلافة العباسية في القاهرة أعلنت الدولة الحفصية في تونس وتنتسب هذه الدولة إلى أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة أحد بطون مصمودة التي قامت دولة الموحدين على جهودها، وكان أبو حفص أحد دعاة المهدي بن تومرت، وقد عين والياً على تونس، وخلفه في الولاية ابنه عبد الواحد عام ٦٠٢ الذي تزوج أخت الأمير الموحدي المنصور، وقام من بعده ابنه أبو زكريا، فلما هزم الموحدون أمام نصارى الأندلس في معركة العقاب عام ٦٠٩، وضعف نفوذهم في المغرب والأندلس أعلن أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي استقلاله بتونس عام ٦٢٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله عام ٦٤٧ فأعلن نفسه خليفةً للمسلمين عندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦، وبايعه على ذلك شريف مكة إدريس،

وتلقّب الخليفة الحفصي باللقب نفسه الذي تلقّب به الخليفة العباسي بالقاهرة.

إن مركز الخليفة بالقاهرة قد قوّى دولة المماليك، أو أن الملك الظاهر بيبرس قد دعّم دولته بشكلٍ قويٍ ورسّخ أركانها، وفي عام ٦٦٧ حج الظاهر بيبرس، وأزال أنصار الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرّب من العلماء، وبنى المدارس والمكتبات، وتزعم العالم الإسلامي.

وإذا كان صاحب حمص الملك الأشرف موسى الأيوبي، وصاحب حماه الملك المنصور الأيوبي قد أعلنا ولاءهما للظاهر بيبرس إلا أن المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب الكرك كان يرى نفسه أحق بالسلطنة وبحكم مصر من المماليك، وبقي يعمل لذلك، واستطاع بيبرس دعوته إلى معسكره في بيسان فاستجاب له، وسار إليه فقبض عليه، ودخل الكرك وعيّن عليها والياً من قبله عام ٦٦١، وبذا صفا له الوضع في بلاد الشام.

وإذا كان الصليبيون قد خفّ أثرهم، ولم يعد بإمكانهم إرسال حملات جديدة إلى ديار المسلمين لأنهم يئسوا من إحراز النصر، وانقطع أملهم في تحقيق أي هدف لهم بعد أن وجدوا كلمة المسلمين تميل إلى الوحدة، ولم يكن لدعم النصارى في المشرق، والذين يعيشون في كنف المسلمين منذ مدة ليست قصيرة، كبير فائدة، غير أن الظاهر بيبرس كان يخافهم لوجودهم في بلاد المسلمين، ولم يأمن مكرهم في أي وقتٍ من الأوقات، كما لم يأمن مكر التتار الذين خفّت هجمتهم الشرسة عما كانت عليه أيام جنكيزخان وهولاكو غير أن شرّهم لا يزال قريباً، ومتوقعاً في كل وقت، لذا فقد عمل السلطان الظاهر بيبرس مع الجهات الثانية وإن كانت ذات ضررٍ لكنه أقل من شرّ التتار والصليبيين، لقد تحالف مع امبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن باليولوج، وأرسل له وفداً وهدايا وذلك عام ٦٦٠، كما حالف امبراطور الدولة الرومانية الغربية، وملك صقلية ونابولي منفرد بن

فريدريك الثاني، وهو هنشتافن، وأرسل له وفداً برئاسة جمال الدين بن واصل، وكانت لا تزال في صقلية آنذاك بعض المدن الإسلامية، ويبدو من هذه التحالفات أن القصد منها عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ.

كما تحالف السلطان الظاهر بيبرس مع بركة خان أمير التتار في شمال بلاد القفجاق والسهول الشمالية وهو أول التتار الذين أسلموا من القبيلة الذهبية[١]، وكانت حاضرتها مدينة سراي[٢] على نهر الفولغا مكان ستالينغراد اليوم، وتزوج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان، وشجّعه للعمل ضد ابن عمه هولاكو، وكانت خصومات بينهما، ويبدو أن القصد من هذا التحالف إنما هو ضد هولاكو.

أما من الناحية الداخلية فقد شجّع السلطان الظاهر بيبرس الأعراب للإغارة على التتار، وقد وصلت غاراتهم حتى بغداد، وعمل على إحراق المروج التي يعتمد عليها التتار لعلف حيواناتهم عندما يهاجمون بلاد الشام، وبنى الحصون التي تمتد من نهر العاصي إلى نهر الأردن. وعمل المنائر لمراقبة العدو، وتشعل فيها النار إذا داهم العدو البلاد فيعرف أهل المدن فيستعدون، كما تنتقل أخبار هذه الهجومات بسرعةٍ خاطفةٍ فإذا علمنا أن التتار كانوا يعتمدون على المباغتة والهجوم المفاجئ عرفنا أهمية هذه المنائر. وربط البلاد بشبكة من المواصلات المنظمة وخاصةً فيما يتعلق بالبريد، وقوّى الجيش والأسطول، وأكثر من استخدام المماليك من بلاد القفجاق، ويريد أن يعمل ضد الصليبيين والتتار في وقتٍ واحدٍ وليس لديه الخيار في ذلك فالتعاون بين الطرفين واضح تماماً، وقد كان الصليبيون يرشدون التتار على الطرق، ويسمحون لهم بالنزول في إماراتهم النصرانية، ويبنون الحصون فيها، لذا قرر المماليك طرد الصليبيين من الشام، وانتقل

(١) أسسها أباتو بن جوجي بن جنكيزخان، وتسلّم أمرها بركة خان ٦٥٤ ـ ٦٦٥.

(٢) سراي: تقع شرق ستالينغراد على الضفة اليسرى لنهر الفولغا.

السلطان الظاهر بيبرس إلى الشام لتفقد جيوشه هناك فأسرعت إليه وفود الإمارات الصليبية يظهرون النفاق، ويريدون أن يعرفوا الأهداف التي يرمي إليها السلطان من خلال تقوية جيشه، وتعزيز حصونه، فقابل هذه الوفود بالجفوة.

سار السلطان بيبرس عام ٦٦٤ إلى بلاد الشام واستولى على قيسارية وأرسوف الواقعة إلى الجنوب منها. وهاجم بعد عام (٦٦٥) قلعة صفد واستولى عليها، ثم أخذ يافا عام ٦٦٦، وهاجم في شهر رمضان من العام نفسه انطاكية من جهة البحر عن طريق السويدية وذلك ليحول دون وصول الإمدادات إليها، وقطع طريق ممر بيلان للغرض نفسه كي لا تصل إليها النجدات من أرمينيا الصغرى في كيليكيا، أما القوة الرئيسية المهاجمة للمدينة فكانت بيده يقودها بنفسه، ودخل المدينة في ١٤ رمضان. وفي عام ٦٦٩ هاجم إمارة طرابلس فاستولى على حصن الأكراد (قلعة الحصن)، وحصون عكار (القليعات ـ حلبا ـ عرقه) غير أن حملةً صليبيةً جاءت بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا فأنقذت طرابلس من الوقوع بيد السلطان بيبرس الذي ترك طرابلس وأسرع إلى مصر خوفاً من أن تسير تلك الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثامنة إلى مصر إذ سبق للويس التاسع ملك فرنسا أن سار إلى مصر، واحتل دمياط، واتجه إلى المنصورة، ولا تزال أحلامه تراوده في دخول مصر وخاصةً أنه كان قد أسر، وفدى نفسه بفداءٍ كبير فله ثأر إذن، ويريد الانتقام، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه يعتقد أن احتلال مصر إنما هو السبيل لأخذ بيت المقدس، وبقاء الحماية له، غير أن الحملة الصليبية الثامنة قد اتجهت إلى تونس بناء على طلب أخي لويس التاسع الذي كان ملكاً لصقلية إذ كان يريد أن يغزو تونس، ويقاتل حكامها من الحفصيين، ولم يكن لويس التاسع ببعيد عن هذه الرغبة إلا أن الحملة ما كادت تصل إلى تونس حتى أصيب لويس التاسع بمرض الحمى ومات، وانتهت الحملة.

اطمأن بيبرس، وبعد أن كان يستعد لمواجهة الحملة ترك استعداده،

وانطلق ثانيةً إلى طرابلس عام ٦٧٠ غير أن أميرها بوهمند قد طلب المسالمة والصلح فأجابه السلطان الظاهر بيبرس إلى ذلك لأن حملةً صليبيةً جديدةً قد جاءت بقيادة الأمير إدوارد ونزلت في عكا، وكان الصلح بين الظاهر بيبرس وأمير طرابلس الصليبي بوهمند لمدة عشر سنوات.

وغزا السلطان بيبرس قبرص التي كان ملكها هيو الثالث من ألد أعداء الإسلام، وله أطماع صليبية واتخذ الصليبيون من بلاده قاعدةً ينطلقون منها وإليها للوصول إلى بلاد الشام أثناء الإبحار لكن الأسطول الإسلامي قد تحطّم عند شواطئ الجزيرة عام ٦٦٩ بسبب عاصفةٍ بحريةٍ.

وحارب أرمينيا الصغرى وهي بأرض كيليكيا انتقل إليها الأرمن بعد انسياح السلاجقة في آسيا الصغرى إثر معركة ملاذكرت، وأسسوا فيها دولةً كانت دعامةً للصليبيين طيلة أيامها، ووقفت تعادي الظاهر بيبرس وتدعم الصليبيين، وتمنع تصدير الخشب والحديد إلى مصر، واستطاع الانتصار عليها، وأسر عدداً من قادتها منهم ابن أميرها هيثوم الأول، وغدت هذه الدولة ضعيفةً بعد ذلك.

ويلاحظ أن الدول التي تحالف معها لم تدعم الصليبيين فأفاد هذا التحالف فعلاً، إذ رأينا أن الدولة الرومانية الغربية هي عادةً التي تدعم الصليبيين، وتحرّضهم قد وقفت على الحياد تقريباً على حين قاد الحملتين الصليبيتين الثامنة والتاسعة الفرنسيون والإنكليز إذ كانت الأولى منهما بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على حين كانت الثانية بقيادة الأمير الإنكليزي إدوارد.

وتكررت اعتداءات النوبيين وذلك بعد أن فتحها توران شاه أخو السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ فأرسل إليهم الظاهر بيبرس قوةً عام ٦٧٤ تمكنت من الانتصار على النوبيين، وأسر ملكهم الذي أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس، ووضعت الجزية على أهل النوبة ودنقلة.

أما بالنسبة إلى التتار فقد توفي طاغيتهم هولاكو عام ٦٦٣، وتولى مكانه ابنه أبا قاخان، وبدأ يتصل بالصليبيين إذ كان يعطف على النصارى،

وتزوج ابنة امبراطور القسطنطينية. وقد حاول أباقاخان أن يعقد صلحاً مع المماليك مقابل الخضوع له، غير أن الظاهر بيبرس رفض ذلك فأغار المغول على الرحبة[1]. فأرسل بيبرس حملةً انتصرت على التتار عند نهر الفرات.

واتجه الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى آسيا الصغرى منطقة سلاجقة الروم الذين وقفوا بجانب التتار، فالتقى بجيش تتاري فهزمه، وقتل سبعة آلاف رجل منه، ودخل قيصرية حاضرة سلاجقة الروم، ولكنه لم يستطع تقوية حصون آسيا الصغرى التي احتلها للوقوف في وجه التتار حيث شعر بالتعب، وتوفي عام ٦٧٦، وكان ـ رحمه الله ـ طويل القامة، أسمر اللون، أزرق العينين، جهوري الصوت، في عينه أثر بياض، شجاعاً، وكانت وفاته في مطلع العام (٢٧ محرم).

تولى السلطنة بعد الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد محمد بركة خان[2]، وكان عمره ثماني عشرة سنة، وكان أبوه قد عهد له بالسلطنة منذ عام ٦٦٣ أي عندما كان عمره أربع سنوات. ولم يلبث الملك السعيد في السلطنة سوى سنتين حيث انفض المماليك من حوله للهوه، وأرسل ليكون ملكاً على الكرك والشوبك، وعُيّن مكانه أخوه بدر الدين سلامش، وكان صغيراً لا يزيد عمره على السبع سنوات وعيّن الأمير سيف الدين قلاوون أتابكاً له، ولُقّب بدر الدين بالملك العادل، غير أنه لم يلبث أن خُلع، وبايعوا الأمير سيف الدين قلاوون[3] ولقبوه بالملك المنصور، وذلك في

---

(١) الرحبة: موقع على مقربة من الضفة اليمنى لنهر الفرات، جنوب قرقيسا، ولعلها الرطبة اليوم.

(٢) الملك السعيد محمد بركة خان تزوج عام ٦٧٥ ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الإلفي، ويُكنّى أبو المعالي ناصر الدين.

(٣) المنصور قلاوون: مملوك اشتراه علاء الدين آق سنقر أحد مماليك الملك العادل أبي بكر الأيوبي بألف دينار، وهو مبلغ ضخم، لذا عرف بالألفي، كما عُرف بالعلائي نسبةً إلى سيده علاء الدين، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فعُرف بالصالحي والنجمي أبو الناصر محمد.

العام نفسه في ٢١ رجب، ووصل الخبر إلى دمشق فوافق الأمراء، وبايعوه سوى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فلم يوافق ورفض البيعة.

وتوفي الملك السعيد في الكرك يوم الخميس ١١ ذي القعدة عام ٦٧٦، وتولى مكانه أخوه نجم الدين خضر أمر الكرك. ومرض الأمير نائب دمشق فانتقل إلى مصر، وبعدها أخذ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر البيعة لنفسه سلطاناً من الأمراء، وتلقب بالملك الكامل، وأرسل جيشاً إلى غزة لحماية الأطراف.

أخذ الملك المنصور قلاوون الكرك من نجم الدين خضر، ثم بعث جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي إلى غزة فانتصر على جيش الملك العادل، وتابع سيره إلى دمشق فخرج منها الملك الكامل، ودخل علم الدين سنجر المدينة، وتولّى حكمها حسام الدين لاجين ومعه علم الدين سنجر بأمر المنصور قلاوون، وبعد أن انطلق الملك الكامل باتجاه الرحبة عاد نحو الساحل فأخذ بعض الحصون والمدن، فأرسل له الملك المنصور قلاوون جيشاً لقتاله.

عندما علم التتار بتفرّق كلمة المسلمين ساروا نحو بلاد الشام فدخلوا مدينة حلب، وقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، وظنوا أن الملك الكامل سنقر الأشقر سيكون بجانبهم ضد السلطان المنصور قلاوون. وانطلق السلطان بجيشه نحو بلاد الشام، وراسل الملك سنقر ليكونا معاً ضد التتار فأجابه إلى ذلك واستعد، ولما سمع التتار بتوحد كلمة المسلمين رجعوا عن بلاد الشام، كما رجع السلطان قلاوون إلى مصر.

وخرج السلطان من مصر عام ٦٨٠، وطلب حشد الجيوش، والمساعدة من الملك الكامل سنقر فأجابه واتجهت الجموع نحو حمص، وجاء التتار من الشمال إلى عنتاب، واتجهوا نحو حمص، كما جاءت جموع منهم من جهة الرحبة من الشرق ونازلوا الأعراب، والتقى المسلمون بالتتار يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب وكان ميدان المعركة يمتد من شمال حمص قرب مسجد خالد بن الوليد حتى بلدة الرستن في منتصف

الطريق بين حمص وحماه، وهزم المسلمون في بداية الأمر، ووصل بعضهم إلى بحيرة حمص (قطينة)، ثم ثبت السلطان، وثبت معه سنقر الأشقر وكبار الأمراء وحملوا حملةً صادقة على التتار فهزموا بإذن الله، وانقسموا إلى فرقتين فرّت إحداهما باتجاه السلمية والبرية، وفرت الثانية باتجاه حلب والفرات وغرق قسم كبير منها في النهر عند محاولة عبوره. ورجع السلطان إلى مصر بعد هذا النصر، ورجع الملك الكامل سنقر الأشقر إلى صهيون وقد ودع السلطان من حمص.

وتوفي طاغية التتار أباقاخان بن هولاكو عام ٦٨٠، وخلفه أخوه أحمد، وكان قد أسلم بعد أن نشأ على النصرانية، وعندما آل إليه أمر الأسرة التتارية الإيلخانية التي أسسها أبوه هولاكو راسل السلطان المنصور قلاوون ليكون بينهما صلح لحقن دماء المسلمين وقد تمّ ذلك.

وفتح السلطان المنصور قلاوون المرقب وما حولها عام ٦٨٤، وخافه أمير طرابلس الصليبي فهدم الحصون تقرباً بناءً على رغبة السلطان. وبعد عامين استسلم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر إلى نائب دمشق حسام الدين لاجين، وسار إلى المنصور قلاوون فأحسن استقباله. وفي عام ٦٨٨ سار السلطان إلى دمشق، ومنها إلى طرابلس فحاصرها وفتحها، وكانت قد بقيت بأيدي الصليبيين منذ عام ٥٠٣، وقد مهد السلطان لهذا الفتح بدخول المرقب والانتهاء من سنقر الأشقر، وتوحيد كلمة المسلمين، وتهديم حصون الإمارة.

توفي السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٩، وخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وهو ولده الثاني وكان ولي عهده ابنه الأول علاء الدين علي قد توفي عام ٦٨٧. وكان قلاوون قد عزم على فتح عكا، فلما تولى ابنه سار إليها من مصر، ودعا الجند من دمشق، وطرابلس، وحماه فجاء المجاهدون وحاصروا عكا، وتم فتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى من عام ٦٩٠، وفر الصليبيون عن طريق البحر ممن لم يقتل، كما تسلم الأشرف صيدا، وصور، ثم أخذ نائبه على دمشق علم الدين سنجر

الشجاعي بيروت كما سُلّمت له جبيل، وطرطوس، ولم يبق للصليبيين في السواحل وبلاد الشام أي أثر. وهاجم بلاد الروم بعدها، وأرسل قوة إلى كسروان في جبيل لبنان لأن النصارى في هذه المنطقة كانوا دعماً للصليبيين.

وفي عام ٦٩٣ قتل الأشرف صلاح الدين خليل بيد أمراء المماليك، وهو في الصيد، واتفقوا على تعيين بيدرا نائبه وهو أول الذين رموه، ولُقّب بيدرا بالملك القاهر، غير أنه قُتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا الذي اتفق بعدئذٍ مع علم الدين سنجر الشجاعي على تعيين محمد بن السلطان قلاوون، ولُقّب بالملك الناصر، وكان عمره إذ ذاك ثماني سنوات، ولم يمض إلا أقل من عام حتى خلع السلطان الناصر، وألزم على البقاء في البيت، وتولّى أمر السلطنة الأمير كتبغا، ولقب بالملك العادل.

توفي طاغية الدولة الإيلخانية المغولية أرغون بن أباقاخان بن هولاكو، وتولّى بعده ابنه قازان، وقد أظهر الإسلام على يد الأمير توزون ـ رحمه الله ـ ووزع الأموال بمناسبة إسلامه وتسمى باسم محمود، وشهد الجمعة، وهدّم الكنائس، وفرض الجزية على النصارى، وردّ كثيراً من المظالم في بغداد، وأسلم معظم التتار.

وذهب السلطان كتبغا إلى دمشق، ومعه نائبه على مصر حسام الدين لاجين، وأثناء العودة اتفق حسام الدين مع الأمراء وبايعوه بالسلطنة، ورجع كتبغا إلى دمشق، وأصبح حسام الدين لاجين السلطان بمصر، وتلقب بالمنصور، وما كان من كتبغا إلا أن أطاعه وذلك عام ٦٩٦.

وقتل أمراء المماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر عام ٦٩٨، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً.

وفي مطلع عام ٦٩٩ وصلت إلى السلطان أخبار بمسير التتار إلى الشام، فاتجه إلى الشام في ٢ محرم، ومرّ على غزة فأقام بها ما يقرب من شهرين، وسار إلى دمشق فوصل إليها في الثامن من شهر ربيع الأول، ولم

يمكث فيها أكثر من أسبوع بسبب تحرّك التتار، وسار مع الجيوش نحو الشمال، ولم يتخلف عنه أحد، ووصل إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى هناك مع التتار، فانهزم المسلمون وولوا الأدبار، ومرّ بعضهم على دمشق في طريقه إلى مصر، وهرب السلطان فسار عن طريق بعلبك والبقاع إلى دمشق، وأهل دمشق في خوف وذعر، ثم إن أعيان البلد قد اتفقوا مع شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية على الخروج للقاء التتار وطلب الأمان لأهل المدينة من قازان، وساروا إليه والتقوا به عند النبك في منتصف الطريق بين دمشق وحمص وكلم شيخ الإسلام ابن تيمية ملك التتار كلاماً قوياً كان فيه نفع للمسلمين، ورجعوا من عنده، وقد أخذوا الأمان للسكان، أما القتال فكان لا بدّ منه لأن قازان كان يريد أخذ الشام، ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار كي لا يقع قتال يلحق السكان بسببه أذى، غير أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قد طلب من نائب القلعة عدم تسليمها فأجابه إلى ذلك، ورفض قول كل من طلب التسليم.

وخطب يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الآخر لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة، ودُعي له على السدة بعد الصلاة، وقرئ عليه مرسوم بنيابة قبجق على الشام[١]. وفي يوم السبت النصف من ربيع الثاني شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها، واحترق جامع التوبة بالعقيبة، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى الذين هم مع التتار قبحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً وحجاً غفيراً[٢].

وخرج ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الثاني إلى ملك التتار وعاد بعد يومين، ولم يستطع الاجتماع به إذ منعه عنه سعد الدين، والرشيد مسير الدولة المسلماني ابن يهودي. وانتشر الخوف في دمشق بشكلٍ رهيب.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وفي التاسع عشر من شهر جمادى الأولى يوم الجمعة غادر قازان دمشق بستين ألفاً من المقاتلين، وترك عليها مثلهم، وعاد إلى العراق على أمل أن يرجع في الخريف إليها لينطلق منها إلى مصر. وخلّف بولاي فذهب مع جماعة من التتار إلى جهة الغور فعاثوا الفساد، وعندما عاد سار إليه الشيخ ابن تيمية وكلمه في إطلاق سراح من كان معه من أسرى المسلمين، فأنقذ عدداً كبيراً منهم. ونادى نائب قلعة دمشق بأن الجيوش قادمة من مصر، فغادر التتار دمشق، ولم يتمكنوا من قلعتها، ورفض نائبها المصالحة، وكان مسير التتار عن طريق الغرب من جهة دمر في أوائل شهر رجب.

وفي شوال في العشرين منه سار جمال الدين الأفرم نائب سلطنة دمشق ومعه شيخ الإسلام ابن تيمية بجيش إلى بلاد جبيل وكسروان لما فعلوه من دعم للتتار وإغارة على بلاد المسلمين، ولما هم عليه من ضلالة فخرج أعيان البلاد إلى شيخ الإسلام فأظهروا الطاعة والندامة على ما فعلوا ووعدوا بإعادة ما أخذوا، واستتاب ابن تيمية عدداً منهم.

وفي عام ٧٠٠ شاع الخبر بقدوم التتار إلى الشام، وأنهم قد وصلوا إلى حلب، وأن أميرها قد فرّ إلى حماه، وتأخر قدوم السلطان من مصر، فسار إليه ابن تيمية، وذكره وطلب منه السرعة في الحركة بسبب تقدّم التتار، وإن تأخر فأهل الشام يعينون سلطاناً لهم يذود عنهم، وأن عليهم النصر فيما إذا استنصروا ولو لم تكن الشام تابعة لهم وأهلها من الرعايا له فكيف والأمر كذلك، فأسرع السلطان، ورجع ابن تيمية في ٢٧ جمادى الأولى، ثم جاءت الأخبار بعودة أمير التتار إلى العراق واجتيازه الفرات آيباً إلى الشرق لقلة جيشه. وعندها عاد نائب السلطان من معسكره في المرج إلى دمشق. وجاءت رسل من التتار إلى مصر مارةً بدمشق، ثم عادت بالطريق نفسه عام ٧٠١.

وتوفي الخليفة الحاكم بأمر الله في مطلع جمادى الآخرة عام ٧٠١ وبويع من بعده لابنه سليمان أبي الربيع، ولُقّب بالمستكفي بالله. وكانت مدة خلافة المتوكل على الله أربعين سنة.

ـ ٣ ـ

المستكفي بالله

سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله

٧٠١ ـ ٧٣٦

هو أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولد في الخامس عشر من شهر المحرم عام أربعة وثمانين وستمائة، وبويع بالخلافة بعهد من أبيه في الثامن عشر من جمادى الأولى من عام واحد وسبعمائة، في اليوم الثاني من وفاة أبيه.

وفي عهده فتحت جزيرة أرواد على ساحل بلاد الشام مقابل مدينة انطرطوس (طرطوس اليوم)، وأنقذت من أيدي الصليبيين، وهي آخر مواقعهم في بلاد الشام.

وجاءت الأخبار في شهر رجب بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فاستعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون للخروج من مصر والتوجّه إلى الشام لحرب التتار، وفي النصف الثاني من شهر شعبان من العام نفسه (٧٠٢) بدأت الأمراء تصل من مصر، وبدأت أفواج التتار تتدفق نحو بلاد الشام، وفر الجيش من حلب ومن حماه نحو دمشق، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك، والتقى شيخ الإسلام ابن تيمية مع جند حماه الفارين في القطيفة.

وخرجت العساكر الشامية من دمشق في ٢٤ شعبان، وعسكرت بناحية الكسوة، وذلك ليجنبوا مدينة دمشق الخراب والاعتداء على الأطفال والعجزة من الرجال وسبي النساء، ولأن المرج كان كثير المياه يومذاك لا

يصلح للقتال. وجاءت الجيوش من مصر، والتقت مع أهل الشام بناحية الكسوة، وعلى رأس هذه الجيوش الخليفة المستكفي والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي يوم السبت الثاني من شهر رمضان التقت هذه الجيوش مجتمعة في مرج الصُفُّر، وطُلب من أهل دمشق حماية الأسوار وحفظ الأمن، والتشبُّث بالقلعة.

أما التتار فقد وصلوا إلى قارة ومنها انتقلوا إلى القطيفة، وعندما اقتربوا من دمشق تركوها عن يمينهم، وتحركوا نحو الكسوة حيث الجيش المملوكي بانتظارهم، ولم يتعرضوا للمدينة أبداً، وإنما رغبوا في قتال الجند فقد رأوا أنهم إن أحرزوا النصر فإن المدينة في قبضتهم ويفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون، وإن هزموا فلا حاجة لهم بالمدينة وليس من الضرورة ترك جنودهم يمرحون في المدينة ويفقدون عزيمة القتال، وربما إذا اتجهوا إلى دمشق تبعهم الجند الذين هم في مرج الصُفّر وجعلوهم بين نارين نار أهل البلد من الداخل ونار الجند من الخلف.

واحتدمت المعركة بعد ظهر السبت، وثبت الخليفة، كما ثبت السلطان، وانتهت بهزيمة التتار الذين فروا إلى أعالي التلال، ثم فروا، ورجع الناس من القتال إلى دمشق يوم الاثنين في الرابع من شهر رمضان، وفي اليوم الثاني (الثلاثاء) دخل السلطان دمشق، وعرفت تلك المعركة باسم معركة «شقحب» حيث دار القتال، وهي في الطرف الشمالي من مرج الصُفَّر، ولا يزال الاسم معروفاً إلى الآن، وتقوم مزرعة اليوم هناك تحمل هذا الاسم.

وسارت حملة إلى بلاد النوبة عام ٧٠٤، وانتصرت على النوبيين الذين نقضوا العهد مع المسلمين، وبدؤوا في اعتداءاتهم، وكرروا ما قاموا به عام ٦٧٠ عندما أغار الملك داود ملك النوبة على أسوان، وهذا ما أجبر المسلمين إلى حربهم واحتلال جزءٍ من أرضهم أيام الظاهر بيبرس عام (٦٧٤)، وعُقدت معاهدة جديدة بين الطرفين.

وفي عام ٧٠٨ خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون قاصداً الحج

فمرّ على الكرك، ونصب له جسر على وادٍ فانكسر به، ولكنه نجا، فأقام بالكرك، واعتزل السلطة، وكتب إلى القضاة بمصر يعلمهم اعتزاله وكذا قضاة الشام، فبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة في الثالث والعشرين من شهر شوال، ولقب بالملك المظفّر، غير أن الناصر محمد رجع يطلب العودة إلى الملك في رجب عام ٧٠٩، ووافقه جماعة من الأمراء فدخل دمشق في شهر شعبان، وسار بعدها إلى مصر فدخلها في شهر رمضان، وفرّ المظفر ركن الدين بيبرس من قلعة الجبل في أواخر شهر رمضان فدخلها الناصر في عيد الفطر، وقُبض على المظفر وقتل، وهكذا عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة للمرة الثالثة.

وأرسل السلطان الناصر حملة إلى آسيا الصغرى بإمرة أمير الشام تنكز عام ٧١٥ فاستطاعت دخول مدينة ملاطية على نهر الفرات.

وأرسل حملة في العام نفسه (٧١٥) إلى بلاد النوبة، انتصرت على النوبيين، وسارت حملة أخرى في العام التالي، وتمكنت من إقامة ملك مسلم على النوبة هو (عبد الله برشنبو) ابن أخ الملك داود ملك النوبة. وهذا ما سهل انتشار الإسلام هناك، ثم دخل السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون دنقلة عام ٧١٨، ودخلت بعدها بلاد النوبة في الإسلام.

وفي عام ٧١٧ خرجت النصيرية عن الطاعة في شمال غربي بلاد الشام، وأطلقوا على رجلٍ منهم محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وعاثوا في البلاد الفساد، ونادوا لا إله إلا علي، فأرسل إليهم السلطان حملة أخضعتهم.

وقبض السلطان على الخليفة عام ٧٣٦ ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في آخر العام (ذي الحجة) إلى بلدة قوص في جنوبي مصر، كما نفى معه أهله، وبقي الخليفة في منفاه حتى توفي عام ٧٤٠.

قال ابن حجر العسقلاني عن الخليفة المستكفي «كان فاضلاً، جواداً، حسن الخط جداً، شجاعاً». وتولى الأمر بعده ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولُقّب بالواثق بالله.

ـ ٤ ـ

الواثق بالله

إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله

٧٣٦ ـ ٧٤٢

هو إبراهيم بن محمد المستمسك بأمر الله بن الحاكم بأمر الله.

كان الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن قد عهد بالخلافة لابنه محمد، ولقبه بالمستمسك بأمر الله غير أنه قد مات في حياة أبيه، وعطفاً من الجد على ولد ولده فقد عهد إليه بالخلافة ظناً منه أنه يصلح لها، ولكنه لم يلبث أن وجده منهمكاً في اللعب، منصرفاً إلى صداقة الأراذل لذا فقد عدل عنه، وعهد إلى ابنه أبي الربيع سليمان الذي تكلمت عنه، وتولّى الأمر أبو الربيع سليمان وتلقّب باسم المستكفي، غير أن إبراهيم هذا لسوء في طباعه كان يمشي بالنميمة بين عمه المستكفي وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا ما أدى إلى الوقيعة بين الاثنين بعد أن كانا كالأخوين، وقبض السلطان على الخليفة المستكفي، ونفاه وأهله إلى قوص، وقد بقي فيها حتى توفي عام ٧٤٠، وقد عهد قبل وفاته إلى ابنه أحمد.

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فمذ نفى الخليفة بايع إبراهيم هذا باسم الواثق بالله، ولم ينظر إلى عهد المستكفي، ولما حضرت الوفاة السلطان ندم على ما فعل لأن الواثق بالله لم يكن أهلاً للخلافة فأوصى بعزله، ومبايعة أحمد بن سليمان المستكفي، وتم ذلك في غرة شهر المحرم من عام اثنين وأربعين وسبعمائة، ولقّب أحمد هذا باسم جده الحاكم بأمر الله، كما كنّي بكنيته أبي العباس.

وكان العامة يلقبون الواثق بالله إبراهيم المستعطي بالله، ويصفونه بسوء السيرة، وقد ترجم له ابن فضل الله في المسالك فقال: «عهد إليه جده ظناً أن يكون صالحاً، أو يجيب لداعي الخلافة صائحاً، فما نشأ إلا في تهتّك، ولا دان إلا بعد تنسّك، أغري بالقاذورات، وفعل ما لم تدع إليه الضرورات، وعاشر السفلة والأراذل، وهان عليه من عرضه ما هو باذل، وزين له سوء عمله فرآه حسناً، وعمي عليه فلم ير مسيئاً إلا محسناً، وغواه اللعب بالحمام، وشري الكباش للنطاح، والديوك للنقار، والمنافسة في المعز الزرائبية الطوال الآذان، وأشياء من هذا، ومثله مما يُسقط المروءة ويُثلم الوقار، وانضم هذا إلى سوء معاملة، ومشترى سلع لا يوفي أثمانها، واستئجار دور لا يقوم بأجرها، وتحيلاً على درهم يملأ به كفه، وسحت يجمع به فمه، وحرام يطعم منه ويطعم حرمه، حتى كان عُرضةً للهوان، وأكلةً لأهل الأوان.

فلما توفي المستكفي والسلطان عليه في حدة غضبه، وتياره المتحامل عليه في شدة غلبه، طلب هذا الواثق المغتر، والمائق إلا أنه غير المضطر، وكان ممن يمشي إلى السلطان في عمه بالنميمة، ويعقد مكائده على رأسه عقد التميمة، فحضر إليه وأحضر معه عهد جده، فتمسك السلطان في مبايعته بشبهته، وصرف وجه الخلافة إلى جهته، وكان قد تقدّم نقض ذلك العهد، ونسخ ذلك العقد، وقام قاضي القضاة أبو عمر بن جماعة في صرف رأي السلطان عن إقامة الخطبة باسم الواثق فلم يفعل، واتفق الرأيان على ترك الخطبة للاثنين، واكتفي فيها بمجرد اسم السلطان، فرحل بموت المستكفي اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها، وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومَرْوَتَها، فكأنما كان آخر خلفاء بني العباس وشعارها عليه لباس الحداد، وأغمدوا تلك السيوف الحداد، ثم لم يزل الأمر على هذا حتى حضرت السلطان الوفاة، وقرع الموت صفاه، فكان مما أوصى به ردّ الأمر إلى أهله، وإمضاء عهد المستكفي لابنه، وقال: الآن حصحص الحق، وحنا على مخالفيه ورق، وعزل إبراهيم

وهزل، وكان قد رعى البهم، وستر اللؤم بثياب أهل الكرم، وتسمّن وشحمه ورم، وتسمّى بالواثق وأين هو من صاحب هذا الاسم؟ الذي طالما سرى رعبه في القلوب، وأقضّت هيبته مضاجع الجنوب، وهيهات من النسر التماثيل، ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل، وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد، والهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد، وقد عاد الآن يعضّ يديه، ومن يهن يسهل الهوان عليه».

وتوفي الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة من عام ٧٤١ بعد أن أوصى بخلع الخليفة إبراهيم وبيعة أحمد بن المستكفي.

ـــ ٥ ـــ

الحاكم بأمر الله

أحمد بن سليمان المستكفي

٧٤٢ ـــ ٧٥٣

هو أحمد بن الخليفة المستكفي سليمان، ويُكنّى بأبي العباس، ويُلقّب بالحاكم بأمر الله على كنية ولقب جده. وقد تولّى الخلافة في مطلع شهر المحرم من عام ٧٤٢، إذ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أوصى بذلك، وكان الخليفة المستكفي قد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد هذا إذ لم يعترف بخلعه وبيعة ابن أخيه إبراهيم.

ولما تولى أمر السلطنة المنصور سيف الدين أبو بكر بن السلطان الناصر عقد مجلساً يوم الخميس الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١، وطلب الخليفة إبراهيم وولي عهد المستكفي أحمد والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعاً؟ فقال ابن جماعة: إن الخليفة المستكفي المتوفى بمدينة قوص أوصى من بعده بالخلافة لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص، فخلع السلطان حينئذٍ إبراهيم، وبايع أحمد، وبايعه القضاة. وكان لقبه «المستنصر» ثم لقب «الحاكم»[1].

وحدث في عهده حدث أن توالى على أمر السلطنة ثمانية من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعضهم بعد بعض في مدة لا تزيد على عشر سنوات.

---

(١) الدرر: ابن حجر.

خلع السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر لفساده وشربه الخمور، ونفي إلى قوص ثم قتل بها، وتسلّم أمر السلطنة بعده أخوه الأشرف علاء الدين كجك، ثم خلع من عامه، وخلفه أخوه الناصر شهاب الدين أحمد، ولم يلبث أن خلع عام ٧٤٣، وقام بالأمر أخوه الصالح إسماعيل، وبقي حتى مات عام ٧٤٦، فقلّد الخليفة بعده أخاه الكامل شعبان، فقتل بعد أقل من عام، فتسلّم أمر السلطنة أخوه المظفر أمير حاج، وقتل بعد أقل من عام، وخلفه أخوه الناصر حسن وحكم ما يقرب من أربع سنوات، وفي عهد هذا السلطان انتشر الطاعون في البلاد بشكل واسع، وفي عام ٧٥٢ خلع الناصر حسن، وولي مكانه أخوه الملك الصالح صالح، واستمر حتى عام ٧٥٥.

ومات الخليفة الحاكم بأمر الله في منتصف عام ٧٥٣ بمرض الطاعون.

ولم يحدث في أيام هذا الخليفة أحداث خارجية ذات شأن، وإنما كانت الأحداث الداخلية هي شاغل الناس، أو أن هدوء الأوضاع الخارجية جعلت الأمراء ينصرفون إلى قضاياهم فيشتغل بعضهم ببعض ولهذا كثر خلع السلاطين وقتلهم، والانتقام من بعض الأمراء.

ـ ٦ ـ

المعتضد بالله

أبو بكر بن سليمان المستكفي

٧٥٣ ـ ٧٦٣

هو أبو بكر بن الخليفة سليمان المستكفي، يُكنّى بأبي الفتح، ويُلقّب بالمعتضد بالله، بويع بالخلافة بعد موت أخيه الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وبقي في الخلافة مدة عشر سنوات إذ توفي عام ثلاثة وستين وسبعمائة في شهر جمادى الأولى، وكان خيّراً، متواضعاً، محباً لأهل العلم.

وقد خلع السلطان الصالح صلاح الدين صالح عام ٧٥٥، وأعيد الناصر حسن، وبقي في السلطنة مدة سبع سنوات ثم قتل عام ٧٦٢، وأعطي السلطنة ابن أخيه المنصور محمد بن المظفر أمير حاج، ولم تمر عليه سوى سنتين حتى خلع.

وبقيت البلاد في شبه عزلة، وكل الاهتمام منصب على الأوضاع الداخلية.

ـ ٧ ـ

المتوكل على الله

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله

٧٦٣ ـ ٧٨٥

هو محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، يُكنّى بأبي عبد الله، ولي الخلافة بعهد من أبيه بعد موته في جمادى الأولى من عام ٧٦٣، واستمرت أيامه مدة اثنتين وعشرين سنة خلع بعدها، وتولى الخلافة اثنان من أبناء عمومته، وهما الواثق بالله بن الواثق بالله إبراهيم، وأخوه المستعصم بن الواثق بالله إبراهيم، ثم أعيد المتوكل على الله عام ٧٩١، وتولى أمر الخلافة مدة سبعة عشر عاماً أي كانت السنوات التي تولى فيها الخلافة تسعاً وثلاثين سنة.

وقد حدث في عهده خلع المنصور محمد عام ٧٦٤ وتولية السلطنة إلى ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون. وفي عام ٧٦٧ استولى الفرنجة ومعهم ملك قبرص على الإسكندرية، وذلك أن الحروب الصليبية لم تنته بطرد الصليبيين من عكا عام ٦٩٠ والانتهاء منهم من كل بلاد الشام أيام الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور قلاوون، ثم طردهم من جزيرة ارواد عام ٧٠٢ أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وإنما استمرت الحروب الصليبية لأن كثيراً من الصليبيين قد لجؤوا إلى جزيرة قبرص بعد طردهم من بلاد الشام، واتخذوا هذه الجزيرة مستقراً لهم، وأخذوا يقومون بالإغارة على بلاد المسلمين كلما وجدوا الفرصة سانحةً لهم، وكانت أسرة لوزجنان التي حكمت الجزيرة في تلك الآونة

تقوم بهذه المهمة، وقد تولى أمر هذه الأسرة وحكم الجزيرة عام ٧٦٠ بطرس الأول، وقد زار غربي أوروبا، ودعا البابا وملوك أوروبا لمساعدته للقيام بحربٍ ضد المسلمين، فحصل على بعض التأييد، وسار مع من جاءه من الصليبيين واحتلوا الإسكندرية.

وفي عام ٧٧٨ قتل الأشرف شعبان، وسُلّمت السلطنة إلى ابنه المنصور علي فبقي في أمره حتى توفي عام ٧٨٣، وتسلّم الأمر من بعده أخوه الصالح حاجي لمدة سنة فخلع بعدها، وأخذ الأمر السلطان الظاهر برقوق، وهو أول المماليك الجراكسة.

أما الخليفة المتوكل فقد أُمر بالخروج إلى مدينة قوص من قبل أمير العساكر أيبك البدري الذي جاء بزكريا بن الخليفة الواثق، وأعطاه الخلافة دون بيعة ولا إجماع، فسافر الخليفة إلى قوص، ثم رجع إلى بيته، وبعد خمسة عشر يوماً عاد إلى الخلافة، وأزيح زكريا، ولم يستقر في مركز الخلافة سوى خمسة عشر يوماً وذلك في عشرين من شهر ربيع الأول من عام ٧٧٩.

وفي عام ٧٨٥ قبض السلطان برقوق على الخليفة المتوكل على الله وسجنه في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم، ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله، وبقي في الخلافة مدة ثلاث سنوات حيث توفي عام ٧٨٨، وطلب الناس من السلطان برقوق إعادة المتوكل على الله فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق والذي جلس على كرسي الخلافة مدة خمسة عشر يوماً دون بيعة عام ٧٧٩، وولاه الخلافة وأُطلق عليه اسم المستعصم بالله، وبقي بالخلافة حتى عام ٧٩١ حيث ندم السلطان برقوق على ما فعل، فأخرج المتوكل على الله من السجن، وأعاد إليه الخلافة، وخلع المستعصم بالله الذي لزم بيته حتى مات. واستمر المتوكل على الله في الخلافة حتى عام ٨٠٨.

وفي شهر جمادى الآخرة من العام نفسه (٧٩١) قُبض على السلطان برقوق، وسُجن في الكرك، وأعيد السلطان الصالح حاجي إلى السلطنة فغيّر

لقبه من الصالح إلى المنصور، ولكنه لم يمكث في السلطنة سوى ثمانية أشهر حيث أخرج السلطان الظاهر برقوق من السجن، وأعيد إلى السلطنة، وخلع المنصور حاجي في شهر صفر من عام ٧٩٢، وانتهى عهد الأسرة القلاوونية بل انقضى حكم المماليك البحرية، وجاء عهد المماليك الجراكسة.

الفصل الثالث

المماليك الجراكسة «البرجية»

٧٩٢ ـ ٩٢٣

١ ـ الظاهر برقوق:	٩ سنوات	٧٩٢ ـ ٨٠١	للمرة الثانية		توفي
٢ ـ الناصر فرج:	٧ سنوات	٨٠١ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٣ ـ المنصور عبد العزيز:	ثلاثة أشهر	٨٠٨ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٤ ـ الناصر فرج	٧ سنوات	٨٠٨ ـ ٨١٥	للمرة الثانية	ابن برقوق	قتل
الخليفة: أعيد	خمسة أشهر	٨١٥ ـ ٨١٥			
٥ ـ المؤيد:	٩ سنوات	٨١٥ ـ ٨٢٤		شيخ الاصطبل	توفي
٦ ـ المظفر أحمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤		ابن المؤيد	خلع
٧ ـ الظاهر ططر:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤			توفي
٨ ـ الصالح محمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٥		ابن الظاهر ططر	خلع
٩ ـ الأشرف برسباي:	١٦ سنة	٨٢٥ ـ ٨٤١			توفي
١٠ ـ العزيز يوسف:	عدة أشهر	٨٤١ ـ ٨٤٢		ابن برسباي	خلع
١١ ـ الظاهر جقمق:	١٥ سنة	٨٤٢ ـ ٨٥٧			توفي
١٢ ـ المنصور عثمان:	أقل من شهر ونصف	٨٥٧ ـ ٨٥٧		ابن الظاهر جقمق	خلع
١٣ ـ الأشرف إينال:	٧ سنوات	٨٥٧ ـ ٨٦٥			توفي
١٤ ـ المؤيد أحمد:	أقل من سنة	٨٦٥ ـ ٨٦٥		ابن الأشرف إينال	خلع
١٥ ـ الظاهر خشقدم:	٧ سنوات	٨٦٥ ـ ٨٧٢			توفي
١٦ ـ الظاهر بلباي:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٧ ـ الظاهر تمربغا:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٨ ـ خير بك:	ليلة واحدة	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٩ ـ الأشرف قايتباي:	٢٩ سنة	٨٧٢ ـ ٩٠١			توفي

٢٠ ـ الناصر محمد:	سنة واحدة	٩٠١ ـ ٩٠٢	ابن الأشرف قايتباي	خلع
٢١ ـ قانصوه:		٩٠٢ ـ ٩٠٣		قتل
٢٢ ـ الناصر محمد: أعيد		٩٠٣ ـ ٩٠٤	للمرة الثانية ابن الأشرف قايتباي	قتل
٢٣ ـ الظاهر قانصوه:		٩٠٤ ـ ٩٠٥		خلع
٢٤ ـ جانبلاط:		٩٠٥ ـ ٩٠٦		قتل
٢٥ ـ العادل طومان باي:	عدة أشهر	٩٠٦ ـ ٩٠٦		قتل
٢٦ ـ الأشرف قانصوه الغوري:	١٧ سنة	٩٠٦ ـ ٩٢٢		قتل
٢٧ ـ طومان باي:	أقل من سنة	٩٢٢ ـ ٩٢٣		قتل

موطن الجراكسة هو الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى هذا اليوم، ويقولون هم عن أرضهم بلاد الأديغة إذ أن الأديغة هو الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم، أو يعرف هكذا بلغتهم الخاصة، وتشكل أرضهم الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس الممتدة بين بحري الأسود والخزر والتي كانت تعرف يومذاك باسم بلاد القفجاق، وغدت تلك الجهات آنذاك مسرحاً للصراع بين مغول فارس أو الدولة الإيلخانية ومغول القفجاق أو الأسرة الذهبية، وهذا الصراع جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة، وتنتقل إلى مصر فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية، وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده، وقد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبة إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي وضعوا فيها، وقد حرص المنصور قلاوون على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقت واحد أو أن التربية الدينية لا بدّ من أن يكون من أهدافها التدريب على القتال وحسن استعمال الأسلحة إذ لا يمكن فصل الدين عن أي جانب من جوانب الحياة، ولم يسمح السلطان لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة مطلقاً. فلما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة إليها ليلاً. وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب

رتبٍ عسكرية ومنهم الأمراء والقادة، واستطاعوا أن يتسلموا السلطنة وأن يحكموا البلاد.

ولما كان هؤلاء كلهم بمستوىً واحدٍ لذا فقد سادهم جو من الحسد، كما ساد من سبقهم من المماليك، فكان القتال بينهم، ومحاولة استلام السلطة فما أن يصل أحدهم إلى السلطنة حتى يحاول أن يؤسس أسرةً حاكمةً غير أن آخر لا يلبث أن يقبض على سابقه وخاصة الصغار منهم فيخلعه، أو يقتله ويقوم مقامه.

لقد حكم المماليك الجراكسة مصر، والشام، والحجاز مدة تزيد على إحدى وثلاثين ومائة سنة (٧٩٢ ـ ٩٢٣)، وتعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً، لم تزد مدة الحكم على خمسة عشر عاماً، إلا لأربعة منهم وهم: الأشرف قايتباي، وقد حكم ٢٩ سنة (٨٧٢ ـ ٩٠١)، والأشرف قانصوه الغوري وقد حكم ١٧ سنة (٩٠٦ ـ ٩٢٢)، والأشرف برسباي وحكم ١٦ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤١)، والظاهر جقمق وحكم ١٥ سنة (٨٤٢ ـ ٨٥٧)، وهناك ست سلاطين حكموا عدة سنوات أو أكثر من سنة وهم: الظاهر برقوق وحكم تسع سنوات (٧٩٢ ـ ٨٠١)، وهي المرة الثانية بعد خلع المنصور حاجي من المماليك البحرية أما حكمه في المرة الأولى فتعد ضمن حكم المرحلة السابقة، وابنه الناصر فرج وقد حكم مرتين في كل مرة سبع سنوات (٨٠١ ـ ٨٠٨) (٨٠٨ ـ ٨١٥)، والمؤيد وحكم تسع سنوات (٨١٥ ـ ٨٢٤)، والأشرف إينال وحكم سبع سنوات (٨٥٧ ـ ٨٦٥)، والظاهر خشقدم وحكم سبع سنوات أيضاً (٨٦٥ ـ ٨٧٢).

أما السلاطين الخمسة عشرة الباقون فكانت مدة حكم الواحد أقل من سنة بل إن بعضهم لم تزد مدة حكمه على الليلة الواحدة إذ أن خير بك قد تسلّم السلطنة مساءً وخلع صباحاً وذلك عام ٨٧٢، وأن الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد تسلّم السلطنة مرتين لم يدم حكمه في الأولى السنة (٩٠١ ـ ٩٠٢) وفي المرة الثانية (٩٠٣ ـ ٩٠٤) كذلك وقتل بعدها. هذا بالإضافة إلى أن الخليفة قد تسلم السلطنة خمسة أشهر عام (٨١٥).

ويلاحظ أن السلطان كان يتسلّم الأمر ويحكم مدةً، ويعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصيّاً أو نائباً عنه أو مُدبّراً لأمور المملكة، وهو من المماليك أيضاً، ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة، وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذا لم تكن هناك أسر تولت أمر السلطنة، ولا يستثنى من هذا سوى الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج مدة سبع سنوات، ثم خلع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبد العزيز مدة ثلاثة أشهر فقط، ثم أعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أخرى، وبذا يكون قد تولى ولدان من أبناء السلطان برقوق الأمر، وهذا لم يتم لغيره من سلاطين المماليك الجراكسة هذا بالإضافة إلى أن هذه المدة قد قاربت الخمس عشرة سنة وهذا أيضاً لم يتم لغيره. وقد تكررت هذه الظاهرة سبع مرات (يحكم السلطان ويرثه ابنه لمدة قصيرة لا تصل غالباً إلى السنة). فبالإضافة إلى الظاهر برقوق حدثت مع المؤيد، والظاهر ططر، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف إينال، والأشرف قايتباي، وإذا كان الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد حكم مرتين إلا أنه في كل مرة لم تطل مدته إلى السنة، إذن كانت تتوالى مدة حكم طويلة لسلطانٍ جديدٍ، وتزيد على خمس سنوات، وتنتهي بالوفاة الطبيعية، ويعقبها مدة قصيرة لولده تقل عادةً عن السنة يعقبها الخلع أو القتل.

ويلاحظ في الخمسة السلاطين الأواخر أن نتيجة القتل هي السائدة فقد خلع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلّمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقتل جانبلاط قبل مرور سنة من تسلمه الأمر رغم أنه جديد أيضاً، وخنق العادل طومان باي بعد عدة أشهر، رغم أنه جديد، ولما عرض أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفاً من القتل رغم أن سنه كانت تزيد على الستين، ولم يتسلم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه ولكنه قتل على أيدي العثمانيين بعد أن حكم سبعة عشر عاماً، وكانت عاقبة خلفه طومان باي مثله إذ قتله العثمانيون بعد معركة الريدانية عام ٩٢٣، ودخلوا

القاهرة، وأزالوا المماليك عن السلطنة، وتنازل لهم العباسيون عن الخلافة، وانتقلت بذلك أنظار العالم الإسلامي إلى استانبول التي غدت مركز الخلافة، وتحوّلت عن القاهرة التي أصبحت مدينة عادية كغيرها من حواضر أمصار العالم الإسلامي، ودرجت مع مراكز الخلافة السابقة مثل بغداد، ودمشق.

وإذا كان السلطان الظاهر برقوق قد تسلّم للمرة الأولى مدة ست سنوات (٧٨٥ ـ ٧٩١)، ثم قبض عليه وسجن بالكرك، وأعيد السلطان المنصور حاجي لمدة سبعة أشهر. . . ثم رجع الظاهر برقوق إلى السلطنة، فإن مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى لم أعدها ضمن تسلّم المماليك الجراكسة الحكم لأن حكمه قد حدث فيه انقطاع وإنما بدأت تدوين أيامهم بعودة الظاهر برقوق للسلطنة في المرة الثانية حيث استمر حكم الجراكسة دون انقطاع حتى انطوتْ أيامهم.

استمر السلطان الظاهر برقوق للمرة الثانية في الحكم حتى توفي عام ٨٠١ في شهر شوال من ذلك العام، وقام من بعده ابنه السلطان فرج، ولُقّب بالناصر، وبقي حتى عام ٨٠٨ حيث خلع في السادس من شهر ربيع الأول، وأُقيم مكانه أخوه عبد العزيز، ولقب بالمنصور، ثم خلع بعد ثلاثة أشهر تقريباً في الرابع من جمادى الآخرة، وأعيد الناصر فرج.

وتوفي الخليفة المتوكل على الله محمد بن المعتضد في الثامن عشر من شهر رجب عام ثمانية وثمانمائة.

وفي عام ٧٩٥ دخل تيمورلنك بغداد وهدد المنطقة، فتشكّل حلف من سلطان المماليك الظاهر برقوق، وأمير سيواس، ومغول القفجاق، والعثمانيين ضد تيمورلنك زعيم التتار، وخرج الظاهر برقوق على رأس حملة عام ٧٩٧ باتجاه بغداد، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد والذي فرّ منها عند دخول تيمورلنك إليها، والتجأ إلى القاهرة، فسار برقوق لإعادته إلى عاصمة ملكه، إلا أنه لم يحدث قتال لأن تيمورلنك كان قد ترك بغداد وعاد إلى الشرق فما كان من الظاهر إلا أن رجع هو الآخر.

وفي عام ٨٠٣ خرج الناصر فرج بن برقوق على رأس حملةٍ إلى بلاد الشام، لكنه ترك جيشه، وعاد إلى مصر، فدخل تيمورلنك دمشق، وسحق الجيش المملوكي.

واتجه تيمورلنك نحو العثمانيين عام ٨٠٥ وانتصر عليهم، وأسر السلطان بايزيد العثماني، وبعد أن سمع الناصر فرج بأنباء هذه المعارك الطاحنة رضخ لشروط تيمورلنك، وضرب النقود باسم تيمورلنك، وإن كان على ما يبدو قد فرح بنفسه على ما تمّ إذ زال الخوف المتوقع من العثمانيين.

وفي الوقت الذي كانت أنظار المماليك تتجه نحو الشرق بسبب هجوم تيمورلنك أغار ملوك قبرص على الإسكندرية عام ٨٠٦، ثم شنوا غارةً على طرابلس في العام التالي.

ـــ ١١ ـــ[1]

المستعين بالله

العباس بن محمد المتوكل على الله

٨٠٨ ـــ ٨١٥

هو العباس بن محمد المتوكل على الله، أبو الفضل، أمه أم ولد تركية اسمها «باي خاتون» بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وتولّى الأمر بعد توفي أبوه في رجب عام ٨٠٨.

ولما قتل الناصر فرج عام ٨١٥ في أثناء قتاله للمحمودي أضيفت إلى الخليفة السلطنة وذلك في مطلع عام ٨١٥ بعد إصرار الأمراء على ذلك، وفوّض الخليفة إلى شيخ تدبير شؤون المملكة، ولقّبه «نظام الملك» ثم سأل شيخ الخليفة أن يفوّض إليه السلطنة فلم يقبل لأن شيخ رفض شرط الخليفة وهو عدم السكن بالقلعة، فأخذ شيخ السلطنة بالقوة وتلقّب باسم «المؤيد»، وأعلن خلع الخليفة المستعين، وبايع أخاه داود بن المتوكل على الله.

ولما بلغ نائب الشام «نوروز» بخلع الخليفة جمع القضاة والعلماء، وسألهم بما جرى، فأجابوا بأن هذا الخلع لا يصح، وهذا ما جعل النائب يخلع الطاعة، وأجمع على قتال السلطان المؤيد الذي انتزع السلطنة بالقوة،

(١) **ملاحظة:** عددت الواثق بالله عمر بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة الثامن. وعددت المستعصم بالله زكريا بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة التاسع. وكان المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله للمرة الثانية هو الخليفة العاشر.

وخلع الخليفة دون ضرورة شرعية. فجمع المؤيد جيشاً وسار إلى الشام لقتاله نائبها، ونقل المستعين إلى الإسكندرية ليسجن هناك، وبقي في السجن حتى عام ٨٢٤ حيث أخرجه السلطان ططر لكنه فضل بقاء إقامته في الإسكندرية، وتوفي عام ٨٣٣.

ـــ ١٢ ـــ

المعتضد بالله

داود بن محمد المتوكل على الله

٨١٥ ـــ ٨٤٥

هو داود بن محمد المتوكل على الله، أبو الفتح، أمه أم ولد تركية تدعى «كزل»، أعطي الخلافة حين خلع المؤيد أخاه المستعين عام ٨١٥.

وفي عهده انطلق السلطان المؤيد إلى الشام لإخضاع نائبها «نوروز» وذلك عام ٨١٧، وتمكّن من الانتصار عليه، وبعد تحقيق هدف الحملة تابع إلى أطراف بلاد الشام الشمالية لإعادة تبعية الإمارات التركمانية إلى الدولة المملوكية، وهذه الإمارات هي: ذو القادر، وقرمان، ورمضان وكانت قد أعلنت انفصالها أو عدم ارتباطها بالقاهرة وذلك في أثناء حركة «نوروز»، واستطاع المؤيد أن يجبرها على العودة إلى التبعية، ولكنها لم تلبث أن نقضت العهد فسار إليها ثانيةً عام ٨٢١، وكانت وجهته «طرسوس» فأسرع أمراء تلك الدويلات وقدموا الطاعة، وعندما رجع عادوا إلى نقض العهد، فسار إليهم عام ٨٢٢ إبراهيم بن المؤيد، واستطاع أن يستولي على قونية وقيصرية، وولى على تلك الإمارات أمراء من قبله، وضمّ طرسوس، وأضنه إلى دولة المماليك.

وتوفي السلطان المؤيد عام ٨٢٤ في شهر المحرم فقلّد السلطنة ابنه أحمد ولُقّب بالمظفر، وأعطي الأمير «ططر» تدبير شؤون المملكة، وبعد مرور سبعة أشهر أي في شهر شعبان قبض «ططر» على السلطان المظفر وخلعه، وتسلّم هو مقاليد السلطة، فقلّده الخليفة السلطنة، وتلقّب باسم

الظاهر، وكان عمله أن أخرج الخليفة السابق «المستعين بالله» من سجن الإسكندرية، وسمح له بالعودة إلى القاهرة، ولكن المستعين فضل الإقامة في الإسكندرية، وبدأ يعمل في التجارة حتى توفي عام ٨٣٣.

ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى توفي الظاهر ططر في شهر ذي الحجة من العام نفسه (٨٢٤)، فقلّد الخليفة أمر السلطنة لابن ططر محمد، وقد اختار لنفسه لقب «الصالح»، وجعل شؤون المملكة للأمير «برسباي».

وبعد أربعة أشهر أي في شهر ربيع الثاني من عام ٨٢٥ خلع الأمير برسباي من السلطنة الصالح ابن ططر، وتسلّم شؤونها، وقلّده الخليفة أمرها، فاتخذ لقب الأشرف.

أرسل الأشرف برسباي حملةً استطلاعيةً إلى جزيرة قبرص، وقد اتجهت إلى ميناء «ليماسول» وذلك عام ٨٢٧ كردٍ على الحملات التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الردّ، وفي العام التالي ٨٢٨ أرسل حملةً ثانيةً وكانت جهتها في هذه المرة إلى مدينة «فاما غوستا»، وقد أحرزت النصر، ومكثت أربعة أيام، ثم اتجهت إلى مدينة «ليماسول»، وتمكنت من فتحها بعد جهد، ثم رجعت الحملة إلى مصر.

وبعد عام خرجت حملة جديدة سارت نحو «ليماسول» ففتحتها، ثم اتجهت نحو الداخل فالتقت بجيشٍ كبيرٍ يقوده ملك قبرص «جانوس» بنفسه فجرت معركة طاحنة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، وساروا نحو نيقوسيا... ثم رجعوا إلى مصر والملك معهم أسير، وفي القاهرة فدى الملك نفسه ووافق على أن تكون قبرص تابعةً لدولة المماليك، وبقيت بعدها كذلك مدة بقاء الدولة المملوكية وبذا انتهى الأثر الصليبي نهائياً إذ بقي الصليبيون في قبرص بعد طردهم من بلاد الشام.

كان تيمورلنك قد توفي عام ٨٠٨ فتصدّعت امبراطوريته الواسعة التي أسسها، وقام بعده ابنه «شاه رخ»، واستطاع أن يستعيد مدينة سمرقند، ورغب أن يُحسّن علاقته مع دولة المماليك فأرسل إلى برسباي عام ٨٣٢ وفداً يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض الكتب إليه ومنها كتب ابن حجر العسقلاني. ولم يعط الأشرف برسباي جواباً، فأعاد «شاه رخ» الطلب في العام نفسه، ولم يحظ بجواب. وفي عام ٨٣٩ طلب «شاه رخ» السماح له بزيارة القدس، وجدد الطلب في العام التالي (٨٤٠)، ولم يتلق في الطلبين أي ردّ فاتجه عندها «شاه رخ» لتأليف حلف ضد المماليك من العثمانيين وأمراء التركمان.

وبالنسبة إلى إمارات التركمان على أطراف بلاد الشام، فقد أرسل الأشرف برسباي حملةً إلى إمارة «الشاة البيضاء» عام ٨٣٣ استطاعت تهديم مدينة الرها، وبدأ بعدها النفوذ العثماني يقوى في تلك الإمارات.

أما بالنسبة إلى جزيرة رودوس القريبة من السواحل التركية فقد غدت عام ٧١٠ قاعدةً لفرسان الاستبارية، فعندما انسحب الصليبيون من بلاد الشام أو طردوا عام ٦٩٠ انتقل هؤلاء الفرسان إلى جزيرة قبرص، وقد لعبوا دوراً مهماً في الحرب الصليبية، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودوس واتخذوها قاعدةً لهم، وعندما غزا الأشرف برسباي قبرص، وأخضعها لنفوذ المماليك خشي الاسبتاريون من ذلك، فأسرع فلوفيان أمير الاسبتاريين وأرسل الهدايا للسلطان برسباي الذي كان في نيته غزو رودوس لكن عهده لم يطل إذ توفي في شهر ذي الحجة من عام ٨٤١. فقلد الخليفة السلطنة إلى يوسف بن برسباي الذي لُقِّب بالعزيز، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير جقمق، وبعد ثلاثة أشهر (ربيع الأول ٨٤٢) خلع جقمق من السلطنة العزيز يوسف بن برسباي، وتسلّم هو أمرها، وتلقّب باسم الظاهر، وقلّده الخليفة. وكان عهد برسباي عهد استقرار، وقوة، وغزو ولكن الحالة الاقتصادية كانت متأخرة.

كان السلطان الظاهر جقمق تقياً ورعاً، منع المعاصي وشرب الخمور.

وجاءت رسل «شاه رخ» ابن تيمورلنك لتهنئة جقمق، فاستقبل الرسل، وأحسن وفادتهم.

وفي عام ٨٤٣ أغارت أربع سفن لقراصنة النصارى على مدينة رشيد على الساحل المصري، فاتجهت الشبهة نحو أمراء الاستباريين في رودوس، فجهز الظاهر جقمق حملةً عام ٨٤٤ وغزا رودوس، وخاصةً أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرّض الظاهر جقمق للقيام بهذا الغزو، وأسرع أمراء الاستباريين إلى أوربا يطلبون النجدات الصليبية منها.

وفي عام ٨٤٥ توفي الخليفة المعتضد بالله داود، وكان من سروات الخلفاء، نبيلاً، ذكياً، فطناً، يجالس العلماء والفضلاء ويستفيد منهم، ويشاركهم فيما هم فيه، جواداً، سمحاً للغاية(١).

---

(١) تاريخ الخلفاء.

ـ ١٣ ـ

المستكفي بالله
سليمان بن محمد المتوكل على الله
٨٤٥ ـ ٨٥٤

هو سليمان بن محمد المتوكل على الله، أبو الربيع، بويع بالخلافة بعهد من شقيقه المعتضد بالله. وكان الظاهر جقمق يعرف حق المستكفي بالله.

وفي عهده سمح الظاهر جقمق لملك التتار «شاه رخ» بكسوة الكعبة عام ٨٤٧، ثم عاد فنزعها لأن المسلمين وخاصة العوام منهم لم يقبلوا ذلك، وكذلك بعض المماليك لما في تاريخ التتار من سوء وقتال للمسلمين وتهديم لديارهم وهتك أعراضهم، ولم ينس بعد ذلك التاريخ.

وغزا الظاهر جقمق جزيرة رودوس مرتين أيضاً في عهد المستكفي مرةً سنة ٨٤٧، ومرةً في العام الذي تلا (٨٤٨)، هذا بالإضافة إلى الغزوة التي تمت في عهد المعتضد عام ٨٤٤، ولكنه لم يوفق في فتحها وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوربا.

وثار على الظاهر جقمق أتابك مصر قرقماس الشعباني، ونائب الشام، وقام العبيد بفتنة في منطقة الجيزة، غير أنه تمكّن من القضاء عليها جميعها.

وتوفي الخليفة يوم الجمعة الثالث من شهر ذي الحجة عام ٨٥٤، وتولّى بعده أخوه القائم بأمر الله.

ــ ١٤ ــ

القائم بأمر الله

حمزة بن محمد المتوكل على الله

٨٥٤ ــ ٨٥٩

هو حمزة بن محمد المتوكل على الله، أبو البقاء، القائم بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الذي لم يعهد بالخلافة إلى أحد من بعده، وهو شقيق المستعين بن المتوكل على الله.

كان شهماً صارماً، أقام أبهة الخلافة مدة حكمه، وعنده جبروت على خلاف بقية إخوته.

توفي الظاهر جقمق في مطلع عام ٨٥٧، فقلد الخليفة ابنه «عثمان» أمر السلطنة، وحمل لقب المنصور، وكان مدبر شؤون الدولة الأمير «إينال»، وبعد شهر ونصف من تسلّم المنصور السلطنة خلعه الأمير «إينال»، وتسلّم مكانه، فما كان من الخليفة إلا أن قلّد «إينال» أمر السلطنة في شهر ربيع الأول من عام ٨٥٧، وأخذ لقب «الأشرف».

اختلف السلطان «إينال» مع الخليفة «القائم بأمر الله» فقبض السلطان على الخليفة في شهر جمادى الأولى وسجنه في الإسكندرية وبقي فيها حتى مات عام ٨٦٣، ودفن هناك. ثم بايع السلطان أخا الخليفة الآخر، وهو المستنجد بالله.

ـ ١٥ ـ

المستنجد بالله
يوسف بن محمد المتوكل على الله
٨٥٩ ـ ٨٨٤

هو يوسف بن محمد المتوكل على الله، أبو المحاسن، المستنجد بالله، وهو الخليفة الخامس من أبناء المتوكل على الله، ولي أمر الخلافة بعد خلع أخيه القائم بأمر الله.

كان السلطان هو الأشرف إينال إلا أن الاضطرابات قد استمرت عليه طيلة حكمه، وقد توفي عام ٨٦٥، فقلّد الخليفة من بعده ابنه أحمد والذي أخذ لقب «المؤيد»، ولم تمض مدة حتى وثب على المؤيد الأمير خشقدم، وخلعه، واستبد بالأمر، فقلّده الخليفة اسم السلطنة في شهر رمضان من العام نفسه، وأخذ لقب الظاهر سيف الدين خشقدم.

استمر السلطان الظاهر خشقدم في السلطنة مدة سبع سنوات، وتوفي في شهر ربيع الأول من عام ٨٧٢، فقلّد الخليفة الأمير «بلباي» الذي أخذ لقب سلفه الظاهر سيف الدين، ولكن لم يلبث سوى شهرين حتى وثب عليه الجند وخلعوه، فقلد الخليفة الأمير «تمربغا» فحمل لقب «الظاهر» أيضاً، وبعد شهرين من تسلّمه السلطنة وثب عليه الجند أيضاً وخلعوه. وأعطيت السلطنة للأمير خير بك مساءً وفي الصباح خلعه الجند. ثم تقلّد السلطنة الأمير «قايتباي»، فأخذ لقب الأشرف فاستقر له الأمر مدة تسعة وعشرين عاماً، وأخذ الأمور بحزم فدانت له، ونتيجة الاستقرار الذي عمّ أيامه فقد انصرف إلى إنشاء الطرق، والجسور، والمدارس، والمساجد، كما

انصرف إلى الشؤون الخارجية فقد أرسل عدة حملات ضد إمارة (ذو القادر) التركمانية التي تقع على أطراف بلاد الشام بين البلاد التي تدين للعثمانيين والبلاد التي تخضع للمماليك، فقد أرسل حملة عام ٨٧٦ ضد (شاه سوار) زعيم هذه الإمارة، وكان السلطان العثماني محمد الفاتح يدعم أمير التركمان هذا ويؤيده، واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على «عينتاب» و «أضنه» و «طرسوس»، وأن تأسر (شاه سوار) نفسه، وحمل إلى القاهرة، وقد شنق على باب زويله عام ٨٧٧. وكان قائد الحملة الأمير «يشبك»، قد عيّن الأمير «بوداق» أميراً على دولة (ذو القادر) وهو من الذين يعتمد عليه المماليك ويؤيدونه.

وفي عام ٨٧٧ قاد الأمير يشبك أيضاً حملة ضد الدولة التركمانية الثانية (الشاة البيضاء) التي كان أميرها آنذاك حسن الطويل، وكان قد أغار على ضواحي حلب، وقد تمكن الأمير يشبك من إحراز النصر في معركة البيرة على نهر الفرات. وتوفي الأمير حسن الطويل عام ٨٨٣، وخلفه ابنه يعقوب أمير الرها.

وفي عام ٨٨٤ توفي الخليفة المستنجد بالله في الرابع عشر من شهر المحرم، بعد أن أصابه الفالج، وبقي مريضاً بسببه مدة شهرين، وخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن يعقوب.

ــ ١٦ ــ

المتوكل على الله «الثاني»

عبد العزيز بن يعقوب

٨٨٤ ــ ٨٩٣

هو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل، أبو العز، المتوكل على الله. ولد سنة تسع عشرة وثمانمائة، وأمه تدعى «حاج ملك» بنت أحد الجنود. كان محبوباً بين الخاصة والعامة لما امتاز به من أدبٍ وأخلاقٍ وتواضعٍ، وبشاشة لكل واحد.

تولى خمسة من أبناء المتوكل على الله محمد الخلافة، ولم يليها ابنه السادس يعقوب والد هذا الخليفة، ولما مرض عمه بالفالج، وطال مرضه عهد إليه بالخلافة من بعده، فلما توفي المستنجد بويع بها في يوم الاثنين السادس عشر من شهر محرم من عام ٨٨٤.

وفي عام ٨٨٥ قاد الأمير «يشبك» حملة إلى جهات التركمان، فالتقى مع أمير دولة (الشاة البيضاء) فهُزم المماليك، وأُسر «يشبك» وقُتل على شاطئ نهر الفرات، ثم عقد السلطان «قايتباي» صلحاً مع إمارة (الشاة البيضاء).

وتوفي الخليفة عام ٨٩٣، وعهد لابنه المستمسك بالله.

ـ ١٧ ـ

المستمسك بالله

يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله

٨٩٣ ـ ٩١٤

هو يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعهد من أبيه عام ٨٩٣، وفي عهده توفي الأشرف قايتباي عام ٩٠١، وكان قد تنازل لابنه محمد قبل موته بيوم واحد، فقلّد ابنه محمد السلطنة، فتلقّب باسم الناصر، غير أنه لم يلبث أن عزل بعد عدة أشهر إذ كان صغيراً لم يزد عمره على الأربع سنوات، فقلّد الخليفة الأمير قانصوه، غير أن الجند قد وثبوا عليه، وقتلوه بعد مرور سنة على تسلمه السلطنة، وأعيد الناصر محمد بن قايتباي ثم لم يلبث أن قتل بعد أشهر من إعطائه السلطنة، وقام الظاهر قانصوه خال السلطان قانصوه الذي قتل قبل إعادة الناصر محمد بن قايتباي، لكنه عزل بعد أشهر أيضاً، وقام بأمور الدولة الأمير «جان بلاط» فقلّده الخليفة، وأخذ لقب الأشرف.

أعلن نائب الشام الأمير «قوصروه» العصيان فأرسل له الأشرف «جان بلاط» حملة بقيادة الأمير «طومان باي» ومعه الأمير «قانصوه الغوري»، ولما وصل «طومان باي» إلى الشام اتفق مع الأمير «قوصروه» على الغدر بالأشرف «جان بلاط» والسير إلى مصر معاً، وقتال «جان بلاط»، وتعيين «طومان باي» سلطاناً، وزحفوا فعلاً على مصر، وقبضوا على «جان بلاط»، وخنقوه بالإسكندرية، وأعلنوا تعيين «طومان باي» سلطاناً باسم الملك العادل، كما عينوا الأمير «قوصروه» أتابكاً للجند. لكن العادل «طومان باي»

لم يلبث أن غدر بصديقه «قوصروه» وقتله. وبدأت مرحلة من الظلم، فنفر الجند من العادل، وبدؤوا يتآمرون عليه فهرب واختفى عن الأنظار.

اتجهت الأنظار إلى الأمير «قانصوه الغوري» لتعيينه سلطاناً، فهو كبير السن إذ يقال: إنه من مواليد ٨٥٠، وكان مملوكاً للأشرف قايتباي، ثم أعتقه بعد أن أظهر شجاعةً فائقةً، وجعله من خاصة أتباعه، وعيّنه عام ٨٨٦ حاكماً للوجه القبلي، ونائباً على طرسوس، وحاجب الحجاب في حلب عام ٨٩٤، فلما عرضت عليه الإمارة رفض ذلك وبكى، إذ لاحظ ما آل إليه أمر المماليك، وقتل بعضهم لبعض، غير أنهم أصروا على تعيينه فاشترط دعمه وعدم التآمر عليه فوافقوا على ذلك. وقلّده الخليفة السلطنة في شوال عام ٩٠٦، وكان قد قارب الستين من العمر، وتلقّب باسم الأشرف، وكانت كنيته أبا النصر.

تابع الأشرف قانصوه الغوري السلطان العادل طومان باي حتى قبض عليه حيلةً، وقتله، وعين في الدولة الأمراء الذين يثق بهم، وحصّن الإسكندرية ورشيد، وأصلح القلعة، وحفر الترع، وأكثر من المماليك واعتنى بهم. ووطد الأمن والاستقرار.

وفي عهده أغار الاسبتاريون من رودوس على مصر عام ٩١٤، فردّهم.

ووصل البرتغاليون الصليبيون إلى سواحل بلاد العرب، ودخلوا إلى البحر الأحمر، فجهز السلطان الأشرف قانصوه الغوري حملةً جعل قيادتها لحسين الكردي، وسلّمه نيابة جده، فأبحرت من السويس عام ٩١١، واستطاعت أن تهزم البرتغاليين على الشواطئ الهندية عام ٩١٤، وأن تغنم غنائم كثيرة.

وفي عام ٩١٤ شعر الخليفة بالتعب فتنازل لابنه محمد، وبقي حتى دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣، وقد نقل ابنه إلى حاضرة العثمانيين. أما هو فلم ينقل لكبر سنه، وبقي حتى توفي عام ٩٢٧.

ـــ ١٨ ـــ

المتوكل على الله «الثالث»

محمد بن يعقوب المستمسك بالله

٩١٤ ـــ ٩٢٣

هو محمد بن يعقوب المستمسك بالله، تنازل له أبوه عن الخلافة عام ٩١٤، وبقي حتى تنازل للسلطان العثماني سليم الأول، وبذا يكون آخر خلفاء بني العباس، وانتقل إلى استانبول مع السلطان العثماني بناءً على رأي الخليفة الجديد سليم الأول، وبعد مدة سمح له بالعودة إلى مصر، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٥٠.

وفي عهد الخليفة المتوكل على الله «الثالث»، كان السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري. وقد حدث أن أغار الصليبيون الاسبتاريون على مصر عام ٩١٥، ولكنهم هزموا، وأعادوا الغارة عام ٩١٦، وقتلوا «محمد بيك»، فكان لذلك الأثر الكبير على نفسية الغوري حتى أنه قبض على رهبان كنيسة القيامة في القدس ووبخهم. وفي عام ٩١٧ أغاروا على سواحل البرلس فداهمهم حامد المغربي، وهزمهم، وأسر مائتين منهم وساقهم إلى القاهرة.

أما بالنسبة إلى البرتغاليين فقد هزم الأسطول المملوكي في معركة «ديو» قرب السواحل الهندية بعد الانتصار الذي أحرزه في العام السابق ٩١٤، وعاد حسين الكردي إلى مصر بعد غياب سبع سنوات فوصل إلى السويس عام ٩١٨، واستطاع البرتغاليون الاستيلاء على شبه جزيرة كوجرات في الهند، ودخلوا إلى البحر الأحمر، وحاصروا ميناء سواكن. فأبحرت

حملة من السويس بقيادة حسين الكردي أيضاً عام ٩٢١، وفيها سلمان العثماني معاوناً لحسين الكردي وفي رجب من عام ٩٢٢ اختلف سلمان العثماني وحسين الكردي فقتل الأول الثاني منهما. وفي هذه الأثناء بدأ العثمانيون يتحركون في الشمال.

أما بالنسبة إلى الدولة الصفوية التي قامت في تبريز في أذربيجان فقد كانت علاقتها سيئة مع المماليك إذ قامت على فكر شيعي معاد للإسلام من أهل السنة على الأقل، وقد استطاع إسماعيل شاه الصفوي عام ٩١٦ أن يدخل بغداد، ويخلصها من ملكها مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل التركماني، ففر مراد خان، والتجأ إلى مصر.

وفي العام نفسه (٩١٦) أرسل إسماعيل الصفوي رسلاً من قبله إلى بعض ملوك الفرنجة يحرّضهم على غزو مصر، وقتال الغوري، وخاصة أن صلةً كانت بين الصفوّيين والبرتغاليين. والمماليك يومذاك ألد أعداء البرتغاليين، وهم الذين وقفوا في وجههم ودخلوا معهم في حروب طاحنةٍ. وأراد البرتغاليون يومذاك الإفادة من الخلاف القائم بين الصفويين لتشيّعهم وبقية المسلمين في المنطقة، وقد وجدوا ضالتهم في الصفويين الذين استجابوا لهذه الرغبة وعملوا على التحرك باتجاه الغرب.

وفي العام نفسه (٩١٦) انتصر الصفويون على التتار، وقتلوا ملكهم «أوزبك خان» وابنه، وفي سبيل تهديد المماليك أرسل الشاه إسماعيل الصفوي رأس «أوزبك خان» ورأس ابنه ضمن علبة إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وبدأ الصفويون يتحركون نحو الغرب، ووصلت طلائع جيوشهم عام ٩١٨ إلى «البيرة» على نهر الفرات، شمال بلاد الشام (ضمن الحدود التركية اليوم)، ومع أن القتال أو الحرب الباردة التي كانت دائرةً يومذاك كانت فكريةً بل دينيةً سواء أكانت من ناحية البرتغاليين أم من ناحية الشيعة أصدقاء أو حلفاء البرتغاليين فإن سادة مصر يومذاك لم يحسنوا التصرف وخاصة السلطان الأشرف قانصوه الغوري سيد الموقف في مصر والشام إذ أراد الوقوف على الحياد فكانت النتيجة أن قضي عليه ودالت دولته، وزالت الخلافة العباسية من مصر، وانتقلت أنظار المسلمين من

القاهرة إلى استانبول التي أصبحت مركز الخلافة وحاضرة المسلمين وبذا فقد ورثت القاهرة.

وأما بالنسبة إلى الدولة العثمانية فقد كانت العلاقة حسنة بينها وبين دولة المماليك في مصر والشام، وقد ازينت القاهرة عام ٨٥٧ بأمر من السلطان إينال بمناسبة فتح العثمانيين للقسطنطينية، وكانت القاهرة ترسل وفداً إلى استانبول بعد كل نصر أو عند تولية سلطان. وتعكرت العلاقات بين الدولتين عام ٨٦٥ عندما وصل السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم إلى السلطنة، وفي عام ٨٦٩ مات أميرا دولتي (ذو القادر) و (قرمان) التركمانيتين فعيّن العثمانيون عليهما أميرين من غير أنصار المماليك. ومع هذا الخلاف الذي بدأ يظهر بين العثمانيين والمماليك فقد فرّ إلى القاهرة الأمير «جم» أخو السلطان العثماني بايزيد الثاني، وفي الوقت نفسه فقد آوت استانبول بعض الأمراء الفارين من مصر والشام.

لقد أرسل السلطان قايتباي حملة ضد إمارة (ذو القادر) عام ٨٧٦ استطاعت أن تستولي على هذه الإمارة، وأن تأسر أميرها (شاه سوار)، الذي نقل إلى القاهرة حيث أعدم على باب زويلة، وأن تعيّن الأمير بوداق مكانه وهو من الذين يناصرون المماليك. وفي العام التالي انتصر المماليك على حسن الطويل أمير دولة (الشاة البيضاء) في معركة البيرة على نهر الفرات.

لقد ثار ابن (شاه سوار) على عمه (علي دولات) الذي يؤيده المماليك، ودعم السلطان سليم العثماني ابن (شاه سوار) وهاجم علي دولات وهذا ما وطد الصلة بين المماليك وعلي دولات. وعندما دخل الصفويون بغداد فرّ ملكها من التركمان إلى القاهرة مقر دولة المماليك رغم أن جده حسن الطويل كان قد قاتل المماليك.

لقد أثارت تصرفات الصفويين السلطان سليم الأول العثماني فآثر ترك أوربا والتوجه نحو الصفويين لقتالهم. ويمكن أن أقول: إن أوربا كانت تدعم الإسبان والبرتغاليين منذ مدة حتى استطاعوا طرد المسلمين من الأندلس عام ٤٩٧، وبقيت تدعمهم بعد ذلك، وعندما قام العثمانيون

يقاتلون الأوروبيين، ويتقدمون من جهة الشرق رأت أوربا الوقوف في وجه العثمانيين بقوة وقطع المساعدة عن الإسبان والبرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الأندلس، وعندما وصل البرتغاليون إلى جنوب بلاد العرب ودخلوا الخليج العربي رأوا أن يحركوا الصفويين ضد العثمانيين من الشرق ليخفّ ضغط العثمانيين عن أوربا. فلما اشتد ضغط الصفويين على الشرق العثماني، وتحريض ملوك أوربا ضد المماليك، ومحاولة نشر الشيعة فضّل السلطان العثماني ترك أوربا والتوجه نحو الشرق لتأديب الصفويين. واعتقد أن المماليك سيكونون عوناً له في مهمته هذه لأن العثمانيين يقاتلون الصفويين الشيعة أعداء العثمانيين والمماليك معاً. وأن العثمانيين إنما يقاتلون الأوربيين النصارى الذين يدعمون البرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الغرب، ويريدون دخول البحر الأحمر، وتهديد المدينة المنورة، ونبش قبر رسول الله ﷺ كي يتسلموا القدس. والمماليك يقاتلون البرتغاليين، ويدافعون عن بلاد المسلمين فالمصلحة الإسلامية العثمانية والمملوكية واحدة، غير أن العثمانيين عندما عرضوا مشروعهم لقتال الصفويين على المماليك، وقف المماليك على الحياد حسب رأيهم إلا أن الحياد ذاك معناه تقوية الخصوم وهم الصفويون بل والبرتغاليون الذين وراءهم وحلفاؤهم وعندما رأى العثمانيون هزيمة المماليك أمام البرتغاليين كان عليهم أن يقوموا بواجبهم فيقفوا أمام البرتغاليين، فأضمر السلطان سليم في نفسه رغبته بالقضاء على المماليك إذا استطاع إحراز النصر على الصفويين.

تحرك السلطان سليم العثماني من أوربا، واتجه نحو الشرق لقتال الصفويين غير أن علي دولات أمير دولة (ذو القادر) قد تصدّى لطلائع الجيش العثماني، ولما كان هذا الأمير من أنصار المماليك لذا اقتنع السلطان العثماني بأن هذا العمل إن هو إلا من تحريض المماليك، فما كان من السلطان العثماني إلا أن داهم التركمان، وقتل علي دولات وولي مكانه ابن (شاه سوار)، وتابع نحو الصفويين فانتصر عليهم، ودخل عاصمتهم مدينة تبريز عام ٩٢٠ بعد معركة (جالديران) المشهورة، وبعد هذا النصر بدأ يستعد لقتال المماليك، ولقد ضم السلطان العثماني إليه الجزيرة وإمارة (ذو

القادر) إلى الدولة العثمانية عام ٩٢١، وبدأ يتصل بنواب المماليك في بلاد الشام.

أحسّ السلطان الغوري بمشروع السلطان سليم فجهّز حملةً وقادها بنفسه وانطلق إلى بلاد الشام، وتوجه شمالاً، وانطلق من حلب إلى مرج دابق في الشمال الغربي من حلب حيث التقى مع السلطان سليم، ورتب السلطان الغوري جيشه فكان هو في القلب، وعلى ميمنته نائب دمشق جان بردي الغزالي، وعلى ميسرته نائب حلب خاير بيك، وتقدّم للقتال، وأحرز النصر في الجولة الأولى، وحمل العثمانيون ثانيةً، وانضم إليهم نائب حلب خاير بيك وبعض الأمراء فنالوا النصر، وقتل الغوري في ميدان المعركة، وتقدم العثمانيون فدخلوا حلب وبقية مدن بلاد الشام دون مقاومة بل أحياناً كثيرة كانوا يستقبلون استقبالاً حاراً حيث ينظر إليهم نظرة احترام على أنهم توغلوا في أوربا، وضربوا الدولة الصفوية الشيعية، ويرغبون في منازلة البرتغاليين الذين يهددون المسلمين بل ومقدسات المسلمين أيضاً، وربما كانت هذه من دعايات العثمانيين التي روّجوها، وأطلقها أنصارهم لأننا لا نستطيع أن نعد الشعب كان يومذاك يعرف هذه الحقائق، ويدركها تماماً وإن كانت صحيحة، وتابع السلطان سليم العثماني تقدمه حتى مصر فوقف في وجه نائب السلطان الغوري الأشرف طومان باي، وجرت معركة بين الطرفين على أبواب القاهرة هي معركة الريدانية التي قتل بها الأشرف طومان باي، ودخل إثرها السلطان سليم القاهرة فبايعه أهلها، وتنازل له آخر خليفة عباسي، وهو المتوكل على الله، كما جاء إليه أشراف الحجاز فبايعوه فتسمى باسم خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين، وعاد بعدها إلى حاضرة ملكه استانبول بعد أن أخذ معه الخليفة العباسي المتوكل على الله، والصناع المهرة، والتجار بينما ترك والد الخليفة في القاهرة نتيجة كبر سنه، وفقد بصره. وبذا زالت دولة المماليك، وانتهت الخلافة العباسية من مصر بعد أن دامت ٢٦٤ سنة (٦٥٩ ـ ٩٢٣)، وكانت قد انقضت أيامها من بغداد قبل ذلك بأربع سنوات. وهكذا انطوت صفحة من تاريخ الخلافة في القاهرة لتفتح صفحة جديدة من تاريخ الخلافة في استانبول.

الباب الثاني

جَزِيرَة العَرَب

ضعف مركز الجزيرة العربية في العصر العباسي، ويلفت النظر فيه قيام حركات في الحجاز ضد العباسيين وخاصةً حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهدأت الأوضاع بعد معركة فخ التي حدثت عام ١٦٩ في وادي فخ أحد أودية مكة، ورجعت الجزيرة إلى الظل حتى قامت حركات القرامطة فاتجهت الأنظار نحوها، وهي مشمئزة من أفعال تلك الحركات وتصرفاتها وفساد عقيدتها، وسواء تلك التي قامت في البحرين وزعيمها أبو سعيد الجنّابي وأولاده من بعده، أم تلك التي قامت في اليمن وزعيمها علي بن الفضل، أم تنقلات قرامطة البحرين في أرجاء الجزيرة باستثناء عسير ووصولها إلى بلاد الشام وحتى أطراف مصر، ثم انتهت تلك الحركات، والدول التي أقامتها أو دعمتها، ولم تكن الدول التي قامت في بلاد اليمن بذي شأن.

أما في مرحلة حكم المماليك فقد ارتفع شأن جنوب غربي الجزيرة في بلاد اليمن إذ قامت هناك دولتان ذواتا شأن هما دولة بني رسول، ودولة بني طاهر التي جاءت بعد الأولى، ودامت أيامها طيلة هذه المرحلة (٦٥٦ - ٩٢٣). أما في أواخر المرحلة فقد اتجهت أنظار المسلمين عامة إلى أطراف الجزيرة الجنوبية الغربية، والجنوبية، والشرقية أو اليمن، وعُمان، والبحرين وذلك لأن هذه المناطق قد تعرّضت لغزو صليبي رفع شعار التجارة والسيطرة على المراكز التجارية، والحصول على الموارد الإنتاجية، وكانت حقيقته ودوافعه الحقد الصليبي، ذلك هو الغزو البرتغالي الذي جاء منذ مطلع القرن العاشر، واستمر إلى نهايته.

هذا الغزو أعاد للجزيرة بعض أهميتها لما فعله، ولما أعلن عنه من مخططات هدفها القضاء على الإسلام، والسيطرة على الأماكن المقدسة لإجبار المسلمين على تسليم القدس للنصارى، وهذا ما جعل المسلمين يعملون للدفاع عن هذا الجزء لما له من أهمية في نظر المسلمين إذ به مقدساتهم، وكان اندفاع المماليك، ثم اندفاع العثمانيين بعدهم، واتجه المسلمون معهم إلى ميدان المعارك بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين، وعاد السكان يؤدون بعض دورهم المنوط بهم، وكانت البحرين، وكانت عمان، وكانت اليمن ساحات معارك عظيمة في أهميتها.

الفصل الأول

الحِجاز

ضعف شأن الحجاز منذ العصر العباسي الثاني، وأصبح تابعاً لغيره، ولم تعد تقم فيه تلك الحركات ذات الصدى الواسع. لقد وصل نفوذ الأخيضريين إلى الحجاز عام ٣٣٥، ثم خضع لسيطرة القرامطة عام ٣٥٠، الذين أنهوا حكم الأخيضريين في الحجاز على حين أبقوه في اليمامة. وجاء الفاطميون عام ٣٥٩، واستمروا حتى أنهى نفوذهم السلاجقة عام ٤٦٣، ثم جاء الأيوبيون عام ٥٦٧، وقد ألغى صلاح الدين المكوس عن الحجاج، وعوض عن ذلك لشريف مكة، كما أبطل داود سيف الإسلام طغتكين بن أيوب نداء حي على خير العمل الذي كان معمولاً به منذ عهد الأخيضريين، ثم امتد نفوذ المماليك عام ٦٥٠، واستمر حتى جاء العثمانيون عام ٩٢٣، وإن كان نفوذ بني رسول في اليمن يصل أحياناً إلى مكة، أو يتدخل سلاطين بني رسول في شؤون الأشراف، هذا بالنسبة إلى التبعية العامة أو دعاء الخطباء في الجمع والأعياد والمناسبات، أما بالنسبة إلى السلطة الفعلية فقد كانت بيد أسر، تنتسب أو تدعي الانتساب إلى الحسن أو الحسين أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وتعد نفسها عمالاً لأصحاب السلطة في بغداد أو القاهرة، فقد تسلم بنو موسى السيطرة على الحجاز عام ٣٥٩ مع مجيء النفوذ الفاطمي، وكانوا عمالاً لأصحابه، وجاء بنو هاشم (بنو فليتة) عام ٤٥٣، وفي أواخر أيامهم ساءت سيرتهم إذ أكثروا الفساد، وشاركوا في نهب قوافل الحجاج، واختلفوا فيما بينهم، إذ وقع القتال بين آخرهم وهو مكثر وبين أخيه داود، فتدخل الأيوبيون،

وطلبوا من الخليفة عزله ففعل، غير أن مكثر عاد وفرض نفسه حتى مات عام ٦٠٠. وقدم من ينبع إلى مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى الذي ينتمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما عام ٥٩٨، واستطاع أن ينهي حكم الهواشم، وأن يسيطر على مكة، ويؤسس أسرة استلمت شرافة مكة، وتبعث إلى الأيوبيين، ثم إلى المماليك فالعثمانيين، واستمرت في نفوذها حتى عام ١٣٤٢هـ. وبعد وفاة قتادة وقع الخلاف بين ولديه الحسن وراجح عام ٦١٧، فأرسل الملك المسعود بن الكامل الأيوبي جيشاً هاجم الحسن عام ٦٢٠، ففر الحسن إلى الشام، ومنها إلى العراق، ودخل بغداد، ومات فيها عام ٦٢٢، وأصبح طغتكين الأيوبي نائب الملك العادل على مكة، واستمر ذلك حتى عام ٦٣٠ حيث استطاع الشريف راجح بن قتادة استردادها بمساعدة آل رسول حكام اليمن، وقبل راجح أن يكون تابعاً تحت سيطرة بني رسول إذا ما أخرجوا طغتكين من مكة. وشهد تاريخ مكة والمدينة بعد وفاة الملك العادل عام ٦٣٥ نزاعاً متصلاً بين الأيوبيين وبني رسول حتى توفي راجح بن قتادة عام ٦٤٥. وخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح فدعمه بنو رسول وكذا ابنه الحسن، ثم جاء محمد أبو نمي الأول، وشغل وأولاده من بعده بالرسوليين والمماليك قرناً من الزمن، حيث لم يثبت أحد من الأشراف على الولاء أكثر من عام على الغالب لبعد الشقة بين مكة ومصر من جهة أو بين مكة واليمن من جهة ثانية فما أن يبعث المماليك جيشاً يخضع مكة حتى يسارع الرسوليون إلى إرسال جيشٍ في العام التالي، ولم يكن لكلا الجانبين قوة كبيرة تسمح له بترك حامية معززة في مكة تحول دون تمرد الشرفاء، أو تمنع قدوم قوة الآخرين إلى مكة.

كما كان الخلاف يقع بين الإخوة فيستعين هذا بجانب وذاك بجانب آخر فيتعاقب الإخوة على شرافة مكة وفي الوقت نفسه يتعاقب النفوذ الذي يدعم الشريف على أخيه أو خصمه، ولعل أشد هذه الخلافات ما وقع بين أولاد محمد أبو نمي الأول وهم: حميضة، ورميثة، وعطيفة، وأبو الغوث، وتدخل سلاطين مصر واليمن في هذا النزاع.

وكانت جدة ترتبط بمصر في الآونة الأخيرة، ويعين حاكمها من القاهرة، وقد يصطدم والي جدة مع شريف مكة، ويقع بينهما قتال يؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

أما المدينة فقد كانت بيد أشراف ينتمون إلى الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بينما ينتسب أشراف مكة لآل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وكثيراً ما كانت مكة تشرف على الوضع في المدينة، وتكون المدينة تابعة لمكة، وقد لعب الأشراف دوراً بارزاً في تاريخ الحجاز، لذا كانت لهم الشهرة، وكانت لهم الكلمة إضافة إلى وضع مكة الخاصة بالنسبة إلى المسلمين وموسم الحج.

وقد يمتد نفوذ أشراف مكة إلى الشرق قليلاً أو كثيراً فيشمل أجزاء من نجد واسعة أو صغيرة، وربما يتجاوزها قليلاً إلى الشرق، وتخضع القبائل إلى مكة.

سيطر أبو عزيز قتادة على مكة مدة تسعة عشر عاماً حتى توفي عام ٦١٧، فوقع الخلاف بين ولديه حسن وراجح خاصة، وإن كان قد شمل الخلاف أبناءه الآخرين أيضاً، واستمر هذا الخلاف مدة سنة كاملة، وانتهى بسيطرة الحسن على الوضع لمدة عامين، وضاق الأيوبيون ذرعاً بهذا الخلاف فأرسلوا جيشاً دخل مكة، وفرّ منها الحسن، وأصبح الوضع في مكة تحت إشراف الأيوبيين لمدة عشر سنوات (٦٢٠ ـ ٦٣٠). ثم إن الشريف راجح بن قتادة قد استعاد شرافة مكة بمساعدة الرسوليين، وبقي حتى توفي عام ٦٤٥، فخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح، ثم ابنه الحسن، واستمر دعم الرسوليين لهما. وتولّى شرافة مكة بعدها إدريس بن حسن بن راجح لمدة أربع سنوات، وعمّه غانم لمدة سنتين بعد أن حكم جماز سنة واحدة.

تسلّم شرافة مكة محمد أبو نمي الأول وعمّ أبيه إدريس بن قتادة مدة ثلاثة عشر عاماً (٦٥٤ ـ ٦٦٧) غير أن أبا نمي قد انفرد وحده بالسلطة، وعزل إدريس، واتجه نحو الحفصيين في تونس، فخطب لهم، إلا أن

الظاهر بيبرس سلطان مصر، قد تمكن من إعادة نفوذ الأشراف له، وعودة سيطرة مصر على مكة الحجاز عامة، وإبعاد الحفصيين، ورجع إدريس بن قتادة يشارك مرة أخرى في شرافة مكة أبا نمي وما هو إلا عام حتى انفرد أبو نمي بالشرافة، وقتل إدريس، وبقي سيد مكة حتى توفي عام ٧٠١ أي مدة إحدى وثلاثين سنة، وبذا بقي شريفاً في مكة أوله الكلمة الأولى مع مشاركة إدريس له مدة سبع وأربعين سنة (٦٥٤ ـ ٧٠١)، وخلفه أبناؤه، وزاد الصراع، وتفرّقت الكلمة، ووقع القتال بين الإخوة، وقتل بعضهم بعضاً. إذ تولى أبو الغوث وأخوه عطيفة شرافة مكة لمدة سنتين، ثم نازعهما أخواهما حميضة ورميثة لمدة سنة واحدة، ثم رجع الأوليان لمدة عشر سنوات، وعاد الآخران لمدة سنة واحدة، إذ جاء أبو الغوث بقوةٍ من مصر ودخل بها مكة فهرب منه حميضة ورميثة إلى حلي بن يعقوب في تهامة عسير، واستولى أبو الغيث على مكة، ورجع حميضة عام ٧١٥ وقتل أخاه أبو الغوث، واستولى على مكة، فغضب سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون فجهّز جيشاً بإمرة عطيفة فاستولى على مكة، وغادرها حميضة هارباً نحو الشرق، وذلك بعد أن انفرد رميثة، ثم انفرد حميضة. ولم يطل أمر عطيفة سوى سنة واحدة حيث اضطر أن يتفق مع رميثة ويخالفان حميضة الذي قتل عام ٧٢٠. وبعد اتفاق دام ثماني عشرة سنة بين عطيفة ورميثة، انفرد رميثة لمدة ست سنوات حيث اعتزل عام ٧٤٤ وسلّم الأمر لولديه عجلان وثقبة، ولم تمض سنتان حتى عاد رميثة إلى الشرافة، وعزل ولديه، ولكنه مات بعد عام ٧٤٦ ورجع عجلان وثقبة، وبعد سنة من اشتراكهما في السلطة وقع الخلاف بينهما لمدة أربع سنوات انتهى بالاتفاق مدة ١٢ عام، إذ انفرد بعد ذلك عجلان لمدة سنة بعد وفاة أخيه ثقبة، حيث لحقه، وقام بأمر الشرافة أحمد بن عجلان، وبعد مرور سبع سنوات بعد الصراع بينه وبين أولاد عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس، واستمر هذا النزاع أربعة أعوام انتهى بموت أحمد بن عجلان فقام من بعده ابنه محمد لمدة مائة يوم فقط مع استمرار الخلاف الذي كانت نتيجته إقصاء محمد بن أحمد بن عجلان، واشتراك عنان بن مغامس وعلي بن عجلان

بالشرافة، ثم انفرد علي لمدة سنتين، وعنان لمدة سنتين، وعاد بعدها علي لمدة ثلاث سنوات توفي إثرها، وخلفه ابن حسن وبقي مدة ٣١ سنة (٧٩٧ ـ ٨٢٩)، وقد عزل وأعيد في خلالها مرتين. وبعده جاء ابنه بركات فحكم ست عشرة سنة، حيث عزل، وتولى مكانه أخوه علي لعدة أشهر حيث عزل، وأعيد بركات لعدة أشهر أيضاً حيث عزل، ونُصّب أخوهما الثالث أبو القاسم خمس سنوات، ثم أعيد بركات للمرة الثالثة فحكم ثمانية أعوام توفي إثرها، وقام بعده ابنه محمد فبقي في منصبه مدة ٤٤سنة (٨٥٩ ـ ٩٠٣)، ويبدو أن وضع الشرافة قد استقر في هذه المرحلة، وخلفه ابنه بركات الثاني، وبعد ٤ سنوات عاد الصراع فخلع بركات الثاني عام ٩٠٧، وأخذ المنصب أخوه هزاع، ولكن لم يبقى سوى سنة واحدة حيث رجع بركات الثاني، واستقر الوضع له (٩٠٨ ـ ٩٣١) وفي أيامه جاء العثمانيون فاستقبلهم، وأرسل ابنه محمد أبو نمي الثاني عام ٩٢٣ إلى مصر حيث بايع السلطان العثماني سليم الأول وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، وفي أيامه انتهت هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها مع مجيء العثمانيين. ويبدو أن الصراع كان شديداً على الشرافة منذ مطلع قرن الثامن مع وفاة محمد أبو نمي الأول وحتى منتصف القرن التاسع أي مدة قرن ونصف، وإن لم تكن الأيام الأخرى لتخلو من النزاع فهو دائم ومستمر ولكن ذكرنا أشده في تلك الحقبة من الزمن.

[١] أبو عزيز (قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى)

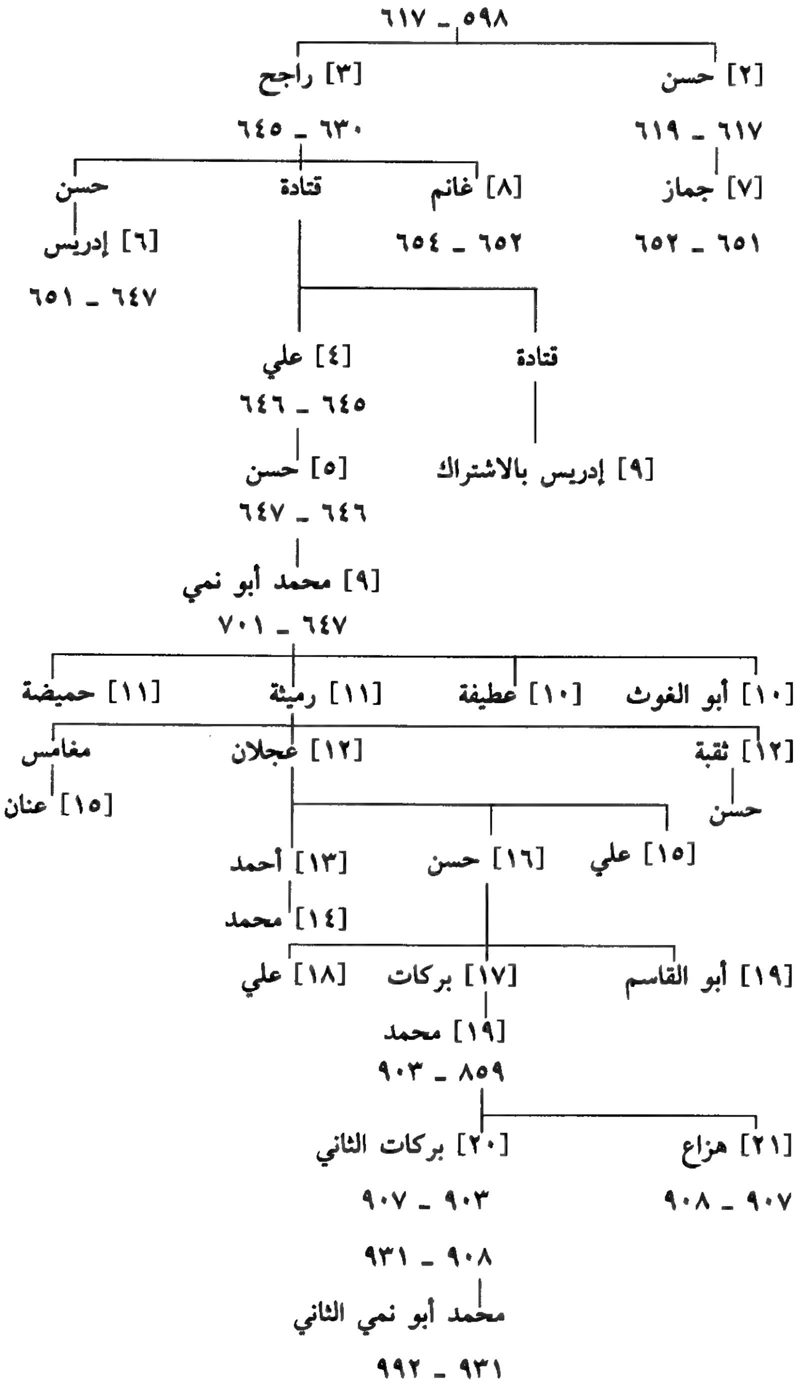

الفصل الثاني

اليمن

حكمت اليمن في هذه المرحلة (٦٥٦ ـ ٩٢٣) أسرتان. أسرة بني رسول وحكمت من ٦٢٦ إلى ٨٥٨، وتلاها حكم بني طاهر من ٨٥٨ ـ ٩٣٣، وبلغت قوة اليمن في أثناء ذلك درجة كبيرة بحيث كانت تسيطر أحياناً على الحجاز، ويمتد نفوذها إلى نهاية حضرموت شرقاً هذا بالإضافة إلى الصلات عبر البحار سواء أكان ذلك في إفريقية أم في آسيا.

١ً ـ بنو رسول:

ينتمي بنو رسول إلى الغساسنة ـ على حد قول علي بن الحسن الخزرجي ـ إذ فرّ جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام بعد حادثته مع الأعرابي الذي داس على ثوبه، فضربه جبلة فاشتكى الأعرابي إلى عمر، رضي الله عنه، فخاف جبلة من عمر فارتد، والتحق ببلاد الروم، وعاش أبناؤه من بعده، ثم انتقلوا إلى الشرق، وعاشوا مع التركمان، حتى ظنوا أنهم منهم، واتخذ الخليفة العباسي أحدهم وهو محمد بن هارون رسولاً له إلى الشام وإلى مصر فعُرف باسم رسول ونُسي اسمه.

ولما استقر الوضع لبني أيوب في مصر والشام أرسل الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظم توران شاه إلى اليمن، فسار عام ٥٦٩ ومعه بنو رسول، وكانوا خمسة أفراد هم: شمس الدين علي بن

رسول وأبناؤه الأربعة: بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، ونور الدين عمر بن علي بن رسول، وفخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول، وشرف الدين موسى بن علي بن رسول.

رجع الملك المعظم توران شاه إلى مصر بعد أن ترك له نواباً في اليمن وذلك عام ٥٧١، ثم لم يلبث أن توفي عام ٥٧٦ فاختلف نوابه من بعده، فأرسل عندئذ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الآخر الملك العزيز طغتكين سيف الإسلام فدخلها عام ٥٧٩ فأصلح أمرها، وبقي حتى توفي عام ٥٩٣ فخلفه ابنه الملك المعز إسماعيل بن طغتكين فقتل بيد الأكراد عام ٥٩٨، فقام مكانه أخوه الملك الناصر أيوب بن طغتكين الذي توفي عام ٦١١. وكان قد توفي في الشام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩، وتسلّم أمره بعده أخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فلما أحسَّ بقتل ابن أخيه إسماعيل، ووفاة الثاني وهو أيوب وقيل أنه مات مسموماً جهز عندها حملةً إلى اليمن بقيادة حفيده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل، فسار إلى اليمن ودخلها عام ٦١٢، وكان قد سبقه إليها ابن عمه سليمان بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب واستقر بتعز، وكان ضعيفاً فاستولى الإمام المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء. وعندما جاء المسعود أقام بزبيد، وطلب من ابن عمه سليمان الصلح على أن تكون الجبال لسليمان والتهائم للمسعود. وجاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول إلى المسعود، وحثّه بالنهوض إلى تعز، ففعل، وهدّد جند تعز وأمرهم بالقبض على سليمان فامتثلوا، فقبض المسعود على سليمان وأرسله مقيداً إلى مصر. واستولى هو على بقية أطراف اليمن. وأرسل لقتال إمام صنعاء عبد الله بن حمزة أحد القادة وهو جمال الدين فليت، فلم يزل يقاتله حتى توفي الإمام عام ٦١٤، ثم لحقه بعد مدة وجيزة جمال الدين فسار المسعود إلى صنعاء ودخلها.

عاد المسعود إلى تعز وولى على صنعاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وولى نور الدين عمر بن علي بن رسول على مكة.

وعندما رجع المسعود إلى مصر ترك نائباً عنه على اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول، وبقي أخوه الآخر بدر الدين على صنعاء. وجرى قتال بين نور الدين والإمام عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة عام ٦٢٣، وانتصر نور الدين، وعندما بلغ هذا الخبر إلى الملك المسعود رجع إلى اليمن ودخل تعز عام ٦٢٤، وسجن أبناء رسول خوفاً على اليمن بسبب شجاعتهم، ثم أطلق سراح نور الدين وأرسل إخوته بدر الدين، وفخر الدين، وشرف الدين إلى عدن ومنها إلى مصر مقيدين.

رجع المسعود إلى الشام عام ٦٢٦ وذلك لأن عمه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد توفي وهو صاحب دمشق، فطلب منه السير إلى الشام للقيام فيها، وأناب عنه نور الدين عمر بن علي بن رسول غير أن المسعود قد توفي في مكة قبل أن يصل إلى الشام.

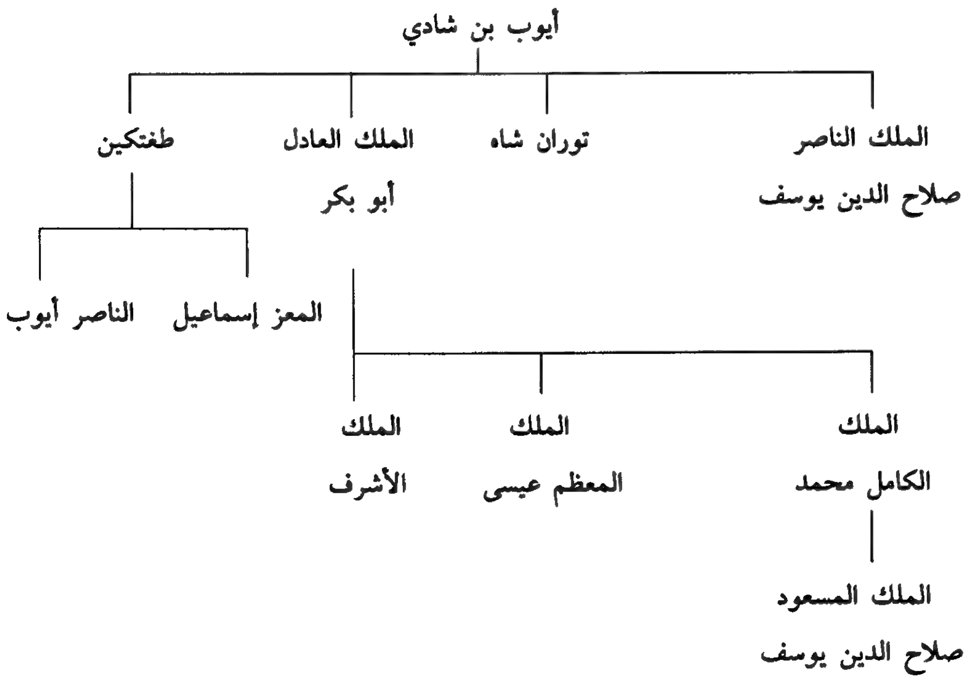

وقام نور الدين عمر بن علي بن رسول يحكم اليمن باسم الملك

المنصور، وانتقل من زبيد إلى تعز، وصالح الأشراف في صنعاء، واختلف مع الأيوبيين على إمارة مكة إذ كان يدعم شريف مكة راجح بن قتادة، وحفيده الشريف علي بن قتادة بن راجح، فكان يحكم مكة أحياناً أو يحكمها الشرفاء باسمه وتعود تارة أخرى للأيوبيين. ولم تخل أيامه من خلافات مع الرسيين في صنعاء حيث كانوا يتحركون ضده أحياناً إذ قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي عام ٦٤٦. ولم يلبث أن قتل المنصور عام ٦٤٧ وهو في جند على يد جماعة من مماليكه.

بايعت مماليك المنصور بعد وفاته ابن أخيه فخر الدين أبو بكر بن الحسن غير أن الملك المظفر بن المنصور قد سار إليه في زبيد، وتغلّب عليه، وقبض عليه، ودخل مقره، ثم أطاعته تهامه. وقدم عماه بدر الدين، وفخر الدين من مصر فقبّض عليهما، وأودعهما السجن.

واختلف مع بني رس في الشمال، إذ اتفق أحمد بن الحسين، وشمس الدين أحمد بن عبد الله، ودخلا صنعاء فقاتلهما أسد الدين بن أبي بكر بن علي بن رسول ومعه علم الدين علي بن وهاس أمير عسير، وتمكن السلطان بعدها من دخول صنعاء. وبعد حربه مع أحمد بن الحسين، حارب أيضاً يحيى بن محمد السراجي الذي قام بإمامة بني رس، ومن تلاه من الأئمة، وفي عام ٦٧٤ ظفر بالإمام إبراهيم بن تاج الدين، وسجنه في تعز وبقي في معتقله حتى مات، واستمر في أيامه حتى وفاته عام ٦٩٤.

وتدخل في شؤون أشراف مكة ففي عام ٦٥٢ أخرج الشريف راجح، وأبو نمي، وإدريس شريف مكة يومذاك وهو الشريف حماد بن حسن، وتسلم شرافة مكة راجح لمدة ثلاثة أشهر ثم أخرجه ولده غانم، فأخرجه أبو نمي وإدريس، وأقاما مدة حيث جاءهم جيش المظفر الذي دخل مكة، وتولى أمرها نيابة عن المظفر مبارز الدين الحسين بن علي، وفي عام ٦٥٣ جمع الأشراف جموعهم، وحاربوا نائب السلطان، وحاصروه في مكة، وانتصروا عليه، فشرى نفسه وخرج من مكة إلى اليمن.

وفي شهر جمادى الأولى تنازل الملك المظفر لابنه الملك الأشرف عمر ممهد الدين فاستلم الأمر، ولم يلبث أن توفي الملك المظفر بعدها بأشهر وذلك في شهر رمضان، وقام الملك الأشرف بالأمر.

اشتغل الأشرف بطلب العلم مدة إمارته حتى برع بعددٍ من العلوم، وصنّف عدداً من الكتب. وثار عليه أخوه الملك المؤيد الذي كان والياً على شحر وحضرموت، وسار نحو اليمن فلما اقترب منها وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره من تصرّفه، وعرض عليه أن يسلمه أحد الحصون المهمة التي في حوزته مقابل أن يرتدع عن غيّه فشكر له ذلك إلا أن أحد القضاة شجعه على المضي في سبيله، فسار مجداً وتمكّن من احتلال عدن غير أن الملك الأشرف قد انتصر عليه، وأودعه وولديه السجن في تعز. وتوفي الملك الأشرف عام ٦٩٦، وكان ولده الناصر في القحمة، والعادل في صنعاء، فبايع الجند والناس أخاه المؤيد المسجون بعد أن أطلقوا سراحه.

تسلّم الملك المؤيد الأمر، وأقر له بذلك أبناء أخيه الأشرف، ولم ينازعوه ملك أبيهم، ولكن خالفه أخوه المسعود غير أنه انتصر عليه، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٢١.

تولّى الحكم بعده ابنه المجاهد علي فقام ضده عمه أبو الشكر الملك المنصور أيوب عام ٧٢٢، وقبض على المجاهد، ووضعه في دار الإمارة تحت الإقامة الجبرية، وبعد ثلاثة أشهر تمكّن أتباع المجاهد من القبض على المنصور وسجنه وإخراج المجاهد، غير أن أتباع المنصور قد اتفقوا على البيعة لابن أخي المنصور وهو الملك الناصر محمد جلال الدين ابن السلطان الأشرف. ولكن السلطان المجاهد أعلن سيطرته على الأوضاع فانفض الناس من حول الناصر، واستقر الأمر للمجاهد، فألقى عمه المنصور وابن عمه الناصر في السجن، ثم أطلق سراحهما بعد مدة، وبقي الملك الظاهر بن المنصور في بعض الحصون يناوىء ابن عمه المجاهد.

- محمد بن هارون «رسول»
  - «شمس الدين» علي
    - «بدر الدين» الحسن
      - «فخر الدين» أبو بكر
    - «شرف الدين» موسى
    - [١] «نور الدين» عمر «المنصور» ٦٢٦ ـ ٦٤٧
      - [٢] «الملك المظفر» يوسف ٦٤٧ ـ ٦٩٤
        - [٤] «الملك المؤيد» داود ٦٩٦ ـ ٧٢١
          - [٥] «المجاهد» علي ٧٢١ ـ ٧٦٤
            - [٦] «الأفضل» العباس ٧٦٤ ـ ٧٧٨
              - [٧] «الأشرف الثاني» إسماعيل ٧٧٨ ـ ٨٠٣
                - [٨] «الناصر» أحمد ٨٠٣ ـ ٨٢٩
                  - [٩] «المنصور» ٨٢٩ ـ ٨٣٠
                    - [١٠] «الأشرف الثالث إسماعيل» ٨٣٠ ـ ٨٤٢
                      - [١١] «الظاهر» يحيى ٨٤٢ ـ ٨٥٠
                        - [١٢] «المسعود» أبو القاسم ٨٥٠ ـ ٨٥٨
        - [٣] «الملك الأشرف» عمر ممهد الدين ٦٩٤ ـ ٦٩٦
          - «الناصر» محمد جلال الدين
          - «العادل» أبو بكر صلاح الدين
        - الملك المنصور أيوب
    - «فخر الدين» أبو بكر
      - «أسد الدين»

وفي عام ٧٢٥ أخذ ابن الدويدار مدينة عدن بمساعدة آل يافع. وسيطر المماليك على زبيد، ثم خرجوا منها، وأعطوا الطاعة للملك الناصر محمد جلال الدين بن السلطان الأشرف، فسار بهم نحو زبيد، غير أنه عجز عن دخولها. وخالف الملك الصالح والملك العادل أباهما المجاهد، وخرجا من تعز. كما ادعى في العام نفسه محمد بن ميكائيل السلطنة في حرض وما حولها، وبقي سنتين. ثم خرج عليه أيضاً ابنه المظفر واتجه نحو عدن، ولم يتمكن من دخولها، وبعث إليه أبوه قوةً انتصرت عليه، وسار المجاهد إلى عدن، وهناك توفي عام ٧٦٤.

اختار الأمراء وكبار الدولة بعد وفاة المجاهد ابنه الأفضل العباس ولم يكن أكبر إخوته سناً، وبايعته العامة والخاصة. وأنهى أمر محمد بن ميكائيل في حرض عام ٧٦٥، وإن بقي له نفوذ في مناطق أخرى، وتوفي الأفضل عام ٧٧٨، وقام بالأمر بعده ابنه الأشرف الثاني إسماعيل، ويبدو أن دولة بني رسول قد بلغت أوجها في عهد هذا السلطان حتى خُطب له في مدينة قاليقوط الهندية، وتوفي في عام ٨٠٣، وخلفه ابنه الناصر أحمد، ودام حكمه ستاً وعشرين سنة (٨٠٣ ـ ٨٢٩)، على حين لم يدم حكم خليفته المنصور، وهو ولده سوى عام واحدٍ (٨٢٩ ـ ٨٣٠)، وبدأت دولة بني رسول تضعف فحكم الأشرف الثالث بن المنصور (٨٣٠ ـ ٨٤٢)، وولده الطاهر يحيى (٨٤٢ ـ ٨٥٠)، وزاد ضعف الدولة في عهد المسعود أبي القاسم (٨٥٠ ـ ٨٥٨) إذ زاد طغيان المماليك على أهل زبيد والتهائم، وسافر المسعود إلى مصر، فجاء ولاة عدن من بني طاهر وحكموا اليمن، وزال عهد بني رسول.

٢" ـ بنو طاهر:

ينتمي آل طاهر إلى بني أمية الذين ساحوا في الأرض بعد سقوط دولتهم، ولعل بني أمية من الأسرة السفيانية قد اتجهوا نحو جنوب غربي جزيرة العرب بعد أن قاموا بعدة حركات ضد الدولة العباسية، على حين

سار أبناء الأسرة المروانية نحو الأندلس حيث قامت لهم دولة هناك. واستقر السفيانيون في اليمن وعسير، كما انطلق بعضهم فيما بعد إلى الطرف الثاني من البحر الأحمر إلى بلاد السودان. وعمل آل طاهر عمالاً لبني رسول على عدن، وبرز منهم علي بن طاهر بن تاج الدين بن معوضة وأخوه عامر بن طاهر كواليين على عدن في أواخر عهد بني رسول، وكانا محبوبين بين السكان بسبب الطريقة التي سارا عليها، واشتهرا في المنطقة كلها. وضعُف بنو رسول في أواخر أيامهم، وتسلّط مواليهم على التهائم، واشتدت وطأتهم على أهل زبيد وخاصةً بعد سفر المسعود أبي القاسم إلى مصر، وهو آخر سلاطين بني رسول. وشكا وجهاء زبيد أمرهم، وما يصيبهم من ظلم موالي بني رسول إلى عامر بن طاهر، فأثّر ذلك في نفسه، وقرر مساعدة الزبيديين، وإنقاذهم مما هم فيه.

سار عامر بن طاهر الملقب بالمجاهد إلى زبيد ودخلها عام ٨٥٩ بمساعدة الأمير جيّاش أحد موالي أهل زبيد، وبقي المجاهد في المدينة عامين، ثم رجع إلى عدن لمنازلة صاحب «الشِحر» الذي جاء لاحتلال عدن عن طريق البحر. وهزمه، وتمكّن من أسره، وأرسل حملةً بقيادة الأمير جيّاش لاحتلال «الشِحر» وتمكن المجاهد من السيطرة على الأجزاء الجنوبية من بلاد اليمن. ثم اتجه شمالاً حيث كان بنو رسّ بإمرة الإمام الناصر يهاجمون أطراف دولته ويغيرون عليها، وأرسل إليهم جيشاً بإمرة أخيه الظافر فانتصر عليهم، وكاد يدخل صنعاء لولا اضطراره إلى مغادرة المنطقة والتوجّه إلى بلاد الشحر لإخضاع أهلها المتمردين. وعاد الظافر من الشحر منتصراً، وأسرع إلى الشمال على رأس جيش عظيم عام ٨٦٦، وتمكّن من إلقاء القبض على الإمام الناصر، أو أن أنصاره قد ألقوا القبض عليه بعد أن تظاهروا له بالإخلاص فبعد أن أمنهم مسكوه، وسلّموه للظافر، وبقي الإمام في السجن حتى توفي عام ٨٦٨. أما محمد بن الناصر فقد راسل الظافر، وقدّم له صنعاء مقابل خمسين ألف دينار، فدخل الظافر صنعاء، وغدت أكثر جهات اليمن تتبع له. غير أن محمد بن الناصر لم يمض عام على

مصالحته حتى بدأ يتحرك في صنعاء، ثم سيطر عليها، فجاء الظافر لحصارها، وقطع عنها كل وسائل الحياة من المياه والأرزاق، ومع ذلك لم يتمكن من فتحها، فكان يترك الحصار مدة ثم يعود إليه، وأخيراً قتل في بعض المعارك داخل صنعاء عام ٨٧٠، وغدت المدينة تحت حكم محمد بن الناصر الذي نادى بنفسه إماماً على صنعاء. أما المجاهد عامر بن طاهر فبقي ينتقل بين تعز، وزبيد، وعدن أي في الأجزاء اليمنية الجنوبية حتى توفي عام ٨٨٣، وكان قد عهد إلى أخيه عبد الوهاب بن عامر بتولّي أمور الدولة من بعده، فقام بالأمر وتلقّب بالمنصور. وقد قام بحركةٍ ضده ابن أخيه يوسف بن عامر، غير أنه هزم، وفرّ، ثم اعتذر من عمه، وطلب منه الأمان، وبايعه وتوفي المنصور عام ٨٩٤، وخلفه ابنه عامر بن عبد الوهاب، وتلقّب بالظافر الثاني، وثار ضده أبناء عمومته فانتصر عليهم بعد حروب وحركات استمرت ما يقرب من عامين. كما تحركت ضده مرتين قبيلة «الزرانيق» في تهامة فقضى على حركتهم في المرتين، واستمر ذلك من عام (٨٩٦ ـ ٨٩٩). وعندما أنهى أمر الجنوب اتجه نحو الشمال، فأرسل قوةً إلى صنعاء التي كانت تحت حكم الأئمة من بني رس، بقيادة محمد بن علي البعداني وذلك عام ٩٠٨، لكنه هزم، فسار الظافر بنفسه وحاصر صنعاء وضيق على أهلها حتى استسلموا، وخرج الإمام بنفسه معلناً الاستسلام وذلك عام ٩١٠، ودخل الظافر صنعاء، وبذا عادت سيطرة الطاهريين على معظم جهات اليمن.

وفي هذه الأثناء، وصل البرتغاليون إلى أطراف الجزيرة العربية وبدؤوا يغيرون عليها، فقد هاجموا عدن وقصفوها بالمدافع، واحتلوا جزر «قمران» في البحر الأحمر، وقتلوا عاملها من قبل الطاهريين، وهو محمد بن عبد العزيز بن سفيان، وهدفهم مكة والمدينة. وبدأ المماليك في مصر يرسلون الجيوش إلى تلك الجهات للوقوف في وجه البرتغاليين، وكان من أشهر قادتهم حسين الكردي الذي اهتم بأمر البرتغاليين. ومن المؤسف أن الأمراء المسلمين في جنوبي الجزيرة العربية لم يتعاونوا ضد البرتغاليين، أو

لم يعملوا سوية لقتال هؤلاء الأجانب المعتدين، فالطاهريون لم يساعدوا المماليك الذين جاءوا للوقوف في وجه البرتغاليين، والأئمة الزيود شجعوا المماليك ليعملوا ضد الطاهريين.

وصل حسين الكردي إلى جزر قمران، وطرد البرتغاليين منها عام ٩٢١، وشجّعه الأئمة الزيود ضد عامر بن عبد الوهاب، وفي الوقت نفسه فقد منع محمد بن نوح أمير الحديدة من قبل الطاهريين وصول المواد الغذائية إلى حسين الكردي في جزر قمران، كما أن سلطان الطاهريين قد رفض التعاون مع المماليك ضد البرتغاليين بل لم يكن الجواب مهذباً، فأثار ذلك حسين الكردي، ووقعت الحرب بين المماليك والطاهريين، وتوغَّل المماليك داخل اليمن، وجرت عدة معارك بين الجانبين كان أهمها على أبواب زبيد (معركة الرحب)، فرّ إثرها قادة الطاهريين، ودخل حسين الكردي زبيد وذلك عام ٩٢٢، وجاء السلطان نفسه على رأس جيش كبير، والتقى مع المماليك في معركة هزم أيضاً فيها، فانتقل إلى تعز، ومنها إلى المقرانة فصنعاء، وأخيراً جرت المعركة الأخيرة على أبواب صنعاء هي معركة الصافية التي قُتل فيها أخو السلطان، وهو عبد الملك بن عبد الوهاب، وفرّ السلطان الذي قبض عليه أحد الرجال، وسلمه إلى قائد المماليك الإسكندر بن محمد فقتله عام ٩٢٣ في ٢٣ ربيع الأول.

دخل المماليك صنعاء بعد معركة الصافية ثم اتجهوا شمالاً لحصار الإمام شرف الدين في (ثلا). وكان هذا النصر الذي أحرزه المماليك بسبب ما يملكونه من بنادق نارية، على حين لم يملك اليمنيون سوى السلاح الأبيض. وفي هذا الوقت هزم المماليك في بلاد الشام ومصر حيث دخل العثمانيون تلك الجهات، وهذا ما جعل المماليك في وضع غير ملائم فانسحبوا من صنعاء نحو تعز، ولم يصل الإسكندر بن محمد قائد المماليك إلى تعز إلا بصعوبة كبيرة بسبب قتال اليمنيين له، وهو منسحب بجيشه، وكان قائد تلك العمليات علي بن داود حيث بقيت قواته متمركزة في جنوب اليمن حتى جاء العثمانيون عام ٩٤٥.

طاهر بن تاج الدين

- [١] علي الظافر ٨٥٨ ـ ٨٧٠
- [٢] عامر المجاهد ٨٧٠ ـ ٨٨٣
  - يوسف
- [٣] عبد الوهاب المنصور ٨٨٣ ـ ٨٩٤
  - [٤] عامر «الظافر الثاني» ٨٩٤ ـ ٩٢٣

٣" ـ الأئمة الزيديون:

بقي سلطان الزيود محصوراً في الجهة الشمالية من اليمن، وإن تمكن أئمتهم في بعض الظروف من السيطرة على صنعاء وذمار في أيام المتوكل المطهر بن يحيى (٦٧٦ ـ ٦٩٧) وابنه المهدي محمد (٦٩٧ ـ ٧٢٨) وحتى أيام محمد بن الناصر (٨٦٦ ـ ٩٠٨)، وكانت الخلافات شبه دائمة بينهم وبين سلاطين بني رسول وبني طاهر. ولم ينتشر نفوذ الأئمة في المناطق الغربية والجنوبية أبداً وخاصة في هذه المرحلة من التاريخ.

ولم يكن هناك إمام واحد يلتقي حوله الزيديون جميعاً، وإنما كان يوجد أكثر من إمام في بعض الأحيان، وقد يختلف الأئمة بعضهم مع بعض، حيث لكل واحد منهم منطقة نفوذ وأتباع، كما حدث أيام الواثق المطهر بن محمد، والمؤيد يحيى بن حمزة، والمهدي علي بن صلاح، والداعي أحمد بن علي الفتحي، وكلهم في المدة المحصورة بين (٧٣٠ ـ ٧٥٠)، وقد تمر سنوات دون أن يقوم إمام من علماء الزيدية بالأمر وخاصة بعد هزيمة إمام أو إلقاء القبض عليه، أو قتله من قبل خصومه الرسوليين أو الطاهريين.

الإمام	الزمن	ملاحظات
١ ـ المهدي أحمد بن الحسين	٦٤٦ ـ ٦٥٦	حارب المظفر الرسولي
٢ ـ يحيى بن محمد السراجي	٦٥٦ ـ ٦٦٠	حارب المظفر الرسولي
٣ ـ الحسن بن بدر الدين	٦٦١ ـ ٦٧٠	
٤ ـ إبراهيم بن تاج الدين	٦٧٠ ـ ٦٧٤	وقع أسيراً بيد المظفر الرسولي ومات في السجن
٥ ـ المتوكل المطهر بن يحيى	٦٧٦ ـ ٦٩٧	حارب المظفر الرسولي، وولديه المؤيد والأشرف.
٦ ـ المهدي محمد بن المطهر	٦٩٧ ـ ٧٢٨	حارب المجاهد الرسولي واستولى على صنعاء، ولحج، وعدن
٧ ـ المؤيد يحيى بن حمزة	٧٢٩ ـ ٧٤٩	في أيام المطهر
٨ ـ الواثق المطهر بن محمد	٧٣٠ ـ ٧٥٠	وقام في عهده من الأئمة يحيى بن حمزة، وعلي بن صلاح، وأحمد بن علي الفتحي
٩ ـ المهدي علي بن محمد	٧٥٠ ـ ٧٧٣	
١٠ ـ الناصر صلاح الدين المهدي	٧٧٣ ـ ٧٩٣	
١١ ـ المنصور علي بن صلاح الدين	٧٩٣ ـ ٨٤٠	
١٢ ـ المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٧٩٣ ـ ٧٩٣	بويع بعد وفاة الناصر صلاح الدين غير أن المنصور عارضه وقبض عليه
١٣ ـ الهادي علي بن المؤيد	٧٩٦ ـ ٨٣٠	قام معارضاً للمنصور علي بن صلاح الدين
١٤ ـ المتوكل المطهر بن محمد الحمزي	٨٤٠ ـ ٨٧٩	عارضه المهدي صلاح بن علي (٨٤٠ ـ ٨٤٩)، والمنصور الناصر بن محمد (٨٤٠ ـ ٨٦٦)
١٥ ـ المؤيد محمد بن الناصر	٨٦٦ ـ ٩٠٨	حارب الظافر الطاهري، وعارضه الهادي عز الدين بن الحسن (٨٧٩ ـ ٩٠٠) وابنه الناصر الحسن (٩٠٠ ـ ٩٢٩). ومحمد بن علي الوشلي (٨٨٠ ـ ٩١٠)
١٦ ـ المتوكل يحيى شرف الدين بن المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٩١٢ ـ ٩٦٥	اعتزل بعد ذلك وقام ابنه المطهر

ويلاحظ في الجدول فترات انقطاع، كما يلاحظ قيام عدد من الأئمة في وقتٍ واحد.

الفصل الثالث

اليمامة

ضعف شأن اليمامة في العصر العباسي، وإن كانت الأنظار قد اتجهت إلى ما يدور على أرضها من تنقلات القرامطة، وما يعيثون من فساد في بقاعها، وقيام الدولة الأخيضرية، وأستطيع أن أقول: إنها كانت تحت نفوذ القرامطة إلى حدٍ ما، تفسح لهم المجال بالحركة في مناطق نفوذها شاءت بذلك أم كرهت، وكانت دولةً شيعية، ويدّعي القرامطة زوراً أنهم يمتون إلى التشيع بصلة. وما زال أمر القرامطة بالبحرين على يد العيونيين حتى انقرضت أيضاً دولة الأخيضريين في اليمامة.

ومع زوال دولة الأخيضريين فقد انعدمت السلطة التي تجمع أرجاء اليمامة ضمن نفوذ واحدٍ، وتفرّق شمل القبائل، واختلف بعضها مع بعض، وتنازع مشايخها وأمراؤها، فكانت السيطرة للأقوى، والقبيلة التي يقوى أمرها يمكنها أن تسيطر على رقعة واسعة، وقد تتغلب عليها أخرى، فينتهي نفوذ الأولى، وتعمّ سيطرة الأخرى، واستمر هذا حتى انتهى العصر العباسي عام ٦٥٦.

وجاءت المرحلة التي تلتها، والتي كانت الخلافة في القاهرة سواء أكانت صحيحة الانتماء إلى العباسيين أم لا، إلا أنها كانت اسميةً، وكان النفوذ، وكانت القوة للمماليك. وزاد أمر اليمامة ضعفاً، وعاش سكانها على هامش التاريخ، لا نعرف إلا القليل عن تلك المرحلة، إذ لم تسجل جزئيات عن حياة من يسمون أنفسهم الأمراء، والذين لم يكن نفوذهم ليمتد

إلى أبعد من حدود مدينة أو رقعةٍ صغيرة، كما لم تكن هناك أحداث مهمة تلفت نظر البعيد عن المنطقة، أو تهم المؤرخ ليقوم بتدوينها. ومع هذا الضعف فقد غدا عدد من الأمراء يتبع حكام البحرين في الشرق أو أشراف الحجاز في الغرب، فمن يتسع نفوذه وتقوى شوكته يمد سلطانه على عدد من شيوخ قبائل اليمامة، وقد يلتقي النفوذان في منطقة، ويقع الصدام بين الطرفين، أو تطلب قبيلة في الوسط دعماً من الأشراف أو الحكام لتنافس قبيلة أخرى أو لتتغلب عليها وتخضعها لسيطرتها، أو لتتخلص من سلطانها وطغيانها، فتقوم الثانية بطلب النجدة من الجهة الثانية، ويكون القتال.

واستمر هذا الوضع: اختلاف بين القبائل وأمرائها، وصراع بين البلدان، وتداخل من أشراف الحجاز أو حكام البحرين، واستمداد القوة من هذا الجانب أو ذاك الفريق طيلة هذه المرحلة التي ندرسها (٦٥٦ ـ ٩٢٣) بل استمر إلى ما بعدها حتى قويت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، وآزره أمير الدرعية محمد بن سعود فتغيّر الوضع، وتبدلت الحال، وقامت دولة، هي الدولة السعودية.

الفصل الرابع

البَحرَين

كانت تعني كلمة البحرين المنطقة الشرقية من جزيرة العرب، وتشمل باصطلاحنا اليوم جزءاً من الكويت، والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، والبحرين، وقطر، وقسماً من اتحاد الإمارات العربية، وقد خضعت هذه المنطقة لسيطرة القرامطة منذ نهاية القرن الثالث الهجري، فعاثوا في الأرض الفساد، وأفسدوا العقائد، وأساءوا إلى الحياة الاجتماعية. ولما جاء السلاجقة إلى حكم بغداد، وأنهوا نفوذ البويهيين فيها عام ٤٤٧، طمع عبد الله بن علي العيوني أحد رجالات بني عبد القيس في البحرين بالقضاء على القرامطة فيها، فطلب دعم السلاجقة له، فأرسلوا له أربعة آلاف مقاتل عام ٤٦٧، فاستطاع بذلك الدعم أن يقضي على القرامطة، وأن يؤسس دولته التي عرفت بالعيونية نسبةً إليه، أو نسبةً إلى بلدة العيون التي ينتمي إليها بالإحساء، واستمرت هذه الدولة حتى عام ٦٤٢، حيث خلفتها في الحكم أسرة بني عقيل.

تسلّم آل عصفور أحد بطون بني عقيل أمر منطقة البحرين عام ٦٥١، وبقي الحكم في أيديهم حتى عام ٧٠٥ حيث قام آل جروان، وهم أحد فروع بني مالك بن عامر أحد بطون بني عقيل أيضاً، ودام الوضع لهم في السلطة، حتى عام ٨٢١، إذ جاء بطن آخر، هم آل جبر، وكان أولهم سيف بن زامل الجبري الذي قتل آخر حاكم على البحرين من بني جروان، وهو إبراهيم، وقام مكانه، فسار في البلاد بالعدل، ووطّد الأمن، فخضع له السكان، ولما مات خلفه أخوه أجود بن زامل الذي اتسع سلطانه، وضمّ

إليه بلاد عُمان، ثم خلفه ابنه الأكبر مقرن، وبعد أن حكم مدةً اختلف مع إخوته الأربعة الباقين الأمر الذي ضعف معه شأن الدولة، وتفرّقت كلمتها، وقلّت هيبتها، فتمّ للبرتغاليين السيطرة على المنطقة بعد أن قتلوا الحاكم مقرن بن أجود عام ٩٢١، وسلّموا السلطة من بعده لأخيه علي الذي لم يدم له الأمر سوى شهر واحد، ثم أُقيم بعده ابن أخيه ناصر بن محمد، فحكم ثلاث سنوات، وخلفه ابن عمه قطن بن علي لمدة سنةٍ واحدةٍ، وتبعه ابنه عام ٩٢٥، وتلاه سلطان ابن عم أبيه غصيب بن زامل، فاستمر حتى عام ٩٢٧، ثم جاء مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري، الذي وقع القتال بينه وبين البرتغاليين مرة ثانية، رغم أن آل جبر كانوا يُسيّرون من قبل البرتغاليين، إلا أن البرتغاليين عادوا للقتال، وقصفوا مدينة المنامة، ودمّروا جزءاً منها، وكان الأمير يؤدي فريضة الحج فلما رجع وجد الحرب قائمة، فدخلها، ووقع أسيراً، ورغب أن يفدي نفسه، وعرض أموالاً طائلة غير أن البرتغاليين قد رفضوا ذلك، وقتلوه عام ٩٢٨. وتسلّم إمرة آل جبر مكانه غصيب بن هلال آخر حكام آل جبر.

عندما وقع الخلاف بين آل جبر استنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل لحمايتهم في القطيف، وهو من أسرة من بني عقيل أيضاً، كانت السيطرة لهم على البحرين في مطلع القرن السابع قبل مجيء آل جروان إلى حكم البحرين. فجاء راشد بن مغامس، ودخل القطيف، وولّى عليها أخاه محمداً، غير أنه ظلّ يدفع أتاوةً سنوية للبرتغاليين في هرمز. وفي عام ٩٣٥، استعان راشد بن مغامس بالبرتغاليين ضد أمير الحويزة، فأرسلوا له حملة تدعمه، لكنه عاد فاختلف مع قائد الحملة، فدمّر قائد الحملة بعض قرى البصرة ورجع. وعندما دخل العثمانيون العراق عام ٩٤١، أعلن راشد بن مغامس ولاءه لهم عام ٩٤٥، لكن لم تطل أيام الصفاء بينهما، فأعلن العثمانيون عام ٩٥٣ طرد الشيخ راشد من البصرة، وحكموها مباشرةً، وأعلن أهل القطيف تبعيتهم للعثمانيين ليحموا أنفسهم من البرتغاليين سنة ٩٥٧، واستنجد راشد بن مغامس وحاكم

هرمز بالبرتغاليين ضد العثمانيين، وجاءت قوة برتغالية مؤلفة من تسع عشرة سفينة، ومائتي وألف مقاتل، وتوجهت إلى القطيف، وهُزم العثمانيون، ولكن لم تلبث أن عادت القطيف إلى العثمانيين. وفي عام ٩٦٤ حاول البرتغاليون غزو البصرة، ولكن هبّت عاصفة فرّقت سفنهم، وحالت دون الغزو.

أما البرتغاليون فقد وصلوا إلى منطقة الخليج العربي، واستولوا على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ومنها انطلقوا إلى البحرين فزاروها أول مرة عام ٩٢١، ورأوا تفرّق حكامها من آل جبر، فقرروا غزوها، وسار إليها «بدوردي البوكرك»، وحاصر المنامة بناءً على أوامر عمّه نائب ملك البرتغال بالهند، وأخضعها لملك البرتغال، بعد أن تمكّن من قتل مقرن بن أجود الجبري عام ٩٢١ لأنه وقف في وجهه، وأصبح آل جبر يأخذون برأي البرتغاليين، ويخلع كل حاكم منهم إذا أراد الخروج عن رأيهم، وهكذا كان إخوة مقرن بن أجود. ورجع «بدور دي البوكرك» بعد ذلك إلى هرمز. ثم رجع البرتغاليون ثانيةً إلى البحرين عام ٩٢٨ بقوةٍ مؤلفةٍ من سبع سفن، عليها أربعمائة مقاتل، ومائتي مركب بقيادة «انطونيو دي كوريا» فاستولوا على المنامة بعد أن قصفوها، ودمّروا جزءاً منها، وقتلوا مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر من آل جبر بعد أن أسروه، كما مرّ معنا، وحكم غصيب بن زامل بن هلال البحرين بعد ذلك، وجاء الشيخ راشد بن مغامس فأخذه منه. وهكذا أصبح العثمانيون والبرتغاليون وجهاً لوجه في منطقة الخليج، كما كانوا في مدخل البحر الأحمر، وجنوبي الجزيرة، والمحيط الهندي، وسواحل بلاد الهند، وأصبح الصراع واسعاً.

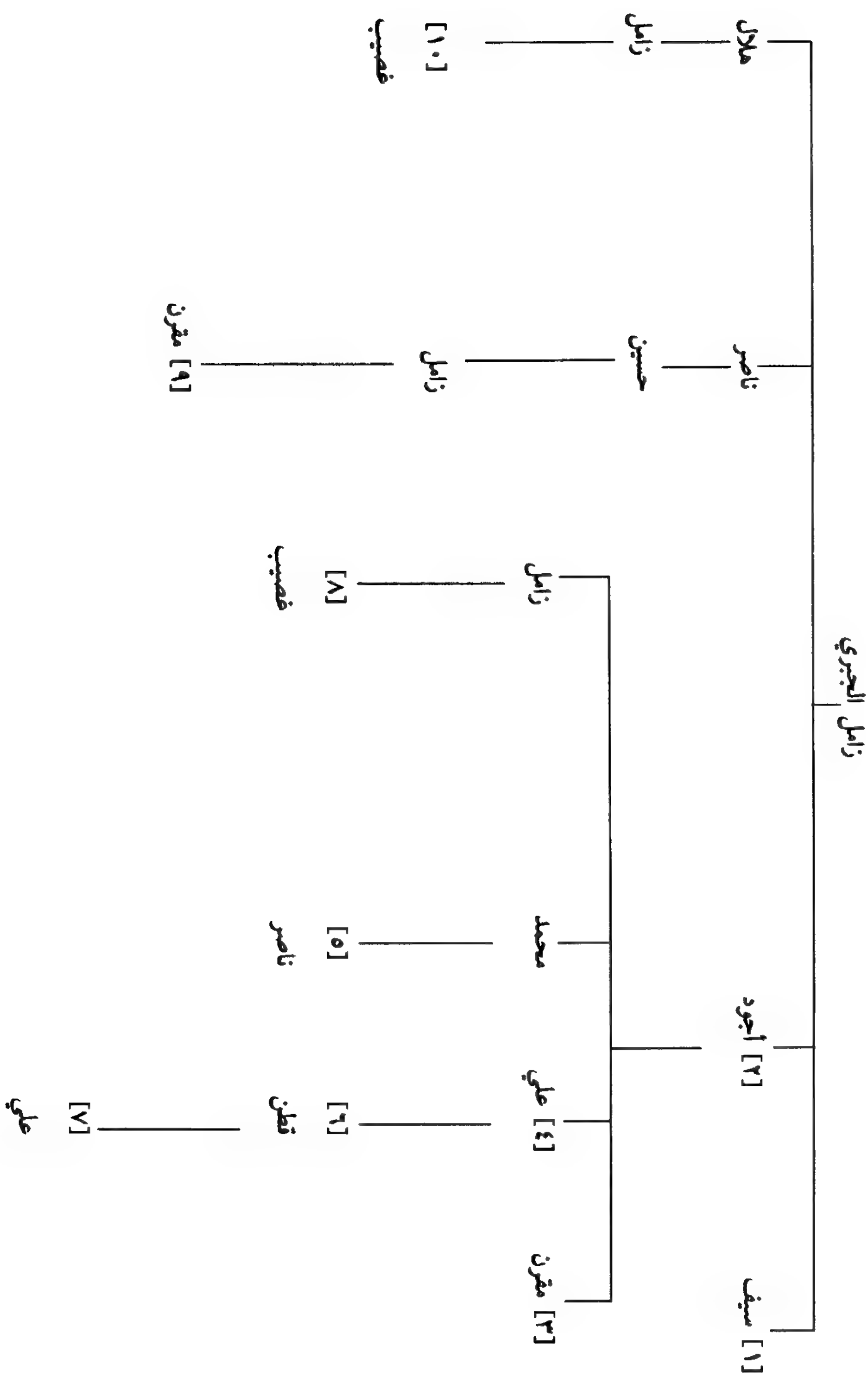
زامل الجبري
هلال
زامل
[١٠] قضيب
ناصر
حسين
زامل
[٩] مقرن
[٢] أجود
زامل
[٨] قضيب
محمد
[٥] ناصر
[٤] علي
[٦] قطن
[٧] علي
[٣] مقرن
[١] سيف

الفصل الخامس

عُمَان

قوي أمر الخوارج في عمان في عهد بني أمية، وانتشر بينهم رأي عبد الله بن أباض المتوفى عام ٨٦، وعندما سقطت دولة بني أمية بويع جُلندي بن مسعود إماماً على منطقة عمان عام ١٣٥، غير أن قوات أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس قد تمكنت من قتل جُلندي، وبسط نفوذ العباسيين على تلك الجهات.

وفي أيام الرشيد بايع العمانيون محمد بن عفان إماماً لهم، وبعد عامين عادوا فانتخبوا وارث بن كعب، وبعث الرشيد قوة لإخضاع عُمان، ولكنها هزمت قرب صحار، ووقع قائدها عيسى بن جعفر في الأسر، ولم يتمكن الرشيد من خضد شوكة أهل عمان.

وحاول القرامطة غزو عُمان مرتين أيام أبي سعيد الجنّابي، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك. ولم يعد للعباسيين نفوذ على عمان منذ نهاية القرن الرابع الهجري، وبدأ العمانيون بالانفصال عن الخلافة الإسلامية، وكانوا يختارون الأئمة من بينهم، غير أن الإمام ربما يُخلع، ويُختار غيره. ثم أصبح وراثياً بعد أن كان انتخاباً وذلك منذ منتصف القرن السادس عندما تسلّمت أسرة آل نبهان حكم عمان وذلك بحدود عام ٥٤٣، وبدأ نفوذ آل نبهان يمتد إلى شرقي إفريقية، وقد توطّد في «باتا» عام ٥٩٧، وبرز من آل نبهان قحطان ابن عمر الذي حكم عام ٦٧٠.

وضعف أمر بني نبهان، وخضع ساحل عمان لمملكة هرمز التي قامت

في مطلع القرن الثامن، بعد أن دمّرت غزوات المغول مدينة هرمز القديمة، فانتقل أهلها إلى جزيرة «جرون» المقابلة لمدينتهم المدمّرة، فعُرفت الجزيرة بعدئذٍ باسم «هرمز»، ونشطت التجارة فيها، وقامت فيها مملكة فرضت سيطرتها على الإمارات المجاورة من البحرين إلى عُمان، وزار الرحالة ابن بطوطة ملكها قطب الدين تمهتُن بن طوران شاه بين عامي ٧٣٠ و٧٣٢، ثم دبّ فيها الضعف، وأصبح ملكها يستنجد بأمير البحرين في وقت الشدة ضد أقربائه الطامعين بالسلطان، وقد استنجد السلطان «سرغل بن نورشاه» ملك هرمز بأمير البحرين ضد أخيه الذي نازعه الملك عام ٨٨٠. واستولى أمير البحرين أجود بن زامل على عمان من أميرها سليمان بن سليمان بن نبهان عام ٨٩٣، وقضى على الأسرة النبهانية التي كانت ضعيفة وتخضع لنفوذ ملك هرمز، وإن كان قد قوي أمرها قليلاً مع الضعف الذي اعترى مملكة هرمز، وولى على عمان أميراً من قبله هو عمر بن الخطاب الأباضي، أما داخل عمان الذي مقره (نزوى) فقد كان الأئمة يختارون، ويختلفون فيما بينهم، ويُخلع إمام، ويُقام مكانه آخر.

وعاد سليمان بن سليمان بن نبهان فخرج على الإمام أبي الحسن بن عبد السلام، واستولى على عُمان، غير أنه خُلع عام ٩٠٦، وانتخب مكانه محمد بن إسماعيل الخروصي الذي بقي إماماً حتى عام ٩٤٢، وفي أيامه غزا البرتغاليون عُمان، وخلفه ابنه عبد الله بن محمد الذي توفي عام ٩٦٩، وعادت القوة للأسرة النبهانية فقام سلطان بن المحسن بن سليمان الذي توفي عام ٩٧٣، وقد استطاع أن يملك نزوى في أيام الإمام بركات بن محمد، وتولى بعده ابنه مظفر، وأخوه الفلاح، ثم آل الأمر إلى سليمان بن مظفر الذي استطاع أن يخضع عُمان إليه، وتوفي عام ١٠١٩، فخلفه ابن عمه عرار بن الفلاح الذي كان ساعده الأيمن، واستمر حتى عام ١٠٢٤ حيث توفي، وقام مكانه مظفر بن سليمان واستمر في الحكم شهرين ثم توفي وقام اليعاربة بعدئذٍ.

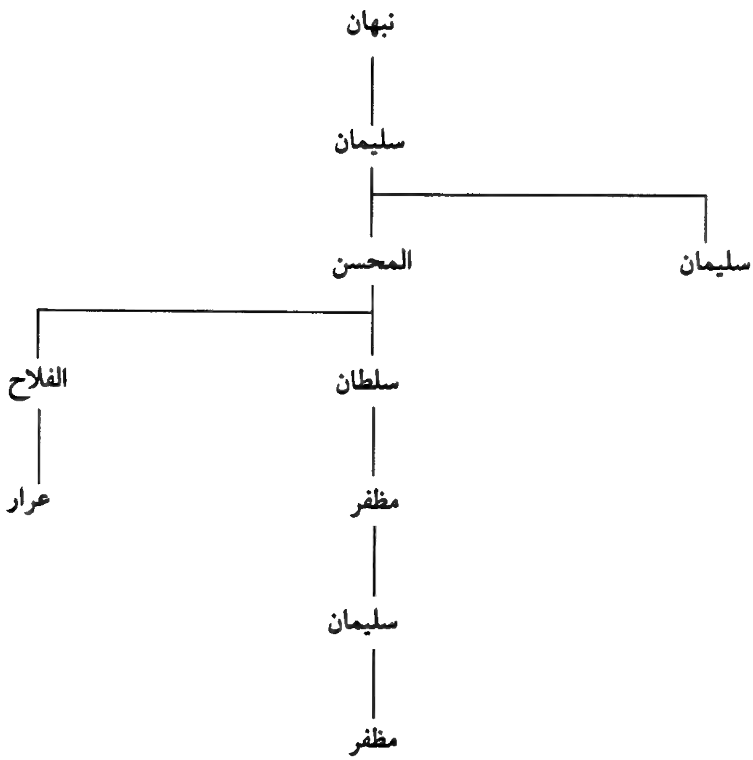

أما البرتغاليون فقد جاء «البوكرك» إلى الشرق عام ٩٠٩، وأقام بالهند، ورأى أن سيادة البرتغال على الطريق التجارية بين رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوبي إفريقية والهند تقضي باحتلال الموانئ التجارية كلها والواقعة على طول هذه الطريق، وقد سافر إلى البرتغال، وعرض خطته على ملكها، فوافق على ذلك وسدّ منافذ التجارة الإسلامية على البحر الأحمر والخليج العربي، كما أمر بتعيين «البوكرك» نائباً له على الهند.

عاد «البوكرك» إلى جنوب الجزيرة العربية عام ٩١٢، وبدأ بالاستيلاء على جزيرة سوقطرى عام ٩١٣، ثم هاجم عدن في العام نفسه، ولكنه فشل في احتلالها، فاتجه نحو الخليج، ومعه سبع سفن، وستون وأربعمائة مقاتل ومرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحد، وصور على ساحل عمان، ودمّر السفن الراسية في هذه الموانئ، وارتكب أبشع أنواع الجرائم ليرهب السكان، ثم سار إلى مدينة «قلهات» وطلب من حاكمها الاستسلام دون قيد أو شرط، فوافق الحاكم، وقدّم المساعدات للبوكرك، وعقد معه صلحاً،

ومع ذلك فلم تسلم المدينة من التدمير، وذلك لأن الروح الصليبية كانت تملأ نفوس البرتغاليين بل الأوربيين عامةً فلم يستطيعوا أن يروا مسلمين آمنين تحت سيطرتهم.

ثم سار «البوكرك» إلى مدينة «قرياط»، وكان عند أهلها استعداد للمقاومة، وربما أخذوا العبرة مما رأوا ما حلّ بأهل «قلهات»، فقصف البرتغاليون «قرياط»، فاستبسل السكان في الدفاع عن مدينتهم، ولكن ظهر تفوّق البرتغاليين، وغُلب الآمنون، فذبح البرتغاليون كل من وقع في أيديهم، ثم أحرقوا المدينة، وأخذوا عدداً من الأسرى بعد ذلك، ومثّلوا بهم ليشفوا منهم صدورهم المليئة بالحقد، فقطعوا الآذان، وجدعوا الأنوف، ثم أحرقوا السفن في الميناء، وتحرّكوا مع الساحل نحو الشمال الغربي.

وصل البوكرك مع حملته البرتغالية إلى مسقط، وسمع أهلها، ما أصاب مدينة «قرياط»، فحصّنوا مدينتهم احتياطاً، ولم يكن لديهم رغبة في قتال البرتغاليين، وأرسلوا وفداً إلى البوكرك للمفاوضة، ورجوه ألا يمسّ المدينة بسوء، ووافق السكان على كل طلبات البوكرك سوى الخضوع لملك البرتغال، وفي هذا الوقت وصلت إليهم مساعدات من هرمز فامتلأ البوكرك غيظاً على رفض طلب من مطالبه، وعلى المساعدات التي جاءتهم فأصلى المدينة بوابل نيرانه، وتمكّن من دخولها، وأعمل المهاجمون الجرائم الوحشية والمذابح في أهل المدينة، ثم دمّروا المساجد وأحرقوا المدينة، وانطلقوا بعدها نحو مدينة «صحار» ووافق حاكمها على طلبات البوكرك بعد تمنّع في الخضوع لملك البرتغال.

واتجه البرتغاليون إلى «خورفكان»، ورفض أهل المدينة الاستسلام، واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم، لكنهم هُزموا، فقبض البرتغاليون على من وقعت أيديهم عليهم، ومثّلوا بهم. ثم ساروا نحو قاعدة المملكة «هرمز» حيث كانت المدن السابقة كلها تتبع لها، وكان ملكها شاباً في الثانية عشرة، يُدعى سيف الدين، ويقوم بالوصاية عليه الشيخ خوجة

العطار، فجمع الملك والوصي ما استطاعا جمعه من المسلمين للدفاع عن الجزيرة، ورفضا الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، غير أن التفوّق البرتغالي أجبرهما على الخضوع بعد استبسالٍ كبيرٍ من السكان، ووافقا على دفع ضريبةٍ سنويةٍ مقدارها خمسة عشر ألف دينار أشرفي ذهباً، والخضوع لملك البرتغال، والسماح للبرتغاليين ببناء قلعة على الجزيرة.

ثار قادة «البوكرك» عليه، لما أصابهم من دفاع السكان واستبسالهم، ولما رأوا من الأعمال الوحشية رغم أنهم هم الذين قاموا بها، وقلوبهم ممتلئة حقداً على المسلمين، لكنهم احتجوا بها ليعللوا تمرّدهم، وقالوا: إن النفس البشرية لا تستطيع أن ترى هذه المشاهد، ومع كذبهم لتبرير عملهم فقد قرروا الرحيل إلى الهند، وهربت بالفعل سفينتان من سفن البرتغاليين.

رحل البوكرك إلى جزيرة سوقطرى قاعدته الرئيسية، فقوّى هناك الحامية فيها، وجاءه دعم من البرتغال، وبعد أن أقنع الجنود الذين معه بضرورة الانتقام من المسلمين، وبعد أن شحن النفوس بالحقد الصليبي عاد عام ٩١٤ إلى هرمز، ومرّ في طريقه على «قلهات» فانتقم من أهلها لأنهم ساعدوا هرمز سراً رغم ما حلّ بهم، ونهب المدينة، وحاول الغدر بحاكمها شريف الدين إذ دعاه إلى سفينة برتغالية للغدر به، غير أن شريف الدين أحسّ بما يُبيّته البوكرك له فاعتذر بلطف بحيث لا يدري البوكرك. غير أن الأوامر قد صدرت للبرتغاليين من قائدهم بهدم المسجد الجامع، وإحراق المدينة، وساروا بعدئذٍ إلى هرمز، ولما وصلوا إليها حاول البوكرك التأكد من استمرار الموافقة على الشروط السابقة، فأعلن ملك هرمز على موافقته على الشروط دون بناء القلعة، فحاصر الجزيرة وأراد الانتقام الشديد غير أن الأوامر قد جاءته من نائب ملك البرتغال بالهند برفع الحصار والتوجه إلى الهند فامتثل الأوامر، وعندما وصل إلى الهند عام ٩١٥ تولّى نيابة ملك البرتغال هناك خلفاً (لدي ألميدا).

رجع البوكرك عام ٩١٩ بالهجوم على البحر الأحمر، وهاجم عدن غير أنه فشل ثانيةً في دخولها، فسار إلى الخليج عام ٩٢١، ووصل إلى

هرمز، وألقى الحصار على الجزيرة، وقتل حاكمها بعد دخولها، وعيّن ابن أخيه (بدوردي البوكرك) قائداً لقلعة هرمز، ورجع إلى الهند، ولكنه هلك قبل أن يصل إليها. وتبدو الروح الصليبية في رسالة وجهها إلى ملك البرتغال يقول فيها: «إنه حيثما أمكنه العثور على عربي كان إفلاته من يده من المحال، وإنه كان يملأ المساجد بالمسلمين ثم يضرم النار فيها».

ورغم سفر البوكرك إلى الهند، ورفعه الحصار عن هرمز، ووفاته إلا أن ساحل عمان والخليج قد بقيا يخضعان للبرتغاليين، غير أن السكان والأمراء لم يكونوا راضين بهذا الخضوع، إلا أنهم مهزومون، لذا كانوا ينتظرون الظروف المناسبة للانقضاض على الأعداء، وربما كان ذلك الحقد الصليبي الذي يظهر على الغزاة البرتغاليين، واحتقار السكان، والازدراء، بالعقيدة الإسلامية. وبدأت الحركات ضد البرتغاليين عام ٩٢٨ حسب تعاليم شيخ هرمز بندر شاه، وقد بدأ هو بحرق المراكب البرتغالية في ميناء هرمز، ثم قتل الحامية البرتغالية القائمة في الجزيرة ليلاً، وقامت الحركة نفسها في بقية المراكز التجارية باستثناء حاكم مسقط الذي أعلن خضوعه للبرتغاليين بسبب التنافس أو الخلاف الذي كان بينه وبين حاكم هرمز، وهذا ما دعا إلى طلب البرتغاليين لمساعدات من الهند، فجاءت النجدة الأولى، وتعاونت مع حاكم مسقط الشيخ راشد، ثم جاءت النجدة الثانية عام ٩٢٩، وتمكن البرتغاليون من استعادة مركزهم عام ٩٣٠. وقامت حركة ثانية عام ٩٣٣ في هرمز، ومسقط، وقلهات وجاءت نجدات من الهند قمعت الحركة، واستعمل البرتغاليون أبشع وسائل القمع. وقامت حركة ثالثة عام ٩٣٦ في البحرين. وأخيراً استعان سكان المنطقة بإخوانهم العثمانيين لمقاومة البرتغاليين، وكان لهذا دوره في القضاء على النفوذ البرتغالي في المنطقة.

أما الصفويون في إيران فقد حاولوا التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين، وقد حاول هذا التفاهم أو إقامة حلف إسماعيل الصفوي عام ٩٢٠ ولكنه فشل لموت البوكرك عام ٩٢١، كما حاول ذلك عباس الصفوي فيما بعد.

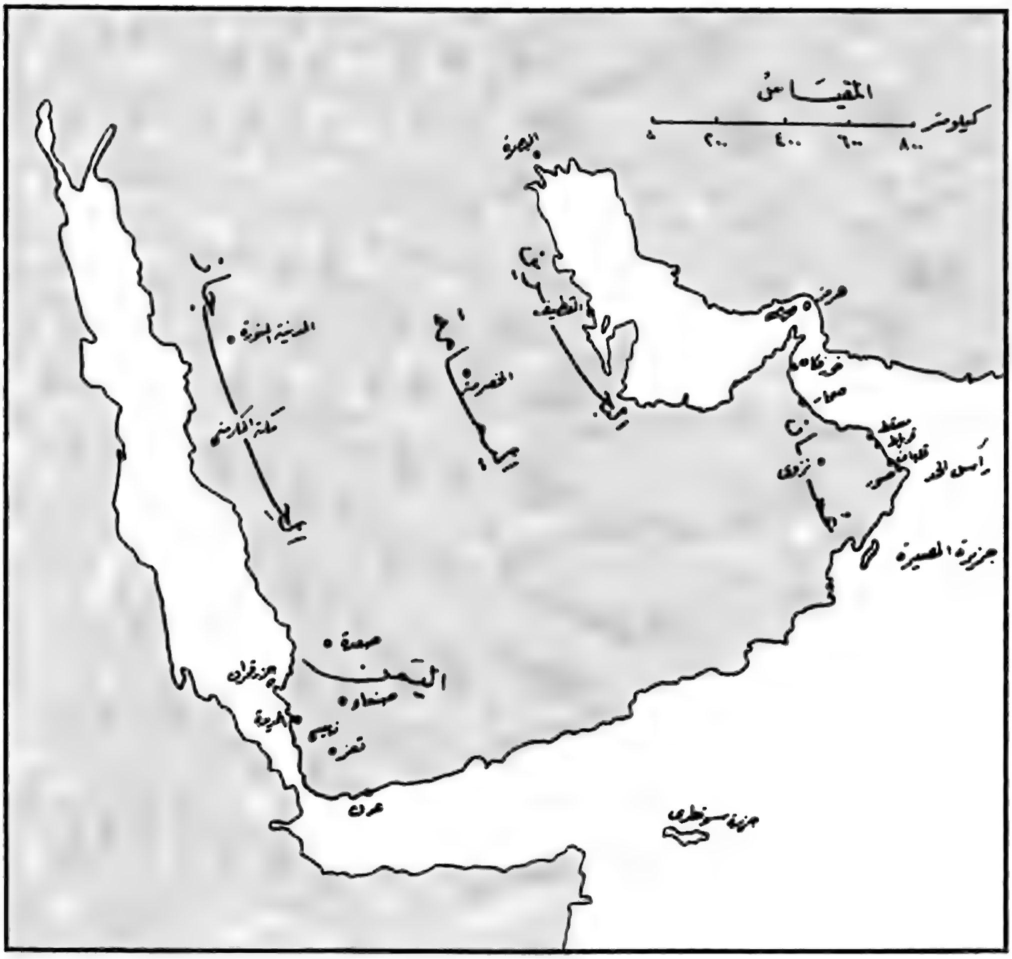
المقياس
كيلومتر
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
البصرة
القطيف
هرمز
خورفكان
صحار
مسقط
قريات
قلهات
صور
رأس الحد
نزوى
جزيرة المصيرة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
صعدة
اليمن
صنعاء
زبيد
تعز
عدن
جزيرة سقطرى

الباب الثالث

دولة المغول

ارتبط اسم المغول في أذهاننا بالبربرية والفظاظة، والقسوة والغلظة، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وتخريب المدن والقرى، وإبادة المزروعات، والإتيان على كل شيءٍ حتى يكون كالرميم وذلك نتيجة ما قام به هذا الشعب في أول أمره، وما لحقنا منه من أذى، وما أصاب حضارتنا من دمارٍ على يديه، وما نال مدننا من خراب في أثناء دخول أبنائه عليها حتى رفض ابن الأثير كتابة تلك الأحداث، إذ ظنّ أنها نعي الإسلام وانتهاء أمره على أيدي هؤلاء المخرّبين، غير أن هذا الشعب لم يلبث أن بدأ يدخل في الإسلام ولم ينقض على اجتياحه بلاد الإسلام بأكثر من خمس وثلاثين سنة، كما لم يمض نصف قرن حتى غدا كله مسلماً، وأصبح ينافح عن ديار الإسلام، ويقاتل أعداء المسلمين، فقد وقع القتال بين «بركة» الذي أسلم وبين ابن عمه «هولاكو» الطاغية الذي لا يزال وثنياً، ويعمل على دكّ معالم الحضارة الإسلامية، يخرّب الدور، ويحرق الكتب، ويروّع الآمنين، بل إن «بركة» هذا قد هزم «هولاكو» وتصادق مع ألد خصومه يومذاك، وهو السلطان الظاهر بيبرس زعيم المماليك الذين وقفوا في وجه المغول وهزموهم في «عين جالوت» عام٦٥٨، وقتلوا قائدهم «كتبغا» نائب هولاكو، ولم يصمد قبل المماليك أحد أمام المغول، وكان هذا كله سبباً في توقّف المدّ المغولي وكسر شوكته، وإخماد ذروته وحِدَّتها.

وإذا كان الشعب الغالب عادةً هو الذي يفرض سلطانه وحضارته على المغلوبين إلا أن حضارة المغلوبين هي التي سادت على الغالب هنا، إذ أن الغالبين لم يكونوا على شيءٍ من الحضارة، ويشعر المغلوبون أنهم الأعلون ما داموا من المؤمنين حيث كانت الروح الإيمانية لا تزال على شيءٍ من

العلو، فتأثر الغالب بالمغلوب، وتمثّل حضارته ثم تبناها وأخيراً ذاب في المجتمع الذي يعيش فيه.

واستمر المغول على إسلامهم، وبدؤوا يعملون على نشره، وخاصةً في بلاد الشمال، وبقوا على هذه الحالة حتى يومنا هذا، في الوقت الذي يلاقون فيه الاضطهاد من قبل المسيطرين عليهم من الروس فيعملون مستترين، وفي هذا الوقت الذي تخلّى فيه كثير من أتباع الإسلام عن دينهم، غير أن هذا العمل لم يُلفت إليه ولم تتغير الصورة السابقة عن المغول، تلك الصورة القاتمة التي رسخت في الأذهان قديماً، وبقيت راسخةً لم تتبدل لأنه لم يطرأ عليها شيء، مقترنةً بالوحشية وحشية الوحوش الهائجة المندفعة من الشرق.

لم يطرأ عندنا شيء على صورة المغول السابقة لأنهم ذابوا في المجتمع الذي نعيش فيه أو القريب منا، ذابوا تدريجياً فنُسوا، ولم يحدث منهم ما حدث في بلادٍ أخرى من بطولةٍ ودفاعٍ عن الإسلام ونشرٍ له.

ولم يطرأ عندنا تغيّر على صورة المغول السابقة لأنه قد أصابنا الضعف والوهن بعد اكتساحهم بغداد عام ٦٥٦، فلم نعد نعرف شيئاً خارجاً عن دائرتنا الضيّقة التي نعيش فيها بل بالأحرى لم نعد نعرف ما يحيط بنا، فتقوقعنا وانعزلنا، واقتصرنا على الأشياء الأساسية والضرورية في الحياة من تأمين الطعام والمأوى واللباس، ولا تؤمن هذه الأشياء، أيضاً إلا بكل نفس ذائقة الموت بحيث لا تدع معها وقتاً يفكر فيه المرء بغيرها.

لم يطرأ تغيّر على صورة المغول لأنه لم يكد ينسى الناس ما أصابهم على أيدي المغول، ولم يكد يشعر السكان بأن هؤلاء المغول قد ذابوا في المجتمع ودخلوا في الإسلام حتى فجأهم سيل جارف جديد من أبناء عم المغول أو من أبناء جلدتهم من التتار، سيل جارف لم يختلف عن الأول في شيء، جاء يحرق الأخضر واليابس، ويقتل الحاضر والباد، ويبيد كل ما وجد أمامه، وذلك على يد تيمورلنك، ولم يمض على السيل الأول أكثر من مائة سنة كثيراً، حيث لا تزال أحوال السيل المغولي الأول يذكرها

الناس، وتدور على ألسنة الجميع ينقل بعضهم إلى بعض مرارتها، وأهوالها. ولكن قد يكون هذا السيل في هذه المرة أشد وقعاً وأكثر إيلاماً من الأول، ذلك أنهم في المرة الأولى كانوا على الوثنية، وليس غريباً أن يأتي السوء من هؤلاء الوثنيين المتبربريين، وهم أعداء للإسلام، أما في هذه المرة فقد جاء وقد اعتنقوا الإسلام أو انتموا إليه، أو ادعوه على الأقل حتى لقد قيل: إن تيمورلنك كان يحمل معه مسجداً من الخشب يصلي فيه مع من معه كي لا تفوته صلاة الجماعة في المسجد، وهذا إن صحّ فإنما يدل على جهلٍ تامٍ بالإسلام إذ أن أجر صلاة الجماعة يتم بالجماعة وليس من الضروري أن يكون على صورة من الصور ترمز إلى المسجد. لقد جاء هؤلاء التتار يقاتلون المسلمين ويفعلون أشد ما فعل أسلافهم المغول، لقد كان تيمورلنك يُسرّ عندما تُبنى أهرامات أمامه من جماجم صرعى حروبه، أو كان يشعر بالراحة ـ على حد قولهم ـ عندما كان يُجبر نساء كبار أسراه أن يخدمن ضيوفه وهن عرايا، وبين الحضور أولئك الأسرى من الملوك والأمراء، وهذا ما فعله بالسلطان بايزيد العثماني عندما وقع في أسره حسب بعض الروايات. وما كانت حروب تيمورلنك بأكثرها إلا في بلاد المسلمين وما ذاق من وحشيته آخرون سوى المسلمين لذا فإن الصورة السابقة ترسخت بعد أن كاد يمحى منها شيء.

وربما كان من جملة أسباب الجهل بالمغول وتاريخهم وخاصةً بعد إسلامهم صعوبة أسمائهم ولفظها الغريب والمركب، ومما يزيد الأمر صعوبةً أن بعضها يترجم، وتذكر المصادر هذه الأسماء تارةً بالعربية مترجمةً وأخرى بالمغولية ويظنّ القارئ أن المسمّى لشخصين وهما لرجلٍ واحد. ثم تشابه هذه الأسماء.

ومن الأسباب الأخرى اختلاف الخانات بعضهم مع بعض وقتالهم، وتسلّم الواحد منهم أمر منطقة وهزيمته منها ثم عودته ثانيةً إليها، وهذا ما يجعل القارئ يضيع في خضم الأحداث والأسماء.

وكان من عادة المغول أن ينصّبوا في كل منطقةٍ أميراً ويتبع الخان،

لكن ليس غريباً أن يدّعي عدد منهم أنه الخان، فتكثر الخانات، ويضيع المرء بينهم أيّهم الخان وأيّ منهم الأمير و. . .

استمرت الصورة السابقة تدعمها اللاحقة مع الجهل الذي خيّم علينا والضعف الذي حلّ بنا، وعندما بدأت الصحوة الإسلامية تظهر في مجتمعاتنا صرف الأمر عن هذه الشعوب إلى معرفةٍ تقتصر على أجزاء ضيقة دعوها قوميات تارةً تكبر وأخرى تضمر حسب دعاة هذه العصبيات، وفي كلتا الحالين يبقى المغول خارج أطر هذه القوميات، . في منأى عن المعرفة التي يجب ألا تهمل منطقة دون أخرى من مناطق المسلمين، دون معرفة لسكانها، ومشكلاتها، والدعوة فيها، وما يعاني أهلها، وما يمكن أن يُقدم لهم من مساعدات.

ومما يساعد على عدم معرفة المغول والتتار وأحوالهم الحالية سيطرة الروس على بلادهم وجعلها جزءاً من الإمبراطورية الروسية الواسعة، فكانوا قلةً في خضم كثرة، ورقعة أرض صغيرة ضمن بلادٍ شاسعةٍ فضاعوا، وامحى أثر دولتهم هذه بالإضافة إلى أن الروس قد جزؤوا بلادهم إلى دويلات أطلقوا عليها جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتيٍ فتفرّقت كلمتهم فوق فرقتهم، وضاعت وحدتهم مع اضطهادٍ وحربٍ لكل ما هو مسلم أو يحمل معنى الإسلام.

الفصل الأول

دولة مغول الشمال

بعد أن اجتاح جنكيزخان ما اجتاحه من أرض، وشعر بالتعب، وأيقن بقرب الأجل، قسّم ما حصل عليه من البلاد على أولاده الأربعة من الزوجة الأولى على عادة المغول في أن الميراث ينحصر في أبناء أول امرأةٍ يقترن بها الرجل، وهي التي تعد ربة البيت وحدها دون سائر نسائه مهما بلغ عددهن، أو كانت مكانتهن، أو كثرت أموالهن.

أعطى جنكيزخان ابنه الكبير «جوجي» بلاد القفجاق، والداغستان، وخوارزم، وبلغار، وروسيا وما يمكن ضمه من ناحية الغرب إلى نهاية المعمورة.

وأعطى ابنه الثاني «جغطاي» بلاد الاويغور، وتركستان، وما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظةً على تعاليم أبيه المحصورة فيما عرف باسم «اليساق».

وأعطى ابنه الثالث «تولوي» بلاد خراسان، وفارس، وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين، وما يتبع تلك الجهات.

أما ابنه الرابع «أوغطاي» فقد أعطاه بلاد المغول، والصين، والخطا إلى منتهى المعمورة من ناحية الشرق، وجعله خليفته من بعده أي الخان الأعظم بالنسبة إلى المغول جميعاً وإلى أولاده حيث يرجعون إليه في أمورهم كافةً، ويُقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من مغانم وأسلاب.

غير أن هؤلاء الأبناء لم يبقوا على وفاقٍ رغم ارتباطهم بالخان الأعظم إذ أنهم مختلفو الطباع، متباينو الأطماع، وهذا ما جعل دولةً تقوم في بقعةٍ من هذه الأقسام، وإن تأخرت عن هذا التقسيم قليلاً حتى مضى عهد الإخوة الآباء الذين كانوا على شيءٍ من الارتباط بمقر الحكم «قره قورم» حيث يقيم الخان الأعظم إلا أن هذا قد ضعف عندما آل الأمر في كل منطقة إلى الأبناء الذين اتسعت رقعة الخلاف بينهم فوقع الصدام، وظهرت الدول المغولية المختلفة التي من الفائدة ذكر كلٍ منها على انفراد.

وتوفي جنكيزخان عام ٦٢٤ وذهب كل من أبنائه الأربعة بما حصل عليه.

مغول الشمال هم أسرة أبناء جوجي بن جنكيزخان، ولم تنقد هذه الأسرة لحكم الخان الأعظم منذ بداية الأمر أي منذ وفاة جنكيزخان، إذ توفي جوجي قبل أبيه، وتسلّم أمر المنطقة من بعده ابنه (باتو) أو أن جنكيزخان بنفسه سلّمه الأمر، ولم يكن (باتو) راضياً على تعيين عمه (اوغطاي) خاناً أعظم للمغول، كما كان باتو مميزاً بين أبناء عمومته، إذ يجب على المغول أن يرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم. وكان لباتو مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلاف مع الخان الأعظم وينافسه، وعندما توفي (كيوك) بن أوغطاي أي ابن عمه، وهو الخان الأعظم، نقل الخانية إلى أبناء عمه الآخر تولوي فعيّن بالقوة (مانكو) أخا هولاكو رغم عدم موافقة الكثيرين من المغول وخاصةً أبناء كيوك.

تعد هذه الأسر أول المغول في اعتناق الإسلام، إذ كان باتو يعطف على المسلمين، ويكره (كيوك) الخان الأعظم الذي تنصر، وأسلم (بركة) أخو (باتو) حوالي عام ٦٥٠، وعندما تسلّم خانية مغول الشمال عام ٦٥٢ أظهر تضامنه مع المسلمين، وقاتل ابن عمه هولاكو، وانتصر عليه، وراسل السلطان الظاهر بيبرس حاكم الدولة المملوكية في مصر وتحالف معه ضد هولاكو.

واستمرت الاتصالات بين المماليك ومغول الشمال كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في فارس والعراق وبلاد الجبل، وحتى أيام تيمورلنك، وإن كانت تضعف أحياناً عندما يتقرّب الإيلخانيون من الإسلام، وعلى كلٍّ لم يحدث خلاف أبداً بين المماليك وبين مغول الشمال، ونتيجة هذه الاتصالات فإن معرفتنا عن هذه الأسرة تزيد على معرفتنا على بقية أسر المغول التي قامت في تركستان، وبلاد ما وراء النهر، والصين رغم دخول هذه الأسر بالإسلام أيضاً، وإن كانت في مرحلة متأخرة نسبياً عن دخول مغول الشمال. وليس من أسرةٍ مغوليةٍ أكثر معرفةً عندنا من هذه الأسرة سوى الأسرة الإيلخانية لتوالي حروبها في العراق وبلاد الشام ومحاولة انتزاع بلاد الشام هذا بالإضافة إلى قرب منطقة حكمها من بلادنا.

اشتهر من خانات هذه الأسرة بركة خان الذي حكم (٦٥٢ ـ ٦٦٥) بصفته أول من أسلم، وبسبب مراسلاته مع السلطان الظاهر بيبرس، ومصاهرته له وحروبه للطاغية هولاكو، وانتصاره عليه، أو لانتصاره على ألد أعدائنا، وأكبر خصومنا، وأصعب من نال من حضارتنا. ومحمد أوزبك خان الذي حكم (٧١٢ ـ ٧٤٢)، وهو الذي تحدث عنه الرحالة ابن بطوطة. وتوقتاميش الذي حكم ٧٨٢ ـ ٧٩٨ والذي اشتهر بحروبه ضد تيمورلنك.

كان جوجي أكبر أبناء جنكيزخان، وكانت وظيفته المقررة له من قبل أبيه الصيد، وهي أحسن الوظائف عندهم. وكان نصيبه من ملك أبيه بلاد البلغار، والروس، والشركس، وخوارزم، والقفجاق، وما والاها، وكان بينه وبين أخويه جغطاي وأوغطاي ضغينة وبرودة دائماً. ولما استولى المغول على بلاد خوارزم عام ٦١٧ اتجه جوجي ومن معه نحو صحراء القفجاق، واشتغل بالصيد واللهو والنهب والسلب والإغارة على المناطق المجاورة، وقد تمكّن من دخول بعض البلدان، بعضها صلحاً وبعضها الآخر عنوةً، ثم استدعاه أبوه واهتم به كثيراً، وقد أظهر المحبة الزائدة لإخوته، وقدّم لهم

الهدايا مما حمله معه، ثم أعاده أبوه إلى المملكة التي خصّه بها فسار إليها، وما أن وصل إلى مقره حتى وافته منيته عام ٦٢٤، وذلك قبل وفاة أبيه بستة أشهر تقريباً. كان جوجي على ديانة آبائه وأجداده الوثنية، وكان يعيش على نمط حياة سكان صحراء القفجاق رغم ما بها من بساطة وسذاجة، ويرفق بأهالي تلك الجهات. وخلّف سبعة أولاد هم: أوردا، باتو، شوبان، بركة، جمتاي، بركجار، توقايتمر.

استمرت مملكة جوجي بيد أبنائه وأحفاده أكثر من ستة قرون، وإن تجزّأت، وتفرّق الأحفاد، وكان آخرها مملكة القرم التي زالت عام ١٢٩٨ على يد الروس. كما أن أبناء شوبان قد عُرفوا بالشيبانية، ثم عرفوا بالأوزبكية نسبة إلى أوزبك خان، وتوجد الآن جمهورية أوزبكستان في بلاد ما وراء النهر في تركستان تحمل هذا الاسم، وهي جزء اليوم من الامبراطورية الروسية، حيث تمكن أحفاد جوجي من انتزاع بلاد ما وراء النهر من أيدي أبناء تيمورلنك فيما بعد.

لما توفي جوجي استدعى جنكيزخان ولدي جوجي الكبيرين: أوردا، وباتو، فعزّاهما، ونصّب باتو على خانية صحراء القفجاق لما وجد فيه من ميزات تؤهله لذلك، ووافقه على مشروع أبيه في غزو بلاد الروس، وطلب منهما العودة، وما أن رجعا، وبدأ باتو يستعد للقيام بالغزو حتى جاءه خبر وفاة جدّه جنكيزخان، فاتجه نحو بلاد المغول للتعزية، ولتنصيب عمّه (أوغطاي) أو لبحث شؤون الملك، وكلّف أخاه الأصغر «توقايتمر» بمهمات الملك مكانه.

كان من عادة المغول ألا يجلس الخان على سرير الملك بعد وفاة سلفه مباشرةً وإنما لا بدّ من مرور مدة تتناسب مع شخصية المتوفى، وقد استمر «أوغطاي» مدة سنتين دون تسلّم السلطة، وبعد انقضاء هذه المدة تجمّع أولاد جنكيزخان وأحفاده وكبار الأسرة لهذا الغرض، وبعد الانتهاء من إجلاس «أوغطاي» على سرير الخانية العظمى والاحتفال بذلك، سارت الأسرة كاملةً لقتال بعض ملوك الصين الذين أعلنوا العصيان بعد موت

جنكيزخان، وقد تمّ لهم النصر، ولما عادوا من حربهم هذا رأى الخان الأعظم «أوغطاي» أن يتمّ ما نواه أخوه جوجي قبل موته من محاربة بلاد الروس والبلغار، فجهز جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً أعطاه لابن أخيه باتو وجعل معه ولدي أخويه الآخرين إضافةً إلى ابنه كيوك وكان ولدا أخويه مانكو بن تولوي وبايدار بن جغطاي، وكانت القيادة العامة لباتو بن جوجي، وسار الجيش إلى مقر ملك باتو حيث وفادة ضيوفه، ثم تجهّز للقتال عام ٦٣٣، واستطاع أن يضم إليه بلاد بلغار بعد أن استسلم أميرها «الهام خان»، ومشى معه لقتال الروس عام ٦٣٥، وكان الروس متفرقين فانتصر المغول، ودخلوا بلاد الروس جميعها تقريباً، ثم عادوا وفي طريق عودتهم دخلوا خاركوف عام ٦٣٧، ثم وجه ابن عمه مانجو بن تولوي إلى كييف فدخلها.

دخل باتو منطقة بسارابيا والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ونكبوها ثم اتجه نحو كرواتيا، وبلاد البوسنة، وألبانيا، ووصل إلى تَخوم مملكة النمسا، فذعرت أوربا، وكان إمبراطور ألمانيا فريدريك أشدّ ملوك أوربا خوفاً، وهو الذي صالح الملك الأيوبي الكامل وتسلّم القدس. غير أن هجوم التتار هذا قد جعل السكان ينسون الحقد الصليبي مؤقتاً ليستعدوا للقاء التتار، وحاول الحكام أن يبقى أهل البلدان في مناطقهم فلا يخرجون إلى الصيد الذي اعتادوا أن يذهبوا في كل عام على سواحل إنكلترا، ولا يتجهوا إلى الحروب الصليبية فإن ما هم فيه يُشغلهم عما يهدفون إليه، وأرسل باتو ابن عمه بايدار بن جغطاي لقتال الألمان فالتقى الطرفان في مورافيا، وانتصر الألمان، وهُزم التتار، ومات بايدار غمّاً، وتعبت الجيوش التتارية، ومات أوغطاي خان التتار، وهذا كله جعل باتو يترك الحرب في أوربا.

خلف (أوغطاي) ابنه كيوك عام ٦٤٤، واحتفل بتسلّمه منصب الخانية العظمى للتتار بعد مرور سنةٍ على وفاة أبيه، وحضر الاحتفال ملوك الدنيا حتى جاء المسلمون لحضور هذا الاحتفال فقد حضر من جهة الخليفة العباسي ببغداد قاضي القضاة فخر الدين، وجاء من الشام أمير يمثّل الأيوبيين هو أخو صاحب حلب الملك الناصر، ومن قونية جاء الأمير ركن

الدين مُمثلاً للسلاجقة كما جاء من تركستان، ومن بلاد ما وراء النهر، ومن بلاد الخطا هذا إضافة من جاء من النصارى، ومن يمثّل البابا. غير أن باتو لم يحضر هذا الاحتفال متعلّلاً بمرض في رجليه، وأرسل نائباً عنه أخاه بركة، ويبدو أنه كان غير راض على هذا التعيين فهو أكبر منه سناً، وكان تحت إمرته في حروبه ضدّ الروس، ويرى بنفسه الأكثر كفئاً، وأبوه جوجي كان أكبر من أبيه أوغطاي أيضاً، هذا بالإضافة إلى ما كان بين الآباء من جفوة. كان كيوك عند ابن عمه باتو مشغولاً بحرب الروس عندما آل الأمر إليه فسيّرت أعمال الملك مكانه أمه «توراكينا» حتى عاد. وكان لغياب باتو عن هذا الاحتفال أثر واضح في نفس كيوك فظهر ما كان مخفياً، وكان كيوك قد اعتنق النصرانية تحت تأثير أحد أعوانه، أو مربيه النصراني «قداق خان»، وانتشرت أعداد من الرهبان والقساوسة في بلاد المغول، وكانوا جميعاً يحرّضون «كيوك» ضد ابن عمه باتو الذي كان لا يكره المسلمين إن لم يكن يحبهم حيث التجأ عدد منهم إليه، وذلك تحت تأثير «رسالة» ابنة خوارزم شاه، وهي أخت جلال الدين، وقد وقعت في أسر التتار وتزوجها جوجي بن جنكيزخان فكان لها تأثير في بيته حيث تربى باتو، وبركة وغيرهما من أبناء جوجي بن جنكيزخان. وتحت تحريض القسيسين والرهبان النصارى لكيوك ضد باتو لعزله والاستيلاء على بلاده الأمر الذي أوقع الخلاف بين ولدي العمّ، وأرسل كيوك فرقةً إلى أطراف بلاد باتو للاعتداء وحمل عمال باتو إليه، ووصلت هذه الفرقة إلى أذربيجان، وطلبت من عمال باتو السير إلى الخان الأعظم، فلم يكن لهم من رأي سوى طاعة الخان الأعظم، ولكنهم أخبروا باتو، وجاء الجواب بالقبض على هذه الفرقة فقام أنصار العمال فقبضوا على رجال الفرقة، وأطلقوا سراح عمّالهم، وحُمل رجال فرقة كيوك إلى باتو، فقُتل رؤساؤهم، وعندما وصل الخبر إلى كيوك تألّم كثيراً وجهّز جيشاً لقتال باتو، ووجّهه إليه، وقبل أن يلتقي الطرفان في أية معركةٍ مات الخان كيوك، وذلك عام ٦٤٧، فاضطرب أمر جنده، وراسلوا باتو وأخبروه بموت كيوك، وأن مسيرهم إنما كان لقتال الروس وليس هدفهم باتو والنيل منه، وأنه أولى الناس الآن بتسلّم الخانية

العظمى فهو أكبر أحفاد جنكيزخان، وأكثرهم خبرةً، وأرجحهم رأياً، إلا أنه رفض ذلك، ورشّح مانكو بن تولوي، ابن عمه، وتأخّر تنصيبه ما يقرب من سنتين، غير أن باتو قد طلب من أخيه بركة الذي أرسله معه إلى بلاد المغول لتنصيبه، إتمام ذلك الأمر، وإعدام من يخالف، وكان أولاد كيوك قد أظهروا شيئاً من المعاندة، فنصّبه بركة، وعاد إلى أخيه باتو، وهكذا انتقلت الخانية العظمى من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي» عام ٦٤٨.

توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠، وخلفه ابنه صرتق، وكان عند الخان الأعظم مانكو، فنصّبه مانكو، وأعاده إلى مملكته، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى توفي، فخلفه عمه بركة بن جوجي لأن بقية أبناء باتو كانوا صغاراً وبالتالي أبناء صرتق.

تولى خانية المغول في صحراء القفقاس عام ٦٥٣ أبو المعالي ناصر الدين بركة خان، ويُعدّ أول من أسلم من أبناء جنكيزخان، وكان إسلامه عند عودته من بلاده بعد أن أرسله أخوه باتو لإجلاس مانكو بن تولوي على كرسي خانية المغول العظمى، وفي أثناء هذه العودة مرّ على مدينة بخارى فالتقى فيها بأحد العلماء فاعتنق الإسلام، ويمكن أن نقول: إن عند بركة خان خلفية عن الإسلام سابقة على ما يبدو وربما كانت من بيته الذي نشأ فيه حيث كانت تعيش فيه رسالة بنت خوارزمشاه كزوجة لأبيه جوجي، فعاد إلى بلاده إذن مسلماً، وعندما تولى أمر المغول في تلك الجهات كان مسلماً. وعندما صار في الملك أسلم معه عدد كبير من قومه، وعدّ نفسه حامي القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والدين، وراسل الخليفة المستعصم في بغداد وبايعه وهاداه. ودعا العلماء من كل جهة ليفقهوا الناس في الدين، وأغدق عليهم من المال الكثير. وأكمل بناء مدينة «سراي» وكان قد بدأ بها أخوه باتو سنة ٦٤٠، وأكملها بركة خان، وقد وصفها المؤرخون وأطنبوا في وصفها وحسنها فقال ابن عرب شاه وكان قد أقام بها عدة سنين، وتزوج فيها وأنجب: «وتخت الدشت سراي وهي مدينة إسلامية البنيان، بديعة الأركان، وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها

واتخذها داراً للملك، واصطفاها، وكانت من أعظم المدن وضعاً وأكثرها للخلق جمعاً، حكي أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق، وسكن في مكان مُنحّى عن الطريق، وفتح له حانوتاً يتسبّب فيه ويُحصّل قوتاً، واستمر ذلك المهين نحواً من عشر سنين لم يُصادفه فيه مولاه، ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك لعظمتها وكثرة أممها، وهي على شط متشعب من نهر اتل الذي أجمع السياحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الأنهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه». وقال أيضاً: «ولما تشرّف بركة خان بخلعه الإسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنيف الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشائخ من الآفاق والأكناف، ليوقّفوا الناس على معالم دينهم، ويبصّروهم على طريق توحيدهم ويقينهم، وبذل على ذلك الرغباب، وأفاض على الوافدين منهم بحر الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند أوزبك خان بعده وجاني بك خان مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا أحمد الخجندي، رحمهم الله تعالى، فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأدباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلةٍ، وخصلةٍ نبيلةٍ جميلةٍ، في مدةٍ قليةٍ، ما لم يجتمع في سواها، ولا في مصر ولا في قراها»[1].

وقال ابن فضل الله العمري: «وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أن مدينة سراي بناها بركة خان على شط نهر اتل[2]، وهي أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم،

---

(١) عجائب المقدور في أخبار تيمور ـ أحمد بن محمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى عام ٨٥٤.

(٢) نهر اتل: نهر الفولغا.

على عليائه هلال ذهب زنته قنطاران بالمصري، ويُحيط بالقصر سور وأبراج ومساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهم، قال: وهذا النهر قدر النيل ثلاث مرات وأكبر، ويجري فيها السفن الكبار، يسافر بها إلى الروس والصقلب، قال: وهي يعني السراي مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات، ووجوه بر مقصودة بالأجلاب، في وسطها بركة ماؤها من هذا النهر، ويستعمل ماؤها للاستعمال، وأما شربهم فمن النهر، يستقى لهم في جرار فخار، وتصف على العجلات، وتجر إلى المدينة وتباع[1]».

وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة فكتب عنها: «ومدينة السراي من أحسن المدن، متناهية في الكبر، في بسيط من الأرض، تغصّ بأهلها كثرةً، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع، وركبنا يوماً مع بعض كبرائها، وغرضنا التطوّف عليها، ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرفٍ منها، فركبنا منه غدوةً فما وصلنا إلى آخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر، وأكلنا طعاماً فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يوماً عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين. وفيها ثلاثة عشرة مسجداً لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً، وفيها طوائف من الناس منهم المغول وهم أهل البلاد والسلاطين، وبعضهم مسلمون: ومنهم الاص (اللزكي) وهم مسلمون، ومنهم القفجاق والجركس والروس والروم وهم نصارى، وكل طائفة تسكن محلةً على حدة، فيها أسواقها، والتجار والغرباء من العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار، وقصر السلطان بها يسمى (آلتون طاش)[2]».

وما أن تسلم السلطنة بركة خان حتى وقع الخلاف بينه وبين ابن عمه هولاكو بن تولوي، ويعود السبب إلى أن بركة خان كان مسلماً صديقاً

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى عام ٧٤٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة.

للخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد، ويحامي عن المسلمين على حين كان هولاكو وثنياً عدواً للمسلمين. فلما تولّى مانكو أمر المغول بجهود باتو، حسّن هولاكو لأخيه مانكو الاستيلاء على أملاك الخليفة العباسي والسيطرة على بغداد، والقضاء على فرقة الحشاشين الملاحدة من الإسماعيليين بعد أن زادت تعدّياتهم في بلاد قزوين والجبل، وانطلقت وفود من هذه البلاد تطلب من الخان الأعظم قتالهم. واقتنع مانكو خان بفكرة أخيه فجهّز له جيشاً كبيراً وسيّره إلى الغرب لدخول بلاد الخليفة فوصل الخبر إلى بركة خان فصعب عليه ذلك فتوسّل لدى أخيه باتو خان بمنع ذلك الأمر، وقال له: «إننا نحن الذين أقمنا مانكو خان وما جزانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويخفر ذمتنا، ويتعرّض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي، وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفي هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة، وقبّح فعله ذلك على أخيه باتو» فبعث باتو إلى هولاكو بالنهي عن ذلك وأنه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل أن ينفصل بالعساكر، فما عبره، وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين امتثالاً لأمره حتى مات باتو(١). ولما تولى صرتق خان بعث هولاكو إلى أخيه مانكو خان يستأذنه في السير إلى الغرب وإمضاء ما كان أمره به، فأذن له فسار فأوقع بفرقة الحشّاشين، واستولى على قلاعهم ونكّل بهم، واتجه نحو بغداد.

كان بركة خان قد تسلّم السلطنة وأراد أن يحول دون سير هولاكو نحو بغداد بالقوة، غير أن جنوده يمكن ألا يُطيعوه في قتال هولاكو إذ أن قتالهم له مخالفة لأوامر الخان الأعظم مانكو إذ هو الذي سيّره، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى فإن القتال خلاف لـ (يساق) جنكيزخان الذي لا يزال راسخاً في نفوس الكثيرين منهم، وهم لا يزالون على وثنية المغول ومن

---

(١) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار م.م. الرمزي أورنبورغ ١٣٢٥هـ.

أسلم منهم قليل فلا يمكن لبركة خان أن يطالبهم بالدفاع عن ديار المسلمين والخليفة لذا أحب بركة خان أن يتحرّش بابن عمه هولاكو حتى يكون هو المعتدي فعندئذٍ يمكن لجنود بركة خان أن يقفوا في وجه هولاكو ويقاتلوه.

طالب بركة خان ابن عمه هولاكو بأعمال «تبريز» و «مراغه» إذ أنها ضمن أملاكه، وقد تعدى عليها جنود هولاكو، وعدّه متجنياً على بلاده ومتعدياً على حدوده، ثم طالبه بإرسال جزء من الغنائم التي جرت العادة أن يرسلها المغول إلى باتو خان، إذ كانوا يرسلون جزءاً مما يغنمون إلى الخان الأعظم كما يبعثون بقسم إلى باتوخان بصفته أكبر أفراد أسرة جنكيزخان، وشدّد بركة خان بالمطالبة، وفي هذه الأثناء كان هولاكو قد دخل بغداد وقتل الخليفة، وأحرق عاصمته، وأعمل فيها الخراب والقتل، وزادت نقمة بركة خان على هولاكو عندما قتل رسله، واتجه هولاكو نحو بلاد بركة خان، والتقى الطرفان، وانتصرت جيوش بركة خان، وانهزم جيش هولاكو بعد أن فقد قسماً كبيراً منه ولم يتوقف القتل في أفراده حتى اجتازوا نهر «كورا» بين الطرفين، وكان ذلك عام ٦٦٠، وربما وقعت معارك بين الطرفين قبل سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦، وفي ذي الحجة من عام ٦٦٠ أعاد (تاباي نويان) قائد جيش هولاكو الهجوم على جيش بركة خان بقيادة (نوغاي) فانهزم نوغاي، وأرسل هولاكو نجدة إلى جنده بعد هذا النصر الذي أحرزه، وكان فيه معظم الأمراء ومنهم ابنه أباقا، وهاجموا جند بركة خان في دربنت (باب الأبواب) فأزالوهم عن مواقعهم وذلك في محرم من عام ٦٦١، وفي غرة صفر تابع جيش هولاكو أعداءه فجاءه بركة خان بجيش عظيم بعد أن قطعوا نهر ترك فانهزم جيش هولاكو، وولى الأدبار من بقي منه بإمرة أباقا بن هولاكو.

ولم يكن عمل بركة خان مقتصراً على قتال هولاكو بل أراد عملاً أوسع من هذا بكثير إذ رغب في إنهاء دولة المغول الوثنية التي يقودها مانكو بالتفرقة بين أفراد البيت الحاكم ثم السيطرة عليها ونشر الإسلام فيها. فعندما جهّز هولاكو جيشاً قوامه أربعمائة ألف واتجه نحو بلاد الشام يريد

دخولها وغزو مصر وقد تمكن فعلاً من دخول بلاد الشام، وفي هذه الأثناء، خرج بعض ملوك بلاد الخطا عن طاعة مانكو خان فسار إليه لتأديبه وأخذ معه أخاه قبلاي، واستخلف مكانه أخاه الأصغر أرتق بوكا، وفي أثناء ذلك توفي مانكو خان، واتفق الجند والأمراء على إجلاس أخيه قبلاي مكانه، فاغتنم هذه الفرصة بركة خان وأرسل قيدو بن قاشين بن أوغطاي مع قوةٍ إلى أرتق بوكا، وأفهمه أن حق الخانية له وليس لقبلاي، وقد اختارك مانكوخان لها، واستخلفك مكانه، وحرّضه على المطالبة بحقه، وإمكانية دعمه بقوة إذا طلب ذلك، فبدأ أرتق بوكا يدعو لنفسه، ووافقه من معه من الجند، ووصل الخبر إلى قبلاي فرجع بمن معه والتقى بأرتق بوكا ومن معه وجرى القتال بين الطرفين عام ٦٥٨، واستمر عدة سنوات، وكان هولاكو في بلاد الشام عندما بلغه أخبار ما يحدث في مقر حكم المغول فترك جيشه بإمرة كتبغا الذي هُزم في عين جالوت أمام المماليك وقُتل. وانطلق هولاكو نحو قراقورم حاضرة المغول، ولم يتمكن من عمل شيء غير أنه استطاع أن يعيد أبناء أوغطاي إلى طاعة الخان بالترغيب وإظهار المحبة. وانتهى القتال بين الأخوين، وجلس على كرسي الخانية قبلاي، إلا أن هذا لم يُرض هولاكو إذ كان حاقداً جداً على ابن عمه بركة خان الذي أثار هذا الخلاف، وحرّض أولاد أوغطاي على خلع طاعة الخان، ومما زاد من حقده إخباره بهزيمة جيشه أمام المماليك في عين جالوت، ومقتل قائده كتبغا، لذا قرر العودة ومحاربة بركة خان، والانتقام من المماليك بحرب خاطفة.

عاد هولاكو إلى بلاده، وإذ برسل بركة خان يطالبونه بنصيبهم من الأسلاب وما حصل عليه في حروبه أو بثلث ذلك حسبما فرضه جنكيزخان لهم، وشدّدوا في المطالبة فثارت عنده العصبية، وقتل الرسل، وسار لحرب بركة خان، وجرت الحروب التي ذكرناها بين الطرفين في نهاية عام ٦٦٠ ومطلع العام التالي ٦٦١، وانتهت بهزيمة جيوش هولاكو وفرار ابنه.

وعندما سيّر مانكو أخاه هولاكو إلى الغرب جعل معه أمراء من أبناء

عمومته من أولاد جوجي وجغطاي وأوغطاي، وكانت معه قوات أيضاً من مغول الشمال جنود بركة خان، فلما وقع الخلاف بين بركة خان وهولاكو طلب بركة خان من قواته الالتحاق به ومغادرة جيوش هولاكو، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فطلب منهم ثانيةً التوجه إلى الشام، وكان هولاكو قد دخل بغداد وبلاد الشام، ورجع إلى بلاده من أجل اختيار الخان الأعظم للمغول بعد وفاة أخيه مانكو، فلما عاد، وكانت جيوشه قد هُزمت في بلاد الشام عام ٦٥٨ على يد المماليك، وقُتل قائده كتبغا، ووقع القتال بينه وبين ابن عمه بركة خان، تركت قوات بركة خان التي عند هولاكو جيشه وسارت إلى بلاد الشام، فاستقبلت في دمشق استقبالاً عظيماً في ذي القعدة من عام ٦٦٠، وكذلك في مصر وقد كان السلطان الظاهر بيبرس في استقبالهم، وعددهم حوالي مائتين وهم الذين استطاعوا الفرار من معسكر هولاكو. ولما أكرمهم السلطان إكراماً كثيراً، ووصلت أخبار ذلك الإكرام إلى جند هولاكو صارت جماعات منهم تغادر إلى مصر، ويزيد السلطان في إكرامهم، وقد تكررت عملية الانتقال أو الفرار ثلاث مرات، وقد عرض عليهم السلطان الإسلام فأسلموا وأصبحوا أعداءً للمغول، كل هذا والحروب دائرة بين الملك بركة خان وابن عمه هولاكو.

ولعل مما أوقد نار الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولاكو كتب الظاهر بيبرس ورسله إلى بركة خان وإن اختلف بعض المؤرخين فيمن كان الأسبق منهما بالمراسلة، إذ لما علم الظاهر بيبرس بإسلام بركة خان كتب إليه يستحثه على معاداة ابن عمه هولاكو الذي يقاتل المسلمين، ويُنكّل بهم، وأنه لا أثر للقرابة فإن قريشاً قد قاتلت رسول الله ﷺ وهو من أفضل أبنائها، وأن هولاكو قد تعصّب لزوجته النصرانية، وهي التي حرّضته على قتل المسلمين، فزاد من أمر الخلاف، وعندما اجتاز هولاكو نهر كورا وهو الحد الفاصل بين مملكة بركة خان ومملكة هولاكو تصدّت له جيوش بركة وتمّ ما تمّ وكذلك فإن مراغة وتبريز كانت من أعمال بركة خان، وما دخلها هولاكو إلا عندما تقدّم في مملكة بركة خان، ولذا بقي بركة خان يطالب بها.

وبهزيمة هولاكو أمام بركة خان، وبفرار أعدادٍ من جنده إلى بلاد الشام ومصر إلى عند خصمه الآخر الظاهر بيبرس، وبدخول هؤلاء الفارين بالإسلام أصيب هولاكو بمرض الصرع، وتوفي في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣، ويقول بعض المؤرخين إن عداوته للإسلام قد خفت في أواخر حياته، بل قد عهد لبعض المربين المسلمين بتنشئة ابنه تكودار فكان ذلك سبب إسلامه.

ولما توفي هولاكو قام مقامه ابنه الأكبر أباقا بجهود نصير الدين الطوسي الرافضي، وكان همّ أباقا بقتال بركة خان، فسار إلى بلاده فسيّر له بركة خان قائده (نوغاي) الذي تمكن من هزيمة أباقا شر هزيمة ولكن لم يفت ذلك من عضد أباقا، فسار إليه ثانيةً فأصيب نوغاي بسهمٍ أفقده عينه فعاد مهزوماً، ولما وصل الخبر إلى بركة خان بهزيمة قائده نوغاي بن ططر بن مغول بن جنكيزخان، وكان يحبه ويكرمه لإسلامه معه ولشجاعته سار بنفسه فوجد أباقا قد قطع جسور نهر الكر فلم يتمكن من الانتقال إلى جهة أباقا، فسار نحو تفليس ليجتاز النهر من هناك غير أن منيته قد وافته في عام ٦٦٥.

ولما يكن لبركة خان ولد فخلفه مانكوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي بن جنكيزخان، ووقعت الحرب بينه وبين أباقا بن هولاكو، فانتصر أباقا خان انتصاراً كبيراً.

وحدثت خلافات بين مانكوتيمر وصاحب القسطنطينية فسيّر مانكوتيمر جيشاً إلى القسطنطينية عاث في بلادها فساداً، ثم رجع دون قتلى، إذ أن الرسل بين حكام المنطقة قد كثرت فكان صلح بين صاحب القسطنطينية والسلطان بيبرس، ويريد الأول أن يمتد هذا الصلح ليشمل أباقا بن هولاكو بصفته صهره لكن الظاهر بيبرس رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على قتال أباقا.

وتوفي مانكوتيمر عام ٦٧٩ وخلفه أخوه تدان مانكو بن طغان بن باتو، وفي هذه الأثناء وقع صدام بين قيدوخان بن قاشين بن أوغطاي وبين

براق خان حفيد جغطاي وقد انتصر الثاني منهما فزاد ذلك من ظلمه إضافةً إلى ما عرف عنه من ظلم، ثم حدث قتال بين مانكوتيمر وبين براق خان، وقد أرسل مانكوتيمر عمه بركجار فانتصر على براق خان، ثم التقى هؤلاء الخانات الثلاثة مانكوتيمر، وبراق خان، وقيدوخان فشكا براق خان قلة موارده، فأطمعه ابنا عمه في أملاك أباقا خان فجرت حروب بين الطرفين.

وحدثت مراسلات بين المنصور قلاوون وتدان مانكو، وأعلن الثاني منهما اعتناقه الإسلام والعمل على تطبيق الشريعة، ثم انصرف عن شؤون المملكة واتجه نحو العلماء، واضطر لذلك أن يتنازل عن الحكم لابن أخيه (تلابغا) عام ٦٨٦.

وسار (تلابغا) إلى قتال بعض أمم الشمال، وسار معه الأمير (نوغاي)، وداهمهم فصْل الشتاء الشديد البرد الكثير الثلوج، وسار (تلابغا) في طريق فلم ينج سوى جماعة قليلة معه ومات الباقي من شدة البرد، وسار (نوغاي) في طريق لم يهلك معه فيها أحد، فظن (تلابغا) أن (نوغاي) يريد به شرّاً بهذه الطريق التي سلكها وأراد الانتقام منه، وعلم (نوغاي) بما ينوي (تلابغا) فكان أسبق إذ تخلّص منه، وولى مكانه (طقطاي) أخاه وذلك عام ٦٩٠.

في هذه الأثناء انصرف المماليك في مصر إلى قتال الصليبيين وإنهاء أمرهم في بلاد الشام وقد تمَّ لهم ذلك إذ أخرجوا آخر فلول الصليبيين من عكا ٦٩٠ ثم من جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وبدؤوا بعد ذلك بملاحقتهم في قبرص ورودوس، هذا الانصراف خفّف من حدة القتال بين المماليك والدولة المغولية الإيلخانية التي أسسها هولاكو بل توقّف القتال بين الطرفين وهذا ما فسح المجال للمغول بأن يدخلوا بالإسلام بعد أن زالت الحروب بينهم وبين أبنائه على حين اشتدت وطأة أبناء عمومتهم المغول عليهم وإن كانوا قد دخلوا في الإسلام إلا أنهم ينظرون إليهم على أنهم مغول قبل أن يكونوا مسلمين.

وقعت جفوة بين (طقطاي) و (نوغاي) وحدث القتال بينهما وقتل

(نوغاي) وصفا الجو لـ(طقطاي)، ثم هدد غازان ملك الدولة الإيلخانية بالقتال إن لم يسلّم له مراغة وإذربيجان، ورفض ذلك غازان فسار (طقطاي) إلى جهة العراق، ولكن غازان كان قد هُزم في بلاد الشام، وقتل قائده في معركة شقحب، ولم يلبث غازان أن مات.

وكذلك فإن طقطاي قد قاتل عام ٧٠٩ سلطان ما وراء النهر (اسنبغا) وهزمه.

وتوفي طقطاي عام ٧١٢، وخلفه ابن أخيه غياث الدين محمد أوزبك بن طغرلجا، وكان طغرلجا من الذين قتلهم طقطاي، وهو أخوه. تقدّم (ييسور) من أسرة جغطاي إلى خراسان فدخلها، وكان يحكم قسماً منها، ووصل إلى مازندران وراسل محمد أوزبك ليتقدم من الطرف الآخر في بلاد الدولة الإيلخانية. أرسل (أبو سعيد) خان الدولة الإيلخانية جيشاً إلى بلاد محمد أوزبك فوصل إلى ضفاف نهر «الكر» فانهزم فسار بنفسه على رأس قوةٍ إلى هناك، وبعث جيشاً آخر إلى قتال (ييسور) بإمرة (جوبان) فتمكّن جوبان من إحراز النصر، وتراجعت قوات ييسور، وطلب أبو سعيد من جوبان أن يسير إليه لدعمه فانطلق نحوه إلا أنهما لم يجدا عسكراً لمحمد أوزبك إذ غادرت عساكره ساحة القتال عندما علمت بهزيمة ييسور، وعاد أبو سعيد وجوبان إلى أصفهان وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا ييسور وأوزبك فنكلوا بهم؛ وإن تمكن بعضهم من الفرار إلى أوزبك حيث حرّضوه على قتال أبي سعيد، واستعد أوزبك وراسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، واستنجد به لقتال أبي سعيد غير أن الناصر قلاوون قد اعتذر له حيث كانت تدور مراسلات من أجل الصلح بين قلاوون وأبي سعيد، وتم الصلح فعلاً. ولم يحدث قتال بين أوزبك وأبي سعيد رغم استعداد الاثنين وسيرهما للحرب. كما اتفق أوزبك مع كيك ملك ما وراء النهر لقتال أبي سعيد عام ٧٢١، إلا أن أوزبك قد توفي في هذه الآونة.

مات أوزبك عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمد جاني بك، جلال الدين، أبو المظفر، وقد أخذ أذربيجان من الملك الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان،

ونصّب ابنه محمد بردي بك على ذلك الجزء، وتوفي محمود جاني عام ٧٥٨، وخلفه ابنه محمد بردي بك، وكان ظالماً، قتل كثيراً من أقربائه ليخلو له الحكم والتصرف به، وبالغ في وضع الضرائب على الروس، وزاد من الجزية عليهم، ولم تطل أيامه إذ توفي عام ٧٦٢.

عمت الفوضى، وقامت الانقسامات في الدولة بعد وفاة بردي بك إذ كان ابنه (توقتاميش) الذي خلفه صغيراً، فاستقل الحاج شركس بمنطقة الحاج طرخان (استراخان)، واستقل (ماماي) بمنطقة القرم، وحكم منطقة سراي خضر بك، وأما (ماماي) وهو صهر بردي بك فقد نصّب أحد أولاد أوزبك وهو عبد الله خاناً، وسار نحو مدينة سراي فدخلها، وهرب منها (توقتاميش) بن بردي بك واتجه نحو خوارزم، ومنها إلى سمرقند مقر حكم بني جغطاي بن جنكيزخان، وكان المتغلّب عليها أحد أمراء المغول، واسمه (تيمور)، (تيمورلنك) وجلس (توقتاميش) خاناً هناك، وأصبحت مدينة سراي نهباً بين المختلفين فدخلها الحاج شركس ثم خرج منها بعد عدة أشهر، وكثر المتربعون على حكمها. واستغل الروس هذه الفرصة فانتفضوا على التتار، والتقوا مع (ماماي) الذي عاد إلى القرم وانتصروا عليه.

رجع (توقتاميش) إلى مدينة سراي وحكمها بمساعدة تيمرلنك، ودان له التتار، وتمكن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل موسكو. ثم وقع القتال بين (توقتاميش) وتيمورلنك منذ عام ٧٨٨ واستمر حتى عام ٧٩٧، وهزم في النهاية (توقتاميش) وفرّ من آخر المعارك، واختفى فمن قائل أنه التجأ إلى الغابات، ومن قائل أنه سار إلى بلغار، ومن قائل آخر أنه اتجه إلى بلاد الروس، ومنهم من قال: إنه قُتل في المعركة، أو في أثناء اختفائه على يد أحد أمراء التتار على ٧٩٨، ومنهم من قال: إنه بقي حيّاً وعاد إلى ملكه ثم هُزم على يد (تيمرقتلغ)، ثم هرب إلى ليتوانيا، ومعه بعض أنصاره، وإن الذين يعيشون في تلك الجهات اليوم من التتار إنما هم من نسل أولئك الذين ساروا مع (توقتاميش)، ووقعت الحرب بين التتار والليتوانيين، وانتصر التتار فألزموا

الليتوانيين على طرد (توقتاميش)، فعاش شريداً يقاتل شادي بك وينازعه الحكم، حتى قتل في الصحراء، وصفا الجو لشادي بك وذلك عام ٨٠٨.

استولى تيمورلنك على مدينة سراي وبلاد المغول الشمال، وعيّن عليها (قويرجق) أميراً من قبله، وعاد إلى بلاده، ولكن (قويرجق) بن أرص خان ملك بلاد خوارزم قد توفي عام ٨٠١، وكان الأمير المتحكم في الإمارة (أيدكو) صهر (توقتاميش)، زوج ابنته، وكان قد أيد تيمورلنك، فنصّب (أيدكو) خاناً في مدينة سراي (تيمرقتلغ)، وانصرف أيدكو إلى محاربة الجنوبيين في بلاد القرم حيث كانوا يسيطرون على مدينة (كفا)، ولكن (تيمرقتلغ) توفي عام٨٠٢، فنصّب أيدكو مكانه ابنه شادي بك الذي نازعه (توقتاميش) حسب بعض الروايات، وتوفي شادي بك عام ٨١١، وجلس مكانه ابن أخيه (فولادخان)، وفي هذه الأثناء حارب الأمير (أيدكو) الروس وحاول أن يوقع بين الروس والليتوانيين، وبعد سنتين (عام٨١٣) تمكن (تيمرخان) بن (تيمرقتلغ) أن يأخذ السلطة، وأن يحكم البلاد، ورفض أيدكو تسلّم الأمر فاختلف مع ابنه نور الدين فسار أيدكو إلى بلاد خوارزم.

ظهر جلال الدين بن (توقتاميش) عام ٨١٤، وانتزع الملك من يد (تيمرخان)، وحارب إخوته وهزمهم، وأصيب بسهم فمات، وتسلّم مكانه أخوه (عبد الكريم)، واختلت أمور الدولة، وكثر الخانات فيها، حيث قام في كل جهة خان، ومنهم محمد بن توقتاميش، وبراق بن قويرجق و...

وعندما جلس عبد الكريم خاناً في سراي جاء شقيقه الأكبر منه عبد الجبار فقدّمه عبد الكريم على نفسه ونصّبه مكانه، غير أن عبد الكريم قد أظهر فتنة على عبد الجبار الأمر الذي أدّى إلى اختلافهما وتحاربا وقتل عبد الجبار، وعاد عبد الكريم إلى منصبه، وتحالف معه بطريق موسكو ضد أمير ليتوانيا، وهذا ما حدا بالأخير إلى استقدام أحد أمراء المغول وهو بيتاصول، وتسميته خاناً، وإمداده بالجند لقتال عبد الكريم خان، وتسلّم الخانية مكانه، غير أن عبد الكريم تمكن من الانتصار على خصمه عام ٨١٨.

ظهر على مسرح الأحداث أيدكو مرةً ثانيةً في بلاد تركستان فنصّب (جكره أوغلان) من نسل شوبان بن جوجي خاناً هناك، وهاجم كبره خان، ثم عاد فعزل (جكره أوغلان) عن تركستان وعيّن مكانه (أحمد أوغلان) وهو من أسرة جغطاي بن جنكيزخان لكنه لم يلبث أن توفي فعيّن مكانه درويش أوغلان من أسرة جغطاي نفسها، وامتد نفوذ أيدكو على أكثر خانات المغول.

كان عبد القادر قد فرّ إلى بلاد قبرطاي عند خلاف إخوته بعضهم مع بعض وجمع قوةً هناك، وهاجم أيدكو وقتله، وقوي أمر عبد القادر فسار إلى بلاد سراي، وولى عليها خاناً هو محمد أوغلان بن إيچكلي حسن بن جغاي بن محمد بردي بك، وبدأ يخضع الأمراء الآخرين الذين يدّعي كل منهم أنه الخان، فقتل من قتل وفرّ الآخرون، وكان من الذين فرّوا براق خان بن قويرجق الذي التجأ إلى الأمير (ميرزا ألغ بك) في سمرقند، وهو نائب أبيه شاه رخ بن تيمورلنك الذي اتخذ مدينة هراة مقراً له، فأنجده ميرزا ألغ بك بقوة تمكن بمساعدتها أخذ بلاد خوارزم ومن هناك هاجم محمد أوغلان فجرت الحروب بينهما. ثم عاد براق خان فاختلف مع ميرزا ألغ بك ووقع القتال، وانتصر براق خان، واضطر شاه رخ أن يحضر بنفسه إلى سمرقند بعد أن عاث براق خان فساداً في بلاد ما وراء النهر، فغادر براق خان تركستان ورجع إلى خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ بعد مدة يتوسع من جديد وإن كان هذا التوسع في هذه المرة من ناحية الغرب حيث سيطر على أجزاء واسعة من بلاد سراي وهاجم بلاد روسيا وليتوانيا، وعاد إلى الصدام مع محمد أوغلان وكانت النتيجة لمصلحة محمد أوغلان الذي تمكّن من قتل براق خان.

وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد فخرج الأول منهما إلى قازان وأسس أسرةً خاصةً هناك حكمت المنطقة وذلك عام ٨٣٩، كما خرج بعض أبنائه إلى شبه جزيرة القرم ومنهم غياث الدين ودولة بردي، واستطاع حاجي كراي أن يحكم القرم، وقد توفي عام ٨٧١،

وخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر فانتقل منكلي كراي إلى أكفا حيث التجأ إلى الجنويين الذين كانوا يحكمون ساحل شبه الجزيرة، وفي هذه الأثناء كان السلطان العثماني محمد الفاتح يقاتل الجنويين وتمكن من دخول أكفا، وأسر منكلي كراي وحمل إلى إستانبول حيث أعاده السلطان محمد الفاتح إلى القرم ليكون خاناً عليها.

أما في سراي فقد حكم كجك محمد حتى عام ٨٥٠، وخلفه ابنه كجي أحمد خان واستطاع أن يتوسع وأن يحتل القرم، وأن يعيّن عليها خاناً من قبله هو جاني بك، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، وبعد مدة خرج من قلعته، وانتصر على جاني بك الذي فرّ إلى بلاد روسيا.

اتفق أحمد خان مع ليتوانيا على حين تصادق منكلي كراي مع روسيا وبدأت الحروب، وكانت النتيجة أن انتصر الروس وقتل أحمد خان عام ٨٨٥، وقام مكانه ابنه مرتضى.

نهضت روسيا في هذا التاريخ ولكن لم تجرؤ على قطع الجزية عن التتار إذ بقيت تدفع إلى خانات القرم، وخانات قازان، وبعض أبناء أحمد خان في سراي، وإلى أسرة نوغاي وأبناء شوبان (الشيبانية) في شمال القرم، وإلى بعض أمراء التتار الذين كانوا يعيشون في موسكو أمثال: نور دولت، وحيدر بك، تدفع ذلك كله لتتقي شرّهم، خوفاً من أن يتفقوا بعضهم مع بعض فيما إذا أصبح لهم عدو مشترك.

كان الخلاف بين مرتضى خان بن أحمد خان وخان القرم منكلي كراي لا ينقطع، وإن كان العثمانيون يسدون لهم النصح باستمرار بضرورة التفاهم والوحدة لإمكانية الوقوف في وجه العدو المشترك وهو النصارى. وقد تحالف مرتضى خان مع ليتوانيا ضد روسيا، واتفق منكلي كراي مع روسيا ضد مرتضى خان وليتوانيا، وكان خانات قازان بجانب خانات القرم.

وقع القتال بين مرتضى خان ومنكلي كراي عام ٨٩٠ ووقع الأول

منهما أسيراً بيد الثاني، وسجن في قلعة أكفا، غير أنه أنقذ في العام التالي إذ قام أخوه بهجوم كاسحٍ وقت انشغال أهالي القرم بالحصاد وتمكن من هزيمة القرم واستنقاذ أخيه ومن معه من أسرى. وفي عام ٨٩٢ هاجم منكلي كراي بدعم من الروس مدينة سراي عاصمة مرتضى خان، واستخلصوا عدداً من أسارى القرم. وفي العام نفسه سار الروس نحو قازان وخلعوا إلهام خان، ووضعوا مكانه أخاه محمد أمين خان، إذ كان الأول قد فكر في تفاهم المغول المسلمين بعضهم مع بعض.

كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان وطلب منه أن يأتي إليه ويقيم عنده في سراي، وقد أخبر عظيم روسيا آنذاك إيفان خوفاً منه على ما يبدو إذ من المحتمل أن يُطلع نور دولت الروس على تلك الرسالة.

استنجدت روسيا بمنكلي كراي لمهاجمة ليتوانيا، فقام بالأمر وكاد أن يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان.

وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم حليفها مرتضى خان، ولما تأكد منكلي كراي من أن تأخر ليتوانيا إنما هو من نوع المماطلة اقتحم مدينة سراي وخرّبها، وأصبحت أثراً بعد عين ولم تعمر بعد ذلك، وبهذا يكون عمرانها مدة ٢٦٧ سنة من سنة ٦٤٠ حيث بُدئ ببنائها إلى هذا العام الذي تهدّمت فيه وهو عام ٩٠٧.

وفي الآونة الأخيرة من عهد دولة سراي أو مغول الشمال انقسمت الدولة إلى عددٍ من الإمارات، وقع الاختلاف بينها ودبّ التناحر، وسقطت الواحدة تلو الأخرى في براثن الظلم الروسي، ولا تزال حتى يومنا الحاضر. ومن هذه الإمارات: قازان، والقرم، واستراخان (الحاج طرخان)، والنوغاي، وسيبريا، وخوارزم و....

هذا ومن المعلوم أن غزنة قد أعطيت لأوردا بن جوجي بن جنكيزخان، وقد خلفه ابنه قنجي الذي توفي عام ٧٠٠، ثم اختلف ولداه بيان وكيلك، وأخيراً انتصر قوشتاي بن كيلك على عمه بيان عام ٧٠٩.

جنكيزخان

[١] جوجي توفي عام ٦٢٤

أوردا
غزنة

شوبان
شرق أورال

بركجار

[٢] باتو
٦٢٤ ـ ٦٥٠

[٤] بركة
٦٥٢ ـ ٦٦٥

توقايتمر

جمتاي

[٣] صرتق
٦٥٠ ـ ٦٥٢

طغان

قنجي توفي
عام ٧٠٠

بيان

كيلك

قوشتاي

[٥] مانكوتيمر
٦٦٥ ـ ٦٧٩

[٦] تدان مانكو
٦٧٩ ـ ٦٨٦

[٧] تلابغا
٦٨٦ ـ ٦٩٠

طغرلجا

[٨] طقطاي
٦٩٠ ـ ٧١٢

[٩] محمد أوزبك ٧١٢ ـ ٧٤٢ غياث الدين

[١٠] محمود جاني بك ٧٤٢ ـ ٧٥٨ جلال الدين

[١١] محمد بردي بك ٧٥٨ ـ ٧٦٢

[١٢] توقتاميش
٧٦٢ ـ ٧٦٢ فترة اضطراب
توقتاميش ٧٨٢ ـ ٧٩٨ للمرة الثانية
حروب تيمورلنك
عين تيمورلنك
قويرجق بن أرص خاناً ٧٩٨ ـ ٨٠١
تيمرقتلغ عينه ايدكو ٨٠١ ـ ٨٠٢
شادي بك بن تيمرقتلغ ٨٠٢ ـ ٨١١
فولاد خان ٨١١ ـ ٨١٣
تيمر خان بن تيمرقتلغ ٨١٣ ـ ٨١٤
[١٣] جلال الدين بن توقتاميش ٨١٤ ـ ٨١٥
[١٤] عبد الكريم بن توقتاميش ٨١٥ ـ ٨٢٠
[١٥]عبد الجبار بن توقتاميش
عبد القادر بن توقتاميش

جغاي

إيجكلي حسن

[١٦] محمد أوغلان
٨٢٠ ـ ٨٣٩

[١٧] كجك محمد
٨٣٩ ـ ٨٥٠

[١٨] أحمد خان
٨٥٠ ـ ٨٨٥

[١٩] مرتضى ٨٨٥ ـ ٩٠٧

إمارة قازان

تقع مدينة قازان على نهر الفولغا قبل التقائه برافده نهر كاما على خط عرض مدينة موسكو (٥٦ شمالاً) إلى الشرق منها وعلى بعد ٧٣٠ كيلومتراً منها. وقد كانت ضمن أرض بلغار على أطراف بلاد المسلمين، وهُدّمت من قبل الروس عام ٨٠٢، وقلّت سيطرة سلطة خانات سراي عليها بعد تيمورلنك. فعندما وقع الخلاف بين الخان محمد ألوغ وأخيه محمد كچيم عام ٨٤١، وتغلّب الثاني على الأول، التجأ محمد ألوغ إلى مدينة قازان هرباً من أخيه، وطلب من التتار، والبلغار، والجوفاش المقيمين بالقرب من هذه المدينة السكن فيها، فأطاعوه، وبدأت الحياة تدبّ من جديد في هذه المدينة.

فرّ محمد ألوغ في أول أمره إلى بلاد الروس وظنّ أنهم سيحمونه لما له عليهم من أياد بيضاء يوم كان خاناً في مدينة سراي، ولم يكن يدري أنه صنع المعروف مع غير أهله، ولم يكن نفاقهم له وإظهار الطاعة له إلا لأنه حاكم عليهم، فلما حطّ به القدر تنكروا له، وطلبوا منه مغادرة بلادهم وربما خوفاً من أخيه الذي غدا خاناً في مدينة سراي وهم يتبعونه، ولكن ظهر أن ذلك إنما كان حنقاً عليه وكرهاً له ولإسلامه، وقد حاربهم، وانتصر عليهم، ولكنه خشي أن تدور الدائرة عليه لذا فقد اتجه إلى قازان، واتخذها مقراً له، وقاعدةً ينطلق منها لتوسعة ملكه.

ولما استقر محمد ألوغ في قازان هاجم موسكو لتأديب أهلها على نكرانهم الجميل، واكتفى بجمع الغنائم في هذا الهجوم، ولكنه كرّر الغزو، وفي هجومه الثالث عام ٨٥٠ حاصر موسكو، وتمكّن من أسر بطريقها، وفي أثناء حصارها وصل إليه نبأ مفاداه أن أحد أمراء المغول من أبناء شوبان بن جوجي قد فرض سيطرته على قازان الأمر الذي دعاه إلى فكّ الحصار عن موسكو والرجوع سريعاً إلى قازان لإعادتها إلى حكمه وهكذا رجع الجيش التتاري عن موسكو، واستعاد السلطة لمحمد ألوغ في قازان.

وعندما استقر محمد ألوغ في قازان منّ على بطريق موسكو بإطلاق

سراحه الأمر الذي أدّى إلى وقوع خلافٍ بين محمد ألوغ وابنه محمود، وقتل الخان، وسيطر ابنه محمود على الحكم في أواخر عام ٨٥٠، وفرّ إخوة محمود الآخرون إلى موسكو بعد مقتل أبيهم خوفاً من أخيهم الخان الجديد، ومنهم قاسم، ويعقوب، واستمر الخان محمود يحكم قازان حتى توفي عام ٨٧٢، وخلفه ابنه إبراهيم الذي أمه هي زوجة عمه قاسم.

كان الأمير قاسم يهاجم إمارة قازان من موسكو وبدعم من الروس، وفي هجومه الثالث عام ٨٧٣ توفي فطلب أمير موسكو إيفان الثالث من الجيش العودة، كما حاولت زوجة الأمير قاسم التوسط بالصلح بين ابنها إبراهيم والأمير إيفان الثالث، إلا أن العسكر لم يعيروا هذا الطلب اهتماماً، ووصلوا إلى قازان، وأحرقوا أطرافها، وفي صباح اليوم التالي نشبت معركة حامية بين الطرفين، ورجع عسكر موسكو إلى بلادهم.

وتوفي إبراهيم خان عام ٨٨٣ بعد أن هاجم روسيا، وتولى مكانه ابنه إلهام خان، أما ابنه الآخر محمد أمين وهو الأصغر فقد سار إلى بلاد الروس مغاضباً لأخيه إلهام خان، وعندما قوي أمره سار على رأس جيشٍ كثيف عام ٨٩٣ إلى قازان، وقد تمكن من أسر أخيه إلهام خان الذي حمل أسيراً إلى موسكو، وتربّع محمد أمين على خانية قازان. وبقي إلهام خان في أسره حتى توفي.

كره أهل قازان محمد أمين خان، وقد طلبوا ماموق خان الشيباني من برية القفجاق أن ينصبوه عليهم خاناً، وطلب إيواق خان الشيباني أمير نوغاي من إيفان الثالث أمير موسكو إطلاق سراح إلهام خان فرفض، وزادت الاتصالات بين أهل قازان وماموق خان، وعلم محمد أمين خان بما يدور، وبمجيء ماموق خان إلى مدينة قازان، واستنجد محمد أمين خان بالأمير إيفان الثالث فأمده بجند فهرب ماموق خان من قازان عام ٩٠٢، ولكن بعد مدة رجع ماموق خان ودخل قازان، وهرب منها محمد أمين خان وأهله إلى موسكو.

كره أهل قازان ماموق خان أيضاً، وعندما خرج للإغارة على بعض

البلدان، أغلق أهل المدينة أبواب مدينتهم في وجهه عندما عاد، وكتبوا إلى إيفان الثالث يعلمونه بأنهم لا يرغبون محمد أمين خاناً عليهم ولا ماموق خان أيضاً، وإنما يريدون عبد اللطيف خان أخا محمد أمين، ونصّبوه فعلاً عليهم، وسار ماموق خان إلى بلاد النوغاي.

وفي عام ٩٠٨ تمكّن محمد أمين خان من العودة إلى قازان والانتصار على أخيه عبد اللطيف الذي حمل أسيراً إلى موسكو حيث سُجن هناك، لكن منكلي كراي خان إمارة القرم قد طلب من إيفان الثالث أن يُطلق سراح عبد اللطيف ففعل ولكنه أبقاه في موسكو.

حرّضت زوجة محمد أمين خان زوجها على مقاومة الروس وأثارت فيه الحمية، وهي زوجة أخيه إلهام خان الذي مات في السجن، فأخذته الغيرة وسار في جيشٍ كبيرٍ من قازان والنوغاي وهاجم بلاد الروس، واستمر العداء بعدئذٍ بين قازان وموسكو مدة أيام محمد أمين أي حتى عام ٩٢٥.

في موسكو مات إيفان الثالث عام ٩١١ وخلفه ابنه واسيلي الرابع، وكان القتال دائماً بين قازان وموسكو، وقد أطلق سراح عبد اللطيف خان فرجع إلى قازان مقراً لأخيه محمد أمين بالخانية وذلك عام ٩١٤ وبناءً على طلب منكلي كراي خان القرم الذي كان على صلةٍ طيبةٍ مع موسكو، إلا أن هذه الصلة قد توقفت عام ٩١٧ إذ هاجم أولاد منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

وفي عام ٩٢٢ عيّن محمد أمين أخاه عبد اللطيف ولياً للعهد إذ أحسّ بالتعب وبدأ المرض يعاوده غير أن عبد اللطيف قد توفي قبله في عام ٩٢٤، ولحقه محمد أمين في العام التالي (٩٢٥)، ولم يكن لهما عقب، فعيّن الروس على قازان أحد أمراء التتار وهو شيخ علي خاناً على إمارة قازان، ورفضوا طلب محمد كراي في تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على قازان، وهو أخو محمد أمين خان لأمه، وذلك خوفاً من توحيد كلمة التتار بعد أن تفرّقوا إلى إمارات.

لم ينسجم أهل قازان مع شيخ علي، ولم يحبوه، واتفقوا مع محمد كراي خان القرم على تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على مدينتهم في الوقت الذي يصل إليهم فيه، فسار إليهم فنصّبوه وخلعوا شيخ علي الذي التجأ إلى موسكو. وعاد الانسجام بين قازان والقرم إذ يملكهما أخوان، وبدأت الحروب بين هذين الخانين والروس. وأرسل الروس جيشاً كبيراً عام ٩٣٠ بإمرة شيخ علي إلى قازان، فوصل إليها، وارتكب أبشع الجرائم، وكذلك في العام التالي (٩٣١).

عرض صاحب كراي على السلطان العثماني سليمان القانوني التبعية فوافق الخليفة العثماني، وأرسل إلى أمير موسكو واسيلي الرابع يعلمه بذلك، فرفض أمير موسكو هذه التبعية، وأعلن أن قازان تتبع موسكو، وأنه هو الذي عيّن صاحب كراي على قازان خاناً، وأرسل عام ٩٣١ جيشاً لإخضاع قازان ويصحبه شيخ علي، فخاف صاحب كراي، وأناب عنه ابن أخيه محمود، وهو صفا كراي، وأعلن أنه متجه إلى الخليفة العثماني ليأتي من عنده بالقوة لردع الروس وتأديبهم هم وشيخ علي. ولم يحدث القتال في ذلك العام بين الجيش الروسي القادم من موسكو وبين أهل قازان الذين تولّى أمرهم صفا كراي.

أنهكت الحرب قوى أهل قازان فسار بعض الأمراء منها إلى موسكو وعرضوا عليه الصلح وتعيين خانٍ عليهم من قبله، فنصّب عليهم عام ٩٣٩ جان علي، فساروا به إلى مدينتهم وانتقل صفا كراي إلى القرم. وبقي العداء بين موسكو والقرم، فهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وفي هذه الأثناء توفي أمير موسكو واسيلي الرابع وخلفه ابنه إيفان الرهيب.

قام الأمراء في قازان عام ٩٤٢ بخلع جان علي وقتله، وكتبوا إلى صفا خان يدعونه للعودة إلى خانية قازان فسار إليهم واستلم الأمر، وعاد الوئام بين القرم وقازان، وهاجم صفا كراي بلاد الروس عام ٩٤٣، ثم جرى صلح بين الطرفين.

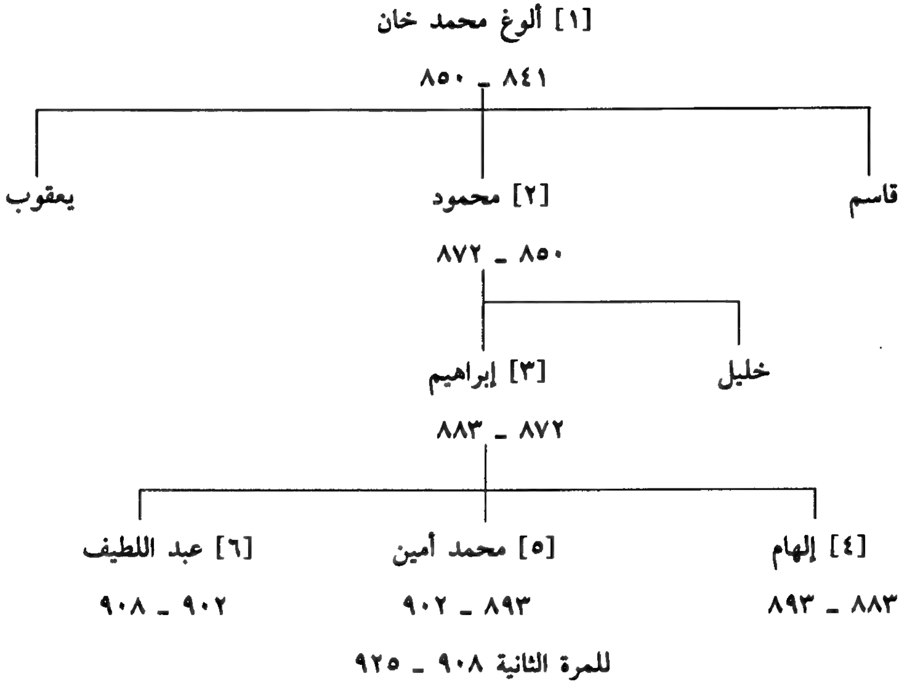

تجدد القتال بين قازان وموسكو عام ٩٤٦، وهاجم الروس قازان عام ٩٥٣ فغادرها صفا كراي، ورجع شيخ علي خاناً عليها، ولكن لم تمض سوى مدةٍ وجيزةٍ حتى ترك شيخ علي قازان، وعاد إليها صفا كراي.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، وطلب أهلها من صاحب كراي خان القرم الذي كان خاناً عليهم أن يُعيّن عليهم ابن صفا كراي، وهو بولك كراي سلطان والمقيم آنذاك بالقرم، وطلبوا في الوقت نفسه الصلح من أمير موسكو إيفان الرهيب، غير أن أمير موسكو قد استغل هذه الفرصة وسار إلى قازان ومعه شيخ علي، ووصل إلى قازان عام ٩٥٧، ولكنه فشل في احتلالها، فما كان من صاحب كراي خان القرم إلا أن هاجم بلاد الروس. وعاد إيفان الرهيب إلى قازان ثانيةً فخرج بولك كراي سلطان من قازان، ونصّب الروس شيخ علي للمرة الثالثة خاناً على قازان.

رفض أمراء قازان خانية شيخ علي، وكانت الحرب بين قازان وموسكو، وخرج شيخ علي من قازان عام ٩٥٨، ورفض إيفان الرهيب عودة بولك كراي سلطان إلى قازان حسب رغبة الأهالي، فعندها طلب أمراء التتار من الخليفة العثماني سليمان القانوني إرسال دولت كراي بن مبارك كراي بن منكلي كراي الذي كان يقيم في استانبول.

انتقل دولت كراي سلطان إلى القرم واختلف هناك مع عمه صاحب كراي فقتله، ولم يدعم أهل قازان. وفي الوقت نفسه كان الروس على وئام مع ليتوانيا والبلدان المجاورة لها من ناحية الغرب، ويناصرها من التتار صاحب الحاج طرخان (يغمروجي خان)، وكانت هناك مصالح تجارية بين خان النوغائية المرزا يوسف، وعندما كتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى المرزا يوسف هذا يدعوه أن يكون الجميع صفاً واحداً تحت راية الإسلام ضد روسيا، وألا يتركوا أهل قازان وحدهم أمام الروس، وأن يعيّنوا من أهل نوغاي خاناً على قازان لم يرضخ المرزا يوسف لهذا الطلب، وبذا لم يكن مع قازان سوى القرم.

تغيّر موقف النوغاي، وأصبحوا بجانب قازان، وسار محمد خان مع خمسمائة فارس من بلاد النوغاي إلى قازان حيث نصّبه أهلها خاناً عليهم. وضعُف أمر الروس لكن شجّعهم إيفان الرهيب وسار بهم نحو قازان ومعه شيخ علي، وكان شيخ علي مسناً، جباناً، بديناً، لكنه خبير بالحرب، وسار الروس أيام الشتاء حسب نصيحة شيخ علي، واستطاعوا بعد حروب مريرة دخول قازان في ٢٤ شوال ٩٥٩ (٢ تشرين أول ١٥٥٢).

وبذا تكون إمارة قازان قد عاشت مستقلة مدة ١١٨ سنة، منذ انفصلت عن سراي عام ٨٤١هـ، حتى سقطت بيد الروس عام ٩٥٩، وقد خضعت لحكم أسرة محمد ألوغ مدة ٨٤ سنة والباقي وهو ٣٤ سنة حكمها خانات من القرم، أو خانات من صنيعة الروس.

خانات قازان بعد أسرة محمد ألوغ:

٩٢٥ ـ ٩٢٧	شيخ علي	للمرة الأولى.
٩٢٧ ـ ٩٣١	صاحب كراي	
٩٣١ ـ ٩٣٩	صفا كراي	للمرة الأولى.
٩٣٩ ـ ٩٤٢	جان علي	
٩٤٢ ـ ٩٥٣	صفا كراي	للمرة الثانية
٩٥٣ ـ ٩٥٤	شيخ علي	للمرة الثانية
٩٥٤ ـ ٩٥٦	صفا كراي	للمرة الثالثة
٩٥٦ ـ ٩٥٧	بولك كراي سلطان	
٩٥٧ ـ ٩٥٨	شيخ علي	للمرة الثالثة
٩٥٩	محمد خان النوغائي	

وبعد سقوط قازان بيد الروس، أعلن بعض الباشغرد الطاعة للروس، وقتل المرزا إسماعيل أخاه المرزا يوسف خان النوغاي، وراسل إيفان الرهيب، وأعلن طاعته له، كما أدخل المرزا إسماعيل الروس إلى الحاج طرخان (استراخان) عام ٩٦١، هذا بالإضافة إلى أن شاه طهماسب الصفوي شاه إيران قد كاتب إيفان الرهيب، وعرض عليه الاتفاق معه عام ٩٧٨ لمحاربة الخليفة العثماني.

إمارة القرم

القرم شبه جزيرة تقع في شمال البحر الأسود، تبلغ مساحتها ٢٦,١٥٠ كيلومتراً مربعاً، كانت تتبع مغول الشمال، وتوجد فيها أملاك لإمارة جنوه الإيطالية على الساحل الجنوبي وعلى ساحل بحر آزوف.

عمت الفوضى حكومة سراي بعد وفاة محمد بردي بك عام ٧٦٢ فاستقل بالقرم صهره (ماماي)، ثم نصّب أحد أولاد محمد أوزبك خاناً، وهو عبد الله وسار به إلى مدينة سراي فدخلها، وهرب منها توقتاميش بن محمد بردي الذي كان صغيراً حيث اتجه إلى سمرقند، وأصبح خاناً هناك.

حارب الروس (ماماي) فاضطر أن ينسحب إلى مقره في القرم، وبقي في السلطة حتى جاء تيمورلنك عام ٧٩٨ فسيطر على المنطقة، ثم انسحب وعين قويرجق خانا على سراي، وتتبعها القرم.

كان أيدكو صهر توقتاميش الرجل القوي في سراي، وكان قد أيّد تيمورلنك، وقد عيّن خاناً على سراي واتجه إلى القرم يحارب الجنويين، وعادت القرم تتبع سراي، وقد غادر إيدكو المنطقة متجهاً نحو خوارزم.

وعندما وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد، واتجه محمد أوغلان نحو قازان عام ٨٣٩ خرج بعض أبنائه في الوقت نفسه إلى شبه جزيرة القرم، ومنهم غياث الدين، ودولة بردي، وتمكن حاجي كراي من حكم القرم واستمر الحاكم فيها حتى توفي عام ٨٧١ فخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر، فانتقل منكلي كراي إلى أكفا إذ التجأ إلى الجنويين الذين يحكمون تلك المدينة، وعندما انتصر السلطان العثماني محمد الفاتح على الجنويين أسر منكلي عندما دخل أكفا وحمله أسيراً إلى استانبول، ثم أعاده خاناً على القرم.

استطاع أحمد خان في سراي أن ينتصر على منكلي كراي، وأن يحتل القرم حوالي عام ٨٥٢، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، ثم خرج بعد مدة، وانتصر على جاني بك الذي عيّنه أحمد خان حاكماً على القرم والذي فرّ إلى بلاد روسيا.

استمر الخلاف بين منكلي كراي في القرم وأحمد خان في سراي فتحالف منكلي كراي مع الروس في حين تحالف أحمد خان مع الليتوانيين، ووقعت الحروب بين الفريقين، واستمرت بين منكلي كراي ومرتضى خان الذي تولّى أمر سراي بعد مقتل أبيه أحمد خان عام ٨٨٥، وفي الحرب التي دارت رحاها عام ٨٩٠ بين الطرفين وقع مرتضى خان في الأسر فسجنه منكلي كراي في سجن أكفا، وهاجم أهل سراي عام ٨٩١ القرم فجأة وتمكنوا من إحراز النصر، وفكّ مرتضى خان من ربقة الأسر،

وقام منكلي كراي في العام التالي (٨٩٢) برد فعل وهاجم مدينة سراي بدعم من الروس، وقد استطاع من تحقيق النصر وفك أسارى القرم الذين هم في مدينة سراي.

كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان، وطلب منه أن يأتي إليه ليقيم ضيفاً في سراي نكاية بأخيه منكلي كراي.

هاجم منكلي كراي ليتوانيا بناءً على طلب الروس وكاد يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان. وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم مرتضى خان، وتمكن منكلي كراي من اقتحام المدينة وتخريبها، وزالت من الخريطة.

استمرت العلاقة الطيبة بين منكلي كراي والروس حتى عام ٩١٧، ثم ساءت العلاقات إذ هاجم ولدا منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

توفي منكلي كراي عام ٩١٩ بعد أن حكم القرم مدة سبع وأربعين سنة (٨٧١ ـ ٩١٩)، وخلفه ابنه محمد كراي، وقد أرسل أخاه صاحب كراي إلى قازان حيث نُصّب خاناً هناك، فتوحّدت قازان والقرم، وكذلك قام محمد كراي بالاستيلاء على استراخان فأصبحت المنطقة كلها واحدةً وهذا ما أخاف الروس فشنّوا هجوماً على قازان فخاف صاحب كراي، وغادر قازان بعد أن أناب عنه ابن أخيه صفا كراي بن محمود بن منكلي كراي.

رجع صفا كراي إلى القرم بعد أن تصالح أهل قازان والروس عام ٩٣٩، وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وبعد عامين خلع أهل قازان جان علي، ورجع صفا كراي من القرم، وتسلّم خانية قازان مرةً أخرى، إلا أنه عاد فغادرها عام ٩٥٣، ثم رجع إليها مرة ثالثة عام ٩٥٤، وبقي حتى توفي عام ٩٥٦.

تولى صاحب كراي خانية القرم بعد ابن أخيه سعادة بن محمد كراي

وقام بالهجوم على بلاد الروس عام ٩٥٧، ولم يمكث طويلاً حتى جاء دولت كراي سلطان من استانبول إلى القرم واختلف مع عمه صاحب كراي وقتله وتسلّم الخانية مكانه عام ٩٥٨.

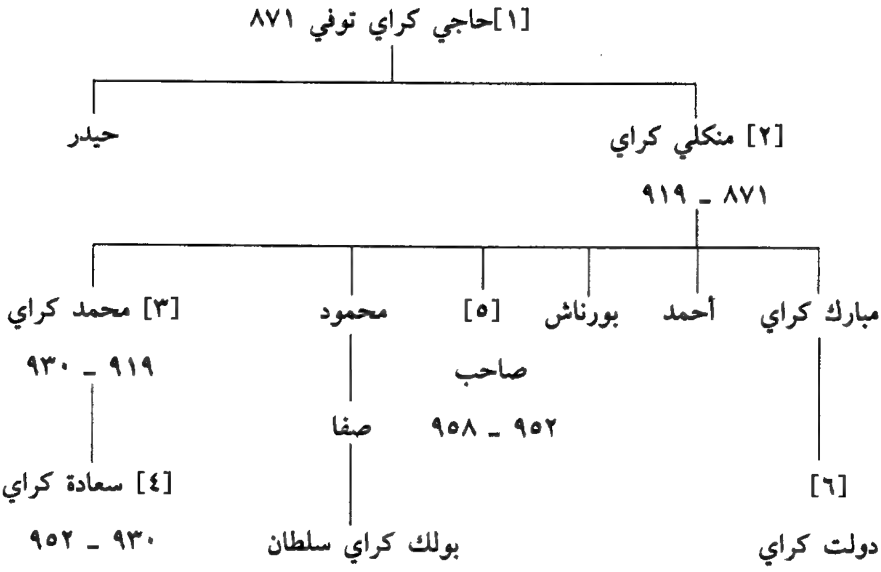

إمارة سيبيريا

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيز خان أخاه شوبان شرق جبال الأورال، فأسس هناك قلعةً ومدينةً على نهر صغير يسمى سيبركا، وذلك حوالي عام ٦٤٠ أي في الوقت الذي قامت فيه مدينة سراي قاعدة حكم أسرة مغول الشمال، وتوالت أسرة شوبان تحكم سيبر، وعرفت بالأسرة الشيبانية، وكانت تتبع سراي، وقد استملك الحاج محمد خان نواحي نهر أوبي وأرتيش، وأسس خانية خاصة انفصلت عن سراي في ذلك الوقت الذي بدأت تنفصل عنها الإمارات مثل قازان، والقرم و. . . في منتصف القرن الثامن. وتوالى خانات سيبيريا على الحكم فكان محمود خان بن حاج محمد خان، ثم ولده إبراهيم خان المعروف باسم آباق خان، فتولق خواجه خان، فشماي خان، فأورازخان، فبهادور خان ثم ابن عم جده

مرتضى خان بن إبراهيم خان، ثم ابنه كوتشم خان الذي كان حوالي عام ٩٧٧ الذي لم يف للروس بالاتفاق الذي كان قائماً والذي ينص على اعتبار سيبير تابعةً لهم، والذي حاول تقوية دولته، وتقرّب من النوغاي وزوّج ابنه من ابنة أميرهم، والذي بدأ يُغير على مواقع الروس على نهر كاما، كما حدث عام ٩٨١، والذي شجّع القزاق على نهر الدون بالعصيان على الروس، وظهر عندها يرمق بن تيمافي[١] الذي استطاع أن يستولي على قلعة سيبير وأن يبيعها إلى الروس عام ١٠٠٣، وذهب كوتشم خان إلى بلاد باشغرد وعاش ومات فيها.

حاول التتار النهوض ثانيةً فبايعوا علي بن كوتشم خان أميراً عليهم، ولكنه عجز عن إنقاذ بلاده، وكذلك أخوه إيشم خان عام ١٠١٧، وابنه كراي خان الذي فشل في حركته أيضاً عام ١٠٧٨.

إمارة الحاج طرخان

الحاج طرخان (استراخان) مدينة تقع عند مصب نهر الفولغا في بحر الخزر. كانت هذه المدينة وما حولها تتبع سراي مقر حكم مغول الشمال. فلما عمّت الفوضى مدينة سراي بعد موت محمد بردي بك عام ٧٦٢ استقل باستراخان الحاج شركس وقد وسع ملكه، وتمكّن أن يدخل مدينة ساراي، ثم خرج منها بعد عدة أشهر.

وجاء تيمورلنك إلى المنطقة فتسلّم أمر استراخان قويرجق بن أرص خان حتى توفي عام ٨٠١، ثم خضعت إلى تيمر قتلغ حتى عام ٨٠٢، وجاء براق خان بن قويرجق حتى قتل من قبل محمد أوغلان أمير سراي عام ٨٣٨، وخضعت لحكم سراي.

---

(١) ظهر يرمق حوالي عام ٩٨٥ واجتمع لديه عدد من أشقياء القازان الذين يقيمون على نهر الدون فحارب التتار الذين كانوا قد غادروا سراي عند خرابها عام ٩٠٧ وساروا نحو نهر أورال فأسسوا على ضفته مدينة سرايجق فهدمها يرمق هذا، وسار نحو سيبير فدخلها عام ٩٨٩.

تبعت استراخان جاني بك الذي حكم القرم من قبل أحمد خان حتى فرّ إلى بلاد الروس، فاستقل بها حسين خان، وبقي حتى طرده منها محمد كراي عام ٩٣٠.

استولى على استراخان عبد الكريم بن أحمد خان، وخلفه عليها ابن أخيه آقو بك بن قاسم، وبقي فيها حتى جاء عبد الرحمن خان فحكم فيها مدة أربع سنوات ٩٤١ ـ ٩٤٥ حيث هجمت عليه قوة من النوغائي ففرّ منها فعينوا مكانه درويش علي خان.

سيطر على استراخان حيدر خان بن الشيخ أحمد خان غير أنه خلع عام ٩٤٨، ونصّب آق باك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان مدة ثلاث عشرة سنة (٩٤٨ ـ ٩٦١)، وحدث شبه اتفاق بين خان استراخان آق باك خان، وأمير النوغائي المرزا يوسف، وخان القرم دولت كراي بتشجيع من الدولة العثمانية. وفي النهاية سيطر الروس على استراخان عام ٩٦٥.

إمارة خوارزم

مدينة خوارزم (خيوه) تقع على نهر جيحون جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) كانت تتبع مدينة سراي حيث هي من أملاك جوجي بن جنكيز خان، وقد ظهر في خوارزم أرص خان عند قدوم تيمورلنك، وقد خلفه ابنه قويرجق خان الذي نصّبه تيمورلنك خاناً على مدينة سراي...

وعندما اختلف إيدكو مع ابنه نور الدين وانتصر الولد، سار إيدكو إلى خوارزم، واستقر بها، وأصبح له نفوذ على أكثر خانات المغول، غير أنه قتل بالحرب التي جرت بينه وبين عبد القادر بن توقتاميش، وسيطر على خوارزم براق خان بن قويرجق خان بن أرص خان أو عاد إلى ملك آبائه، وامتد نفوذه ثم هُزم أمام شاه رخ بن تيمورلنك فعاد إلى مقره الأساسي في خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ يتوسع الآن من جهة الغرب على حساب أملاك سراي لكنه قتل من قبل محمد أوغلان.

الفصل الثاني

الدولة الإيلخانية

لعل هذه الأسرة الإيلخانية هي التي تمثّل المغول في أذهاننا تمثّلهم لأنهم كانوا على جوارٍ منا، فمعرفتهم واضحة لنا، وأعمالهم جلية أمام ناظرنا إضافةً إلى أن الصراع قد استمر بيننا وبينهم في هذه المنطقة مدةً ليست يسيرة إذ تزيد على القرن والنصف، وقد كان السكان في خلالها في ذعرٍ وخوفٍ كلما ترامت إليهم الأخبار بأن المغول سيزحفون نحو الغرب، فيأخذهم الرعب والهلع بعد أن ذاقوا منهم ما ذاقوا. وهذه الأسرة تمثّل أوج طغيان المغول ووحشيتهم بعد جنكيز خان. فطاغية هذه الأسرة ومؤسسها هولاكو هو الذي فعل ببغداد ما فعل وفي الجزيرة الفراتية وكل مكان دخله، وتابع ابنه أباقا من بعده الوحشية نفسها.

وإذا كانت بعض الأسر المغولية الأخرى قد وقفت ضد هذا الطغيان وضد هذه الوحشية لخلافها معها على الأقل، وإن بعضها قد اعتنقت الإسلام ووقفت بجانب المسلمين ضد أبناء جنسها، وهي أسرة مغول الشمال، وأيّد بعضها الآخر تأييداً، وحارب هولاكو، وهي أسرة أوغطاي حيث دعم قيدو بن قاشين بن أوغطاي خان تلك الأسرة ابن عمه بركة خان مغول الشمال ضد ابن عمه الآخر هولاكو، إلا أن هذا الدعم للمسلمين، وهذه المحاربة لهولاكو قد نسي كله تحت ركام جرائم المغول التي بقيت ممثلة في هولاكو وأسرته.

وأسلم ابن هولاكو الثاني، وتسمّى باسم أحمد، وحاول مصالحة

المسلمين ولكن الأيدي الملطخة بالدماء قد قتلته متمثلة بابن أخيه أرغون الذي تسلّم مكانه، وتابع السير الوحشي، وأسلم ابنه قازان من بعده وتسمى باسم محمود ومع إسلامه النظري أو انتمائه إلى الإسلام فقد بقي يتابع تعدياته، ويهمّ بين المدة والأخرى بدخول الشام فينشر الرعب والخوف بين الآمنين، وقصد الشام ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فلم يلبث أن انسحب قازان مهزوماً يجرّ وراءه ذيول الخيبة والفشل بعد معركة شقحب على الأطراف الجنوبية لدمشق في أوائل القرن الثامن الهجري.

وتابع محمد خرابنده الطريق وزاد في الأمر إذ أعلن اعتناقه الرفض وفرضه على مملكته، وكان أمر الأسرة قد ضعف وخلفه ابنه أبو سعيد فزاد الضعف، وتفككت الدولة من بعده.

وإذا كان المغول قد ذابوا في المجتمع الإسلامي ودانوا بعقيدته لكن ما خلّفوه من جرائم قد بقي في الأذهان، لم تزله الأيام مع طولها، ويرتبط بالأسرة الإيلخانية.

أعطى جنكيز خان من البلاد الواسعة التي دخلها لابنه الثالث تولوي خراسان وفارس وما يمكن أن يضمّ إليه من جهة الغرب، غير أن تولوي قد هلك قبل أن يتولى أمر نصيبه من إمبراطورية أبيه. وكان أبناؤه في عاصمة المغول قرة قورم.

تولّى أمر المغول أوغطاي بعد أبيه جنكيزخان، وتابع ما سار عليه أبوه من اقتحام البلدان وسفك الدماء. فقضى على أسرة كين التي تحكم شمالي الصين، ثم أرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الغرب فانتصر على جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم الذي فرّ إلى جبال الأكراد فقتله أحد الأكراد الفلاحين هناك، فدخل المغول أذربيجان وأرمينيا وبلاد الكرج، وارتكب المغول أفظع الجرائم.

ووجّه أوغطاي عام ٦٣٣ ثلاثة جيوش أحدها إلى كوريا، والثاني إلى جنوبي الصين حيث قضى على أسرة سونغ، والثالث إلى أوروبا بقيادة ابن

أخيه باتو بن جوجي وأرسل مع هذا الجيش الثالث بعض كبار أمراء المغول ومنهم ابنه كيوك، ومانكو ابن أخيه تولوي، وبايدار ابن أخيه جغطاي، فاقتحم المغول روسيا، وبولندة، والمجر.

هلك أوغطاي عام ٦٣٩، وخلفه ابنه كيوك الذي كان لا يزال في أوروبا تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي فسيرت له أمور الدولة أمة توراكينا حتى رجع. فتولى الأمر وألقى زمام الأمر إلى وزيرين من النصارى فأوغرا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم، وكذلك فعل البوذيون، ولم يطل أمره فقد هلك عام ٦٤٦.

ملك أمر المغول بعد هلاك كيوك ابن عمه مانكو بن تولوي تحت ضغط باتو بن جوجي وهكذا انتقلت الخانية العظمى إلى أسرة تولوي، فولى أخاه قوبيلاي على بلاد الصين، وسار هو إلى التبت فخرّبها، ووجه أخاه الثاني هولاكو إلى الغرب، ولكن باتو بن جوجي قد منع هولاكو من التحرّك نحو الغرب تحت تأثير أخيه بركة الذي اعتنق الإسلام وكان صديق الخليفة العباسي المستعصم، ولم يستطع التقدّم حتى توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠ فتقدّم هولاكو نحو الغرب، رغم أنف ابن عمه بركة وهذا ما أوقع الخلاف بين الاثنين، وسقطت بغداد بيد هولاكو في ١٩ محرم من عام ٦٥٦، وقابل الخليفة المستعصم في ٤ صفر من العام نفسه، وانتهى منه، وتقدّم نحو بلاد الشام فدخل حلب في مطلع عام ٦٥٨، واتجه نحو دمشق فحاصرها في ربيع الأول من العام نفسه، ثم اضطر إلى مغادرة البلاد والتوجّه إلى مقر حكم المغول في قره قورم.

كان مانكو قد سار للقضاء على بعض المتمردين، وأخذ معه أخاه قوبيلاي، وكلف أخاه الأصغر أرتق بوكا بتسيير أمر الحكم مكانه، وفي هذه الأثناء هلك مانكو فاختار الجند مكانه أخاه قوبيلاي، واستغل هذه الفرصة بركة بن جوجي خان مغول الشمال للإيقاع بأبناء عمه تولوي، الذين يعادونه لإسلامه فحرّض أرتق بوكا على استمرار بقائه في الخانية العظمى للمغول فإن أخاه مانكو قد عيّنه مكانه، وأرسل له دعماً كما دعمه أيضاً ابن عمه

الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي فوقع القتال بين الأخوين واضطر هولاكو أن يغادر بلاد الشام ليحلّ هذا الخلاف، وانتهى الأمر ونُصّب قوبيلاي خاناً أعظم للمغول.

ترك هولاكو القائد كتبغا أميراً على جنده في الشام وسافر إلى الشرق، فدخل كتبغا دمشق غير أنه هُزم في عين جالوت أمام المماليك، ولقي مصرعه هناك. ورجع هولاكو ووجد ما حلّ بجيشه في الشام، وحنق على ابن عمه بركة خان الذي أسلم، وراسل المماليك إضافة إلى ما فعله من تحريض أرتق بوكا على أخيه قوبيلاي، فأراد أن ينتقم من ابن عمه بركة خان، وينتقم من المماليك.

وجاء السبب للقتال بين أبناء العم فبدأ بركة خان يطالب هولاكو بمغادرة جنده من مراغة وتبريز حيث هما من أملاك مغول الشمال، كما يطالبه بدفع ثلث ما حصل عليه في حروبه حسب أوامر جنكيزخان، وليست هذه المطالبة إلا مبرراً لبركة خان كي يطيعه جنده، ويقاتلوا معه هولاكو، فيكون قتاله هو في سبيل الإسلام حيث نقم على ابن عمه بعد قتله الخليفة وتدميره بغداد، ويكون قتال جنوده في سبيل المحافظة على أجزاء من دولتهم والحصول على أموال هي حق لهم.

اتجه هولاكو بجنوده نحو بلاد بركة خان واجتاز نهر كورا والتقى الطرفان عام ٦٦٠ وهُزم هولاكو وفقد قسماً من جيشه، ولم يوقف القتل بجنده سوى اجتيازهم نهر كورا فارين نحو الجنوب. وأعاد جيش هولاكو الهجوم وجاءته النجدة وفيها أباقا بن هولاكو فانتصروا على جيش بركة خان عند دربنت (باب الأبواب) في مطلع عام ٦٦١، وتابع سيره فجاء بركة خان على رأس قوةٍ كبيرةٍ تمكنت من إحراز النصر على ضفاف نهر ترك وولى جيش هولاكو الأدبار ولم يفلت من القتل سوى أباقا بن هولاكو بجزءٍ صغير من الجيش.

إن هزيمة هولاكو أمام بركة خان جعلته لا يفكر في محاولة الانتقام من المماليك بل إن أعداداً من جنوده بدؤوا بالفرار والتوجه نحو الشام

ومصر ويدينون بالإسلام بتشجيع من الظاهر بيبرس ولما وجدت الفئة الفارّة الأولى من إكرام. وأصيب هولاكو بمرض الصرع وهلك في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣.

كان هولاكو عدواً لدوداً للإسلام وقد خضع لتأثير النصرانية، فقد كانت زوجته نصرانية وتحرّضه على الإسلام باستمرار، كما كان الرهبان النصارى يجوبون البلاد التي تخضع لسيطرة المغول بكل حرية، ويُقال: إن عداوته للإسلام قد خفّت في أواخر حياته، وقد عهد إلى أحد المربين المسلمين بتنشئة ابنه الثاني تكودار الذي أسلم فيما بعد.

لما تولى قوبيلاي أخو هولاكو الخانية العظمى للمغول عام ٦٥٥ نقل مقر حكمه من قره قورم إلى بكين، وأسس هناك الأسرة التي حكمت الصين مدة ١٦ سنة (٦٥٥ ـ ٧٧١)، وفي الوقت نفسه فقد استقل خانات المغول بعضهم عن بعض، ولم يعد هناك بينهم رابط سوى الاسم، ولم يعد للخان الأعظم سوى الصورة. وأسس هولاكو الأسرة الإيلخانية التي حكمت العراق، وفارس، وخراسان، وكانت حدودها مع المماليك هو نهر الفرات من جهة الغرب، وحدودها مع دولة مغول الشمال أذربيجان مع خلافٍ على مراغة وتبريز فكل تدعيهما، وإن كانتا تحت سيطرة جند الإيلخانيين، كذلك كان للإيلخانيين الجزيرة الفراتية وديار بكر، إذ ذهب أمراء أرمينيا، وديار بكر، والجزيرة عام ٦٥٠ إلى منكوخان، وظهر اختلافهم أمامه حيث كل يريد التوسع والنفوذ، ويرى لنفسه الأفضلية بل الأحقية على غيره، وقد أقروا لمنكوخان بالطاعة، وأصبحوا تبعاً للتتار. ثم عندما جاء الهجوم التتاري عام ٦٥٨ دخل المهاجر هذه المناطق، ووضعوا نواباً لهم عليها معظمهم من التتار وإن لم يستطيعوا دخول ماردين إذ دافع عنها حكامها من الأراتقة دفاعاً كبيراً، وقد ترك هولاكو هذه المدينة الحصينة، وسار إلى حلب فاستولى عليها، وكذلك اضطر التتار مرةً ثانيةً إلى الرحيل عن ماردين في شهر رجب من عام ٦٥٩، ولكن دخلت تحت حمايتهم لتتخلّص من شرّهم، أو أن أميرها رغب أن يكون صاحب مكانة

فيحافظ على مركزه وحكمه بالموافقة على حماية التتار إذ قدّر أنهم لا بدّ من أن يقتحموا مدينته وإن طال الوقت بعض الشيء فإن دخلوها عنوةً نكّلوا به وبأهله أولاً ثم برعيته عامةً، وبدأ يشترك معهم في منازلة خصومهم عامةً والمماليك بشكلٍ خاص، فقد اشترك عام ٦٦٠ مع صندغون التتاري في حصار الصالح بدر الدين بن لؤلؤ، وتتابع بعد ذلك هذا الاشتراك وأصبحت ديار بكر وراثية للتتار الذين قام الصراع بينهم وبين المماليك في الشام ومصر، وكانت ديار بكر هي قاعدة انطلاق التتار في كثيرٍ من الأحيان. ولم يكن نواب التتار في ديار بكر والجزيرة ليقيموا في مقرٍ واحدٍ بل يتنقلون بين عدة مراكز فتارةً يتخذون الموصل مقراً لهم، وتارة أخرى آمد وهكذا. وكان محور تقدّم التتار دائماً على نهر الفرات من جهة الشمال الشرقي والتقدم نحو حلب فحماه، أو الرحبة (مكان الرطبة اليوم) من جهة الشرق والاندفاع نحو دمشق.

٢ ـ أباقا:

لما هلك هولاكو عام ٦٦٣ قام مكانه ابنه أباقا، وكان همّه الأول قتال بركة خان، فسار إليه إلا أنه هُزم أمام نوغاي قائد بركة خان، ولكنه انتصر في الجولة الثانية وهزم نوغاي فسار إليه بركة خان ولكن مات قبل أن يلتقي معه. وانتصر أباقا خان عى خليفة بركة خان مانكوتيمر انتصاراً عظيماً. وكان أباقا متزوجاً بابنة امبراطور القسطنطينية، وعندما جرت مراسلات للصلح بين السلطان الظاهر بيبرس وإمبراطور القسطنطينية أحب الثاني أن يتوسّع أمر الصلح ليشمل أباقا خان، غير أن الأول قد رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على حرب أباقا.

وجرت حروب بين أباقا خان وبين براق خان حفيد جغطاي وذلك أن مانكوتيمر خان مغول الشمال، وقيدو بن قاشين بن أوغطاي قد حرّضا براق خان على ذلك وأطمعاه في أملاك أباقا خان.

أما من ناحية قتال المماليك، فقد تمكّن حكام الشام ومصر من

الانتصار على جيوش التتار ٦٧٣، ووصلوا إلى ماردين، وبعد عامين تقدّم التتار ومعهم صاحب ماردين المظفّر الأرتقي إلى البيرة على نهر الفرات وحاصروها، ولم يتمكّنوا من اقتحامها إذ دافع عنها نائب المماليك دفاعاً مجيداً، وانتشرت الأمراض بين جند التتار، ووصلت الأنباء بتقدّم الظاهر بيبرس على رأس قوةٍ لحربهم، ففكّوا الحصار، وانسحبوا من ميدان المعركة ولم ينقض الشهر على تقدّمهم، وذلك في ٨ جمادي الآخرة من عام ٦٧٤.

وجاءت أخبار إلى أباقا خان بأن اختلافاً قائم بين الأمراء في مصر، فوجد الفرصة مناسبةً للهجوم على الشام فجهّز قوة عام ٦٧٩ بإمرة أخيه منكوتمر بن هولاكو وانضم إليه صاحب ماردين الأرتقي، وسارت الحملة، ووصلت أخبارها إلى الشام فاستعدت القوات في مصر والشام للقتال فدبّ الرعب في نفوس التتار فخرّبوا المناطق التي وصلوا إليها، وعادوا مسرعين إلى حيث أتوا.

ولما كانت غارات الشاميين لا تنفكّ تقوم على ديار بكر وبلاد سلاجقة الروم لذا قرر أباقاخان القيام بحملةٍ واسعةٍ، فهيّأ جيشاً يزيد عدده على الثمانين ألفاً وطلب منه التحرّك نحو حلب، وقد سار هذا الجيش وبدأ يسيطر على الجهات الشمالية من بلاد الشام، وفي الوقت نفسه فقد سار أباقا خان نفسه ومعه صاحب ماردين بفرقةٍ أخرى نحو بلدة الرحبة لمراقبة الأحداث وتحرّكات جيوش العدو وتسلّل أباقا خان مع ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة وحاصر القلعة فيها يوم ٢٦ جمادى الآخرة من عام ٦٨٠ وبعد سبعة عشر يوماً (١٤ رجب) التقى جيش المنصور قلاوون بالتتار في الشمال وأحرز النصر عليهم، وأعدّ قوة من دمشق للسير إلى الرحبة إلا أن أباقاخان قد انسحب إلى بغداد عندما علم بهزيمة جيشه في الشمال.

وعلى كل فقد كانت أيام أباقا خان حروباً دائمة على مختلف الجبهات فمن الغرب المماليك، ومن الشمال أبناء عمه من مغول الشمال، ومن الشرق أبناء عمه أحفاد جغطاي، واستمر ذلك حتى هلك عام ٦٨٠، وقام مكانه أخوه تكودار.

٣ ـ تكودار:

تولّى الحكم بعد أخيه أباقا خان، واعتنق الإسلام إذ كان أبوه هولاكو قد عهد بتنشئته إلى مربيين من المسلمين، وتسمّى باسم أحمد، وقد حاول الاتصال بسلطانِ المماليك المنصور قلاوون لإنهاء الخلافات والحروب بين الطرفين بعد صلح بينهما، وأرسل وفداً إلى مصر لهذه الغاية عام ٦٨١ فوصل الوفد في شهر رجب وعاد في شهر شوال من العام نفسه. ورجع الوفد ثانية إلى مصر، ولكن أثناء سيره جدّت أشياء إذ قُتل أمير التتار المسلم أحمد، على يد ابن أخيه أرغون بن أباقا خان الذي تسلّم الأمر مكانه. وقد وجد الوفد صعوبةً في وصوله إلى دمشق إذ لم يعلم بخبر مقتل السلطان أحمد، وقد التقى بالمنصور قلاوون بدمشق فأخبر الوفد بما تمّ وأنه لا داعي للمفاوضات، وبقي الوفد بدمشق، وسافر السلطان قلاوون إلى مصر، وتوفي رئيس وفد التتار عبد الرحمن شيرازي بدمشق، وسجن بعض أعضاء الوفد، وأطلق سراح بعضهم الآخر، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم.

٤ ـ أرغون:

ثار على عمه أحمد تكودار إذ نقم عليه لإسلامه ومحاولة الصلح مع أعداء التتار المماليك فقتله وتسلّم مكانه عام ٦٨٣، واضطهد المسلمين، وصرفهم من المناصب التي كانوا يشغلونها، وتحالف مع الأرمن والصليبيين ضد السلطان المنصور قلاوون، وضد خان مغول الشمال تدان مانكو الذي أسلم، وأعلن عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وراسل السلطان قلاوون، ثم هلك أرغون هذا عام ٦٩١، وخلفه أخوه كيخاتو بن أباقاخان.

٥ ـ كيخاتو:

تولّى إمرة الأسرة الإيلخانية بعد أخيه أرغون، وسار على نهجه، ولكنه لم يلبث طويلاً إذ قتل بعد مدة من حكمه (٦٩٣)، وخلفه ابن عمه بيدو بن طرخاي بن هولاكو.

٦ ـ بيدو:

ولم يلبث أن قتل أيضاً عام ٦٩٥ لسوء خلقه.

٧ ـ غازان:

وهو غازان بن أرغون بن أباقا بن هولاكو.

نشأ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام عام ٦٩٤، وتسمّى باسم محمود، وآل إليه أمر الدولة الإيلخانية عام ٦٩٥. وعندما أسلم غازان أسلمت معه أسرة تولوي كلها، وأسلم معه كذلك سبعون ألفاً من التتار، وغدت الدولة الإيلخانية مسلمةً. إلا أن هذا الإسلام لم يحل دون قتال المسلمين والعمل على حربهم.

في عام ٦٩٨ قرر غازان غزو بلاد الشام بعد أن وصل إليه نائب دمشق الأمير قبجق مع عددٍ من كبار الأمراء، وأرسل قائده سلامش على رأس خمسة وعشرين ألفاً لجمع الجنود من آسيا الصغرى ويتقدّم بعدها إلى الشام، وأن يسير هو بمن معه من ديار بكر ويكون اللقاء بينهما على نهر الفرات، غير أن سلامش قد طلب الأمر لنفسه فأرسل له غازان قواتٍ تحاربه، وعاد هو وقبجق إلى تبريز، وقد التقت قوات قازان مع قوات سلامش في ٢٥ رجب، وهُزم سلامش وفرّ إلى دمشق، غير أن نائب حلب سيف الدين بلبان قد وجهه على رأس قوةٍ عسكريةٍ إلى ماردين في شهر رمضان من العام نفسه فنهبوا ضواحيها، وإن كان أمير ماردين المنصور الأرتقي الذي آلت إليه الإمارة عام ٦٩٣ كان يُراسل المماليك من جهة، ويُظهر الطاعة لغازان الذي كان يعدّه من أكبر مخلصيه. وربما كانت غارة سلامش على ماردين سبباً، في غزو غازان لبلاد الشام عام ٦٩٩ لكن دون أن يحرز نصراً. وقد برّر غازان هذا الهجوم بكتاب وجهه إلى الناصر محمد بن قلاوون، وبرّر انسحابه من الشام بإرضاء أهل الشام، وأعلمه بأن قوات من مصر قد اتجهت لقتاله، وهو لا يريد حرب المسلمين، وأرسل الناصر محمد بن قلاوون وفداً للمفاوضة ولكن لم تجد المفاوضات واستمر الصراع بين الطرفين.

وضعف أمر التتار في ديار بكر حتى إن الأهالي هناك قد بدؤوا يتتبعون التتار ويقتلون منهم ما استطاعوا قتله، وقد انشق جنكلي بن البابا حاكم آمد التتري، واتجه إلى مصر مع عددٍ من كبار أمراء التتار سنة ٧٠٣. غير أن غازان قد أرسل إلى نائب دمشق عز الدين أيبك يدعوه إلى الطاعة لزيادة قوة المسلمين إذ أن قوات المماليك تعيث الفساد بغاراتها على ماردين وديار بكر، ويبرر ذلك بالحملة التي قادها إلى بلاد الشام، ولكنها كانت هزيمةً منكرةً في شقحب، وهي التي اشترك فيها الخليفة بنفسه والسلطان، كما اشترك ابن تيمية، وقد اجتمعت هناك جيوش الشام وجيوش مصر وهزمت التتار الذين ولّوا الأدبار، وفقدوا الكثير منهم، بل لم ينج إلا القليل، وذلك في رمضان من عام ٧٠٢.

أما بالنسبة إلى مغول الشمال، فقد هدد الخان طقطاي غازان أن يسلم له مراغة وتبريز، ولكن غازان رفض ذلك، فسار طقطاي إلى جهة العراق غير أن غازان كان قد هزم في بلاد الشام فلم يتجه للقتال ثم لم يلبث أن توفي عام ٧٠٣، وخلفه أخوه أولجايتو.

٨ ـ أولجايتو:

شبّ على النصرانية ثم اعتنق الإسلام، وتولّى الحكم بعد أخيه غازان، وتسمّى محمد خرابنده، وأظهر الرفض عام ٧٠٩، وحاول أن يفرض هذا على رعيته. وتزوج ابنه صاحب ماردين (دنيا خاتون) عام ٧٠٩، غير أن أباها قد خطب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٠، إذ كان يحاول أن يستفيد من وضعه فيحافظ على توازن القوى، أو يحاول أن يخفّف من غارات نواب المماليك في الجهات الشمالية على بلاده. ولكنه رجع عام ٧١١ يستقبل أمراء المماليك الفارين من مصر والشام، فقد استقبل في هذا العام مع أمراء التتار نائب الشام قره سنقر والأفرم، لكنه في العام التالي ٧١٢ توفي صاحب ماردين الملك المنصور نجم الدين إيلغازي، وخلفه عليها ابنه الملك العادل علاء الدين علي.

شجّع قره سنقر والأفرم السلطان محمد خرابنده على غزو الشام ومصر، ولكنه لم يجرؤ، وسار في العام الثاني ٧١٢ مع صاحب ماردين وحاصروا الرحبة في شهر رمضان طيلة الشهر، وكان سلطان مصر والشام الناصر محمد بن قلاوون قد اتجه نحو عدوه، فانسحب خرابنده.

وفي عام ٧١٣ قام خرابنده بحملة ضد خان مغول الشمال طقطاي ومشى معه صاحب ماردين، والأمير المملوكي قره سنقر، وتمكّن من الانتصار بفضل قوة وشجاعة قره سنقر، فراسل طقطاي سلطان مصر، وشكا له ما حلّ به، وعزا هزيمته إلى شجاعة قره سنقر وقوته، وطلب مده بالأسلحة لإعادة الجولة، وتمّ الاتفاق بين الاثنين للهجوم بوقتٍ واحدٍ على خرابنده إلا أنه لم يتم شيء من هذا إذ توفي طقطاي من عامه ذاك، وخلفه ابن أخيه محمد أوزبك.

وفي عام ٧١٥ أرسل سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون قوةً من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي للإغارة على ماردين، فأغار، ووجد في طريقه قوة من التتار قوامها ألف فارس جاءت إلى ماردين لأخذ الضرائب، فهاجمهم قرطاي، وقتل منهم ستمائة فارس، وأسر مائتين، وأخذ ما معهم. وفي شهر شعبان من العام نفسه أغارت قوة من حلب قوامها خمسة آلاف فارس على آمد، واستولت على بعض المواقع، وقتلت ونهبت وعادت.

وفي عام ٧١٦ سار حميضة بن أبي نمي من مكة إلى محمد خرابنده لينصره على أهل مكة، فساعده الروافض، وجهزوا معه جيشاً في خراسان، ولكن مات محمد خرابنده فرجع حميضة خائباً، وخلف خرابنده ابنه أبو سعيد.

٩ ـ أبو سعيد بهادور خان:

تولّى حكم الدولة الإيلخانية، وهو صغير، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وفي عهده عادت السنة إلى الدولة بعد أن اتخذ أبوه الرفض مذهباً له. كان جوبان وزير أبيه قد استدعى محمد أوزبك خان مغول الشمال

ليتسلّم البلاد فإن الصغير لا يمكنه أن يضبطها إلا أن محمد أوزبك قد رفض القدوم، فاستأثر جوبان بالأمر فأغضب ذلك الأمراء فكاتبوا محمد أوزبك خان مغول الشمال، ويبسورخان قائد جند تركستان وبلاد ما وراء النهر، وهو من أحفاد جغطاي، وكان ييسور يحكم قسماً من خراسان، فتقدّم ودخل القسم الآخر، ووصل إلى مازندران، وطلب من محمد أوزبك أن يتقدّم من الطرف الآخر.

أرسل أبو سعيد جيشاً إلى محمد أوزبك إلا أن هذا الجيش قد هُزم، فسار بنفسه، وأرسل جيشاً آخر إلى ييسور بإمرة جوبان الذي تمكّن من إحراز النصر على ييسور، وإخراجه من خراسان، ثم بعث أبو سعيد إلى جوبان يطلب منه أن يسير بالقوات التي معه إليه ليواجه محمد أوزبك، ولكنه لم يحدث قتال لأن محمد أوزبك قد انسحب من الميدان عندما علم بهزيمة ييسور.

عاد أبو سعيد وجوبان إلى قاعدة الملك في أصفهان، وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا محمد أوزبك وييسور، ونكّلوا بهم، وقد استطاع بعضهم الفرار والتوجّه إلى محمد أوزبك، وحرّضوه على قتال أبي سعيد، فاتصل أوزبك بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون لدعمه، إلا أن الناصر قد اعتذر لوجود مفاوضات بينه وبين أبي سعيد من أجل الصلح، وقد تمّ بالفعل هذا الصلح.

واتفق محمد أوزبك مع كبك ملك بلاد ما وراء النهر الذي تسلّم الأمر بعد مقتل ييسور عام ٧٢٠، ولكن أوزبك قد توفي عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمود جاني بك فاستطاع أن يأخذ أذربيجان من نائبها الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان، ونصّب ابنه محمد بردي مكانه.

وبدأ الوضع يتأخر في الدولة فأصبح نواب المناطق في شبه استقلال، وظهرت أطماع من الأمراء التتار في عددٍ من الجهات، وعندما توفي أبو سعيد عام ٧٣٦، ولم يكن لأبي سعيد عقب، فاختلف أهل دولته، وانقرضت الدولة الإيلخانية.

نصّب رجال الدولة عليهم موسى خان، وقام بتدبير الحكم علي باشا أحد أمراء البلاد. وكان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا بن هولاكو معتقلاً

في بلاد آسيا الصغرى، فأُطلق سراحه، فوصل إلى بغداد فخلع موسى خان، وولّى مكانه محمد بن عنبرجي أحد أفراد الأسرة الإيلخانية، وتمكّن الشيخ حسن من بغداد وتبريز، ، وأسس الدولة الجلائرية.

سار من آسيا الصغرى حسن بن دمرداش فغلب على تبريز، وقتل محمد بن عنبرجي، فسار الشيخ حسن إلى بغداد واستقر فيها، بينما استقر حسن بن دمرداش في تبريز ونصّب (صاتبيك) أخت أبي سعيد سلطانةً على تبريز وزوّجها من أحد أسباط هولاكو، ويُدعى سليمان، إلا أن أولاد جوبان قد استولوا على أذربيجان وتبريز.

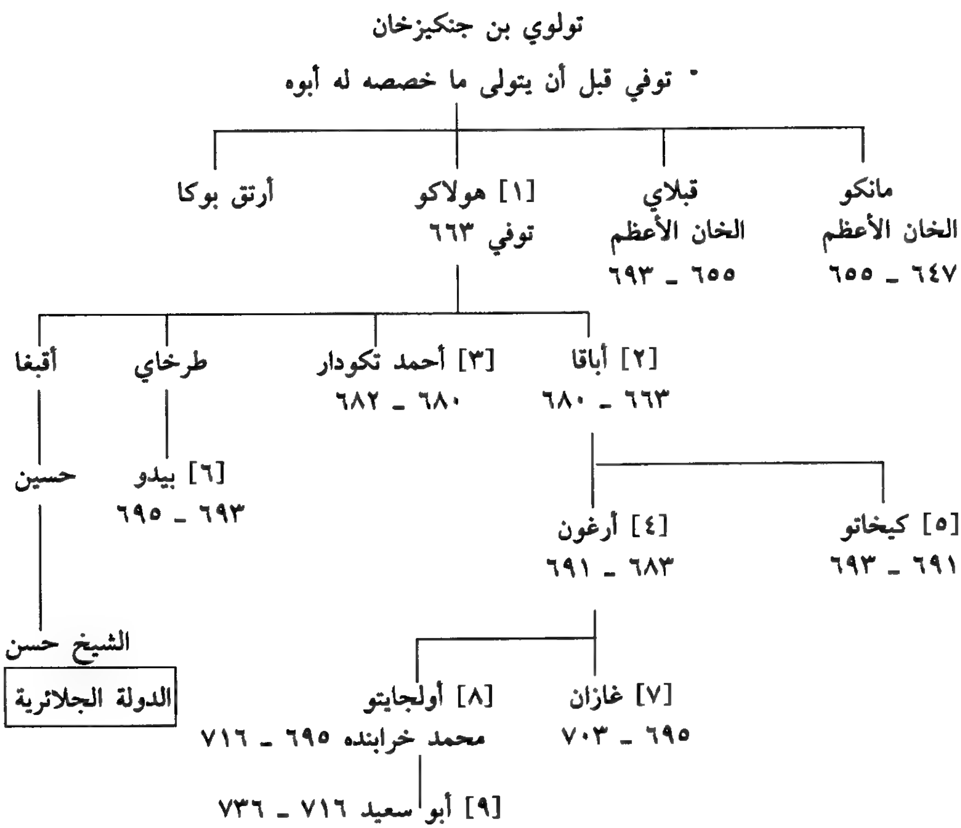

أما ديار بكر فقد استولى عليها إبراهيم شاه بن بارنباي بن سنوتاي. واستولى أرتنا على آسيا الصغرى. وقطع الأراتقة في ماردين ونواب التتار في تلك الجهات الخطبة عن خانات العراق سواء الإيلخانيين أم الجلائريين.

واستولى على بلاد خراسان طغيمتر من بني جنكيزخان. وهكذا تجزأت الدولة الإيلخانية.

بقي الشيخ حسن الجلائري في بغداد حتى توفي عام ٧٥٨ فخلفه ابنه أويس الذي حكم بغداد مدة ثماني عشرة سنة (٧٥٨ ـ ٧٧٦) واختلف أبناؤه من بعده، إذ قام علي بن أويس في بغداد، وحسين بن أويس في تبريز. ولكن جاء شجاع بن المظفر اليزدي، واحتل تبريز فانتقل حسين بن أويس إلى أخيه علي في بغداد، ثم ثار على أخيه في بغداد وخلّصها منه، كما سار إلى تبريز واسترجعها من شجاع بن المظفر الذي اتجه نحو أصفهان وأسس دولة هناك. وتمكن حسين بن أويس من بغداد وتبريز، ولكن لم يلبث علي بن أويس أن عاد فانتزع بغداد من أخيه حسين. واستقر علي في بغداد، وحسين في تبريز وعنده أخوه أحمد.

غادر أحمد بن أويس تبريز مغاضباً أخاه حسيناً وانتقل إلى أردبيل، ثم رجع إلى تبريز وامتلكها من أخيه حسين الذي اختفى إلا أنه قد قبض عليه وقتله، ثم اتجه إلى بغداد وامتلكها من أخيه الآخر علي، وبقي أحمد في بغداد حتى جاء تيمورلنك فدخل بغداد عام ٧٩٦، وفر أحمد بن أويس إلى مصر ملتجئاً إلى الظاهر برقوق.

الفصل الثالث

أسـرة جغطاي

كان من نصيب جغطاي الابن الثاني لجنكيزخان من إمبراطورية أبيه بلاد الأويغور، وتركستان، وما وراء النهر. وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظة على تعاليم أبيه المحصورة فيما يعرف باسم «الياساق». وقد تسلّم جغطاي منطقته بعد وفاة أبيه عام ٦٢٤، وبقي خاناً عليها حتى توفي عام ٦٤٠. وتسلّم أمر هذه الأسرة حفيده قره هولاكو بن موتوكن، ويبدو أن والده كان قد توفي في حياة أبيه، وبعد ست سنوات من قيامه بأمر هذه الأسرة اختلف مع يسومنكو الذي نازعه الزعامة وأخذها منه لمدة أربع سنوات غير أن قره هولاكو تمكّن عام ٦٤٩ أن يرجع إلى السلطة، وأن يوحّد أبناء جغطاي تحت نفوذه، وأطلق عليه اسم خان أسرة جغطاي، وقد حكمت بعد مدة هذه الأسرة (أركنه خاتون) حتى عام ٦٥٩، وخلفها آلغوخان الذي استمرت سلطته خمس سنوات حيث جاء إلى الحكم مبارك شاه عام ٦٦٤، وقد نشأ مبارك شاه على الإسلام إذ ربته على ذلك أمه «أرغنه» زوجة قره هولاكو، وقد طالب بالعرش الذي كان مثار نزاع، وتمكّن من الحصول عليه، ولكن لم يلبث ابن عمه براق خان أن خلعه، وتسلّم مكانه، ولم يكن لإسلام مبارك شاه أثر كبير إذ لا نلاحظ في أسماء أبنائه ما يدل على إسلامهم أو اعتناق دين أبيهم.

خلع براق خان ابن عمه مبارك شاه عن الخانية عام ٦٦٤ وتسلّم أمرها، وقد قاتل ابن عمه قيدو ابن قاشين خان أسرة أوغطاي وانتصر عليه، واستبد بما تحت يده، وقد توفي عام ٦٧٠، ويقال: إنه قبل أن يموت

بعدة أيام اعتنق الإسلام، ولكنه عندما توفي دفن حسب طقوس المغول الوثنية، ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي، كما يقال: إنه قد تلقّب باسم السلطان غياث الدين في أيامه الأخيرة التي اعتنق فيها الإسلام.

خلف براق خان الأمير نيكوباي ولكن لم يطل أمره بأكثر من عام (٦٧٠ ـ ٦٧١)، وقام بعده توقاتيمور، وقد استمر عشر سنوات في حكمه (٦٧١ ـ ٦٨١)، وخلفه (دوداخان) الذي زادت مدته على خمس وعشرين سنة ويعدّ الأول في سني حكمه بين خانات أسرة جغطاي، وعند وفاته قام قونجوق خان لمدة سنتين (٧٠٦ ـ ٧٠٨)، ثم تاليقوخان لمدة سنةٍ واحدةٍ حيث خلعه أخوه كبك خان واستلم الأمر منه، وبعد أقل من سنة خُلع أيضاً كبك خان، وتسلطن أسنبوغا عام ٧٠٩.

وقع القتال بين (طقطاي) خان مغول الشمال وبين (أسنبوغا) خان بلاد ما وراء النهر، وقد انتصر طقطاي على مغول ما وراء النهر، وهذا ما كان له أثر في عودة كبك خان للمرة الثانية إلى الحكم عام ٧١٨ بتأثير مغول الشمال. واتفق كبك خان مع محمد أوزبك خان الشمال على قتال أبي سعيد خان الدولة الإيلخانية على أن يتقدّم كل منهما من جهته في أملاك الدولة الإيلخانية، إلا أن ييسور قد هزم أمام قوات أبي سعيد التي كانت بإمرة جوبان، وتراجعت قوات ييسور قائد جيوش ما وراء النهر، ثم إن ييسور قد قُتل عام ٧٢٠، ولم يحدث قتال مع قوات مغول الشمال إذ انسحب محمد أوزبك من منطقة القتال قبل أن يحدث عندما وجد قوات مغول ما وراء النهر تتراجع، غير أن الاتفاق قد تجدد عام ٧٢١ بين أوزبك وكبك لإعادة الكرة إلا أن كبك قد انتهى أمره في ذلك العام، وتبعه محمد أوزبك في العام الذي تلاه.

ضعفت الدولة في بلاد ما وراء النهر بعد الهزيمة التي حلّت بها أمام الإيلخانية، وتسلّم الأمر إيلغي كداي لعدة أشهر من عام ٧٢١، كما تسلّم السلطة بعد دوداتيمور لعدة أشهر أخرى. ولا شك فإن اتساع أرجاء الدولة بعد السيطرة على منطقة أسرة أوغطاي على الأقل القسم الغربي منها وهو

منطقة تركستان منذ أيام دوداخان كان له أثر كبير في الضعف الذي حلّ بالدولة حيث كان الخانات على درجة من الضعف لا تمكنهم من السيطرة على منطقة واسعةٍ.

تسلّم أمر أسرة جغطاي عام ٧٢٢ طرماشيرين، وقد أسلم وأسلم معه أكثر أفراد أو على الأقل معظم أمراء أسرة جغطاي، ولكن هذا الإسلام لم يتعمق في النفوس بشكل جيد، إذ أنه لا يزال حديثاً، والدخول فيه كان تقليداً ومجاراة أو مسايرة للخان. وقد التقى ابن بطوطة مع هذا السلطان، واستمرت مدته ثلاث عشرة سنة (٧٢٢ ـ ٧٣٥). ويبدو أن طرماشيرين لم تكن له السيطرة على كل أرجاء المملكة وخاصة في أواخر حياته إذ نلاحظ في أعداد الخانات لهذه الأسرة سنجر (٧٣٠ ـ ٧٣٤) وجنكشاي (٧٣٤ ـ ٧٣٥) ويبدو أن نفوذهما كان على بعض جهات المملكة، إذ أن الدولة تفككت بين معتنق للإسلام ومعاد، وقد عُرف الحكام الذين احتفظوا بوثنيتهم باسم مغولستان، وعُرف السكان باسم «الجاثيون» أي اللصوص. وتمكّن «بوزون» عام ٧٣٥ من طرد طرماشيرين من الخانية، واضطهد المسلمين. وحدثت خلافات كثيرة بين الأمراء، فقد جاء إلى السلطة أسن تيمور بعد بوزون عام ٧٣٩ وبقي سنتين.

إلا أن المسلمين قد تمكّنوا من تنصيب علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين أيضاً، وخلفه مسلم آخر من أسرة جغطاي اسمه محمد لمدة سنة واحدة (٧٤٣ ـ ٧٤٤) ثم قازان لمدة ثلاث سنوات (٧٤٤ ـ ٧٤٧)، وبعد وفاة قازان انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة، وتمكّن الأمراء الأتراك من إحراز النصر على المغول في بلاد ما وراء النهر. وإذا كان قد نُصّب دانشمندجة على قسم من بلاد ما وراء النهر، وهو من أسرة أوغطاي لمدة سنتين، وبعده رجع الخان بويان قولي من أسرة جغطاي فحكم لمدة إحدى عشرة سنة غير أن أوضاع بلاد ما وراء النهر كانت مجزأة، وأجزاء واسعة منها تحت سيطرة الأمراء الأتراك، وهذا ما حدا بأحد أمراء المغول أن يستقل في القسم الشرقي من تركستان.

٦٢٤ ـ ٦٤٠ جغطاي

موتوكن. توفي في حياة أبيه

٦٤٠ ـ ٦٤٥ قره هولاكو

٦٤٥ ـ ٦٤٩ يسومنكو

٦٤٩ ـ ٦٥٠ قره هولاكو «للمرة الثانية»

٦٥٠ ـ ٦٥٩ أرغنة خاتون زوجة قره هولاكو

٦٥٩ ـ ٦٦٤ آلغو

٦٦٤ ـ ٦٦٤ مبارك شاه

٦٦٤ ـ ٦٧٠ براق خان

٦٧٠ ـ ٦٧١ نيكوباي

٦٧١ ـ ٦٨١ توقاتيمور

٦٨١ ـ ٧٠٦ دوداخان

٧٠٦ ـ ٧٠٨ قونجوق خان

٧٠٨ ـ ٧٠٩ تاليقوخان

٧٠٩ ـ ٧٠٩ كبك خان

٧٠٩ ـ ٧١٨ أسنبوغا

٧١٨ ـ ٧٢١ كبك خان «للمرة الثانية»

٧٢١ ـ ٧٢١ إيلغي كداي

٧٢١ ـ ٧٢٢ دوداتيمور

٧٢٢ ـ ٧٣٥ طرماشيرين — سنجر ٧٣٠ ـ ٧٣٤

٧٣٥ ـ ٧٣٩ بوزون خان — جنكشاي ٧٣٤ ـ ٧٣٥

٧٣٩ ـ ٧٤١ أسن تيمور

٧٤١ ـ ٧٤٣ علي من أسرة أوغطاي

٧٤٣ ـ ٧٤٤ محمد

٧٤٤ ـ ٧٤٧ قازان

٧٣٠ ـ ٧٣٤ سنجر

٧٣٤ ـ ٧٣٥ جنكشاي

٧٤٧ ـ ٧٤٩ دانشمندجة من أسرة أوغطاي

٧٤٩ ـ ٧٦٠ قبول خان

٧٤٩ ـ ٧٦٤ توغلق تيمور

٧٦٤ ـ ٧٦٨ إلياس خواجه بن توغلق تيمور

٧٦٨ ـ ٧٧١ قمر الدين

تيمورلنك اسمياً:
- ٧٧١ ـ ٧٩١ سيورغتمش بن دانشمندجة من أسرة أوغطاي
- ٧٩١ ـ ٨٠٠ محمود بن سيورغتمش

المغول في تركستان:

استقل توغلق خان من أسرة جغطاي في كاشغر من أعمال تركستان الشرقية عام ٧٤٨، وأعلن أنه حفيد دوداخان، وقد استطاع أن يضمّ إليه بلاد ما وراء النهر، وفي أيامه دخلت أعداد من المغول تزيد على مائة وستين ألفاً في الإسلام، واستمر حكمه مدة ست عشرة سنة (٧٣٨ ـ ٧٦٤) وخلفه ولده إلياس خواجه، وقد أضاع المغول في أيامه بلاد ما وراء النهر، كما اغتصب الحكم منه زعيم يعرف باسم «قمر الدين» حتى عام ٧٩١ حيث رجعت السلطة بعد ذلك إلى خضر خواجه بن توغلق تيمور حتى عام ٨٠١، فابنه شمع جهان، وتوالى الحكام حسب التسلسل الآتي:

٧٤٨ ـ ٧٦٤	توغلق تيمور
٧٦٤ ـ ٧٧٦	إلياس خواجه بن توغلق تيمور
٧٧٦ ـ ٧٩١	قمر الدين
٧٩١ ـ ٨٠١	خضر خواجه بن توغلق تيمور
٨٠١ ـ ٨١٠	شمع جهان بن خضر خواجه
٨١٠ ـ ٨١٨	محمد خان بن خضر خواجه
٨١٨ ـ ٨٢١	نقش جهان بن شمع جهان
٨٢١ ـ ٨٢٤	أويس خان بن شير علي بن خضر خواجه
٨٢٤ ـ ٨٢٨	شير محمد بن شاه جهان بن خضر خواجه
٨٢٨ ـ ٨٣١	أويس خان للمرة الثانية
٨٣١ ـ ٨٣٨	مرحلة من الاضطراب
٨٣٨ ـ ٨٦٦	أسن بوغا بن أويس خان
٨٦٦ ـ ٨٦٦	يونس خان بن أويس خان
٨٦٦	دوست محمد بن أسن بوغا

حدثت مرحلة من الاضطراب وانقسمت الدولة إلى عدد من الإمارات، قام بعضها في (اقصو)[1] و (طُرفان)[2]. وقد حكم هناك كبك سلطان بن

(١) اقصو: مدينة تقع على أحد روافد نهر تاريم، شمال شرقي كاشغر على بُعد ٤٢٠ كيلومتراً منها.

(٢) طُرفان: واحة واسعة على بعد ٧٨٠ من اقصو إلى الشرق منها مع انعطاف قليل إلى الشمال، وتقع دون مستوى سطح البحر (ـ ١٥٤م).

دوست محمد مدة أربع سنوات (٨٧٣ ـ ٨٧٧)، ثم محمود خان بن يونس، وأحمد خان بن يونس (٨٩٠ ـ ٩٠٨)، ومنصور خان بن أحمد (٩٠٨ ـ ٩٥٠)، وقد حكم أحد الثائرين كاشغر، ويارقند حتى عام ٩٢٠، وتمكّن سيدخان بن أحمد أن يستعيد سلطته على كاشغر (٩٢٠ ـ ٩٣٩) وخلفه ابنه عبد الرشيد خان (٩٣٩ ـ ٩٧٨)، أما طرفان فقد حكمها شاه خان بن منصور بعد وفاة والده (٩٥٠ ـ ٩٧٨) ثم انتهى أمر هذه الأسرة المغولية في هذا العام. وكثيراً ما كانت قراشار[١] تتبع الحكومة في طرفان.

---

(١) قراشار: مدينة بين اقصو وطرفان، على بحيرة تحمل اسمها، ينتهي فيها المجاري المائية المنحدرة من جبال تيان شان، وهي الجبال التي تفصل حوض زونغارية عن حوض نهر تاريم، وكلاهما من بلاد تركستان الشرقية، ويبلغ ارتفاع هذه البحيرة (١٠٣٠م) عن سطح البحر.

الفصل الرابع

أسـرة أوغطاي

بعد وفاة جنكيزخان عام ٦٢٤ خلفه ابنه أوغطاي كخانٍ أعظم للصين مقره قره قورم، كما كان نصيبه من إمبراطورية والده منغوليا مقر حكمه، وبلاد الخطا التي تشمل الأجزاء الشرقية من تركستان أي زونغاريا وحوض نهر تاريم، والصين ٌوكل ما يمكن ضمّه من ناحية الشرق إلى نهاية المعمورة. وأُعلنت له الطاعة عام ٦٢٦ من قبل المغول جميعاً في مؤتمرهم الذي عقد في ذلك العام بعد عامين على مرور وفاة جنكيزخان حزناً عليه أو حداداً عليه. وقد اتسعت في عهد أوغطاي منطقة نفوذ المغول سواء من ناحية الشرق في الصين أم من ناحية الغرب على حساب دولة خوارزم، وفي أوروبا أيضاً بقيادة ابن أخيه باتو بن جوجي بن جنكيزخان.

وبيدو أن المغول قد هزموا في جهة الشرق في بعض المعارك على الأقل، فدعا «أوغطاي» المغول لعقد اجتماع لتدارس الأمر في مقر الحكم في قره قورم (أولان باتور) قاعدة منغوليا اليوم، إلا أنه في هذه الأثناء قد توفي خان المغول الأعظم «أوغطاي»، وانتخب ابنه «كيوك» مكانه وكان في المجر يُقاتل تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي، فتأثر باتو وإخوته من هذا التعيين فرفضوا حضور ذلك الاجتماع، وريثما حضر «كيوك» من أقصى غرب الإمبراطورية سيّرت أمه «توراكينا» له أمور الدولة، وحصل فراغ في السلطة لعدة سنوات (٦٣٩ ـ ٦٤٤).

وصل «كيوك» إلى مقر حكم المغول عام ٦٤٣، واحتفل بتنصيبه عام

٦٤٤، وتنصّر تحت تأثير مربيه من النصارى، وانتشرت في أيامه أعداد من الرهبان في بلاد المغول، واختلف مع ابن عمه باتو وأرسل جيشاً لقتاله، وقبل أن يلتقي الطرفان توفي «كيوك» عام ٦٤٧.

نُصّب مانكو بن تولوي خاناً أعظم للمغول بتأثير باتو بن جوجي، وهكذا انتقلت الخانية العظمى للمغول من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي»، وحقد أولاد «أوغطاي» على هذا الأمر إلا أنه قد خرج من أيديهم، وكان كبيرهم «قاشين» أخو «كيوك».

نُصّب بعد وفاة مانكو عام ٦٥٥ أخوه «قوبيلاي»، وكان معه في طريقهما إلى قتال بعض ملوك بلاد الخطا الذين خرجوا عن طاعته، وكان قد عيّن أخاه الأصغر أرتق بوكا لإدارة شؤون المملكة مكانه، واستمسك أرتق بوكا بالحكم وكان يدعمه ابن عمه بركة خان مغول الشمال، وابن عمه الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي، والتقى قوبيلاي مع أخيه أرتق بوكا في قتال اضطر معه أخوهم الرابع هولاكو أن يترك القتال في الغرب عام ٦٥٨، وأن يعود إلى مقر حكم المغول في قره قورم، واستطاع أن يعيد قيدو بن أوغطاي إلى الطاعة هو وإخوته، ونصّب أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول، وعاد إلى قاعدته في الغرب.

نقل قوبيلاي حاضرة ملكه من قره قورم في منغوليا إلى بكين عاصمة الصين، وأسس هناك أسرة حكمت المنطقة تلك، أما القاعدة القديمة فقد بقي فيها أبناء أوغطاي، وكانوا على صلة بأبناء عمومتهم أحفاد جغطاي فاختلطت السلطة بعضها مع بعض.

توفي قيدو بن قاشين بن أوغطاي عام ٧٠٤ وخلفه ابنه «شابار»، وكان قيدو قد قاتل براق خان من أسرة جغطاي ولكنه هُزم أمامه، وأصبح براق خان سيد الموقف، كما كان قيدو يوالي المسلمين، ويعضد ابن عمه بركة خان المسلم الذي قاتل ابن عمه هولاكو، وراسل الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكي الذي كان يقف في وجه هولاكو. ومع هزيمة قيدو أمام براق خان فإن خلفاء الجغطائيين، ومنهم (دوداخان) قد وافقوا على

زعامة شابار مكان أبيه قيدو، ثم جرت حروب بين الجغطائيين والأوغطائيين رضخ بعدها الأوغطائيون إلى دوداخان الجغطائيين الذين أصبحوا خانات بلاد ما وراء النهر وتركستان كلها وخضع لها الأوغطائيون، غير أنه قد تولّى أمر هذه المملكة الواسعة علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين من عام (٧٤١ ـ ٧٤٣) إذ كان الإسلام قد عم المنطقة منذ أيام طرماشين (٧٢٢ ـ ٧٣٥)، وبعد أربعة أعوام حكمها في خلالها محمد، وقازان من أسرة جغطاي عاد دانشمندجة إلى حكم المنطقة وهو أخو شابار أي من أسرة أوغطاي.

بعد دانشمندجة الذي توفي عام ٧٤٩ عادت السلطة إلى أسرة جغطاي حيث تولّى الأمر قبول خان بجهود الأمير حسين بن الأمير قزغن، وبقيت السلطة بيد قبول خان حتى عام ٧٦٠ حيث قتله تيمورلنك، وولى مكانه «سيورغتمش» بن دانشمندجة.

وبعد سيورغتمش خلفه ابنه محمود إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد تيمورلنك.

وهكذا يبدو أن أسرة أوغطاي كانت قليلة الحظ في السلطة بعد أن كانت الخانية العظمى بيدها، إذ عهد جنكيزخان من بعده لابنه أوغطاي الذي تنتمي إليه هذه الأسرة.

المغول في الصين:

أما المغول في الصين فقد دخل قوبيلاي عام ٦٧٩ مملكة سونغ في جنوبي الصين، ووحدها مع البلاد التي خضعت له، واتخذ عاصمةً له (خان باليغ).

التي تعني مقر الخان، وهي التي تسمى اليوم بكين. وأما عاصمتهم الأولى قره قورم فقد غدت مركز ولاية.

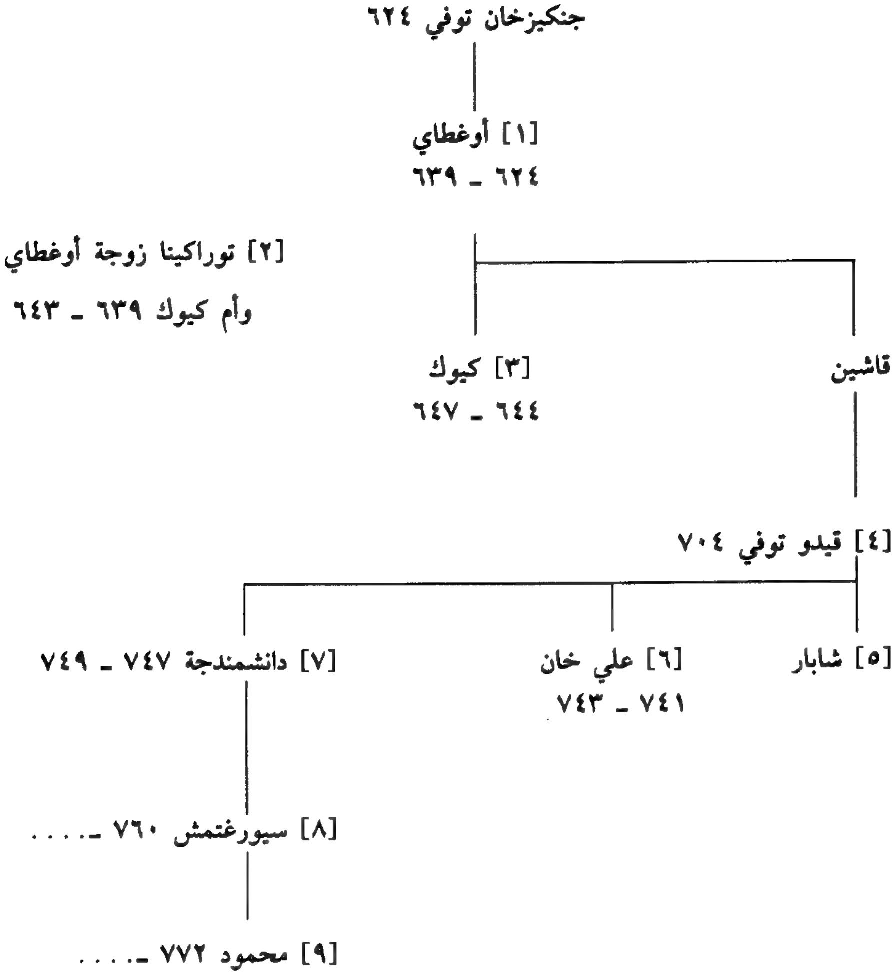

تأسست إمبراطورية مغولية واسعة في الصين، واستمر قوبيلاي في حكمه حتى عام ٦٩٣، وقد عرف حكام هذه الدولة باسم أسرة (يين)، وعندما توفي قوبيلاي خلفه حفيده أولجايتو تيمور، وبقي مدة ثلاث عشرة سنة (٦٩٣ ـ ٧٠٦)، وخلفه ابن أخيه كويوك بن دار مابالا الذي لم يبق في الملك سوى خمس سنوات (٧٠٦ ـ ٧١١) حيث تسلّم بعده أخوه بويانتو لمدة تسع سنوات (٧١١ ـ ٧٢٠)، وقام ابنه غيغن من بعده، وتعاقب عدد من الخانات لمدد قصيرة إذ قام يسون تيمور، وابنه راجي بقا، ثم كوشالا بن كويوك فأخوه جياغاتو، ثم رينغن جال بن كوشالا وهؤلاء الستة

خانات لم تزد مدتهم جميعاً على اثنتي عشرة سنة (٧٢٠ ـ ٧٣٢)، وأخيراً جاء طوغان تيمور فطال أمره إلى عام ٧٧١، وقد عرف حكام هذه الأسرة بالبذخ والترف، وانتشر الإسلام في هذه الإمبراطورية، ويعود بناء أكثر مساجد مدينة بكين إلى هذه المرحلة، كما أن القصور الفخمة الأثرية تعود أيضاً إلى المرحلة نفسها، وقد تمكن أعداء الإمبراطورية من دخول بكين في عهد طوغان تيمور عام ٧٧٠، وفي خلال سنتين أخرج المغول من الصين.

استمرت هذه الممالك في الأجزاء الخارجة عن الصين لذا عرفت باسم الدولة المقصورة أي التي اقتصرت على مساحة بسيطة من الأرض بالنسبة إلى ما كانت عليه، وقد حاولوا التوجه نحو الشمال إلا أن مينغ قد لاحقهم وتمكّن من الانتصار عليهم، وأسر منهم ثمانين ألفاً، وبسط نفوذه عليهم، وإن بقوا يعرفون باسم الخانات إلا أن تعيينهم كخانات كان يأتي من بكين منهم كولاة بالدرجة الأولى. وقد توالى أربعة عشرة خاناً وهم:

١ ـ بيليكتو بن طوغان تيمور	٧٧١ ـ ٧٨٠
٢ ـ أوسوخال بن طوغان تيمور	٧٨٠ ـ ٧٩٠
٣ ـ أتكه سوريكتو بن أوسوخهال	٧٩٠ ـ ٧٩٤
٤ ـ ألبك بن أوسوخال	٧٩٤ ـ ٨٠٢
٥ ـ كون تيمور بن ألبك	٨٠٢ ـ ٨١١
٦ ـ أولغان تيمور بن ألبك	٨١١ ـ ٨١٦
٧ ـ دلبك بن أولغان تيمور	٨١٦ ـ ٨١٧ قتل
٨ ـ آدساي بن خارغو تسوق بن أوسوخال	٨١٧ ـ ٨٣٧
٩ ـ تايسونغ بن آدساي	٨٣٧ ـ ٨٤٣
١٠ ـ أقبارجي بن آدساي	٨٤٣ ـ ٨٥٦
١١ ـ أوككتو بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٥٧
١٢ ـ مولون بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٦٧
١٣ ـ ماندا غول بن آدساي	٨٦٧ ـ ٨٧٥
١٤ ـ دايان خان	٨٧٥ ـ ٩٥٠

وقد تمكن دايان من توحيد قبائل المغول في هذه المدة الطويلة التي حكمها وذلك عام ٨٨٨، وكانت قره قورم حاضرة هؤلاء الخانات. وبعد ذلك تفرقت القبائل فكان لكل قبيلة خان مستقل، وإن كان يجمعهم بعض الروابط، وقد استمر ذلك مدة ٩٧ سنة وتعاقب خمسة خانات، وبعدئذ أصبح المغول يتبعون الصين تماماً ويعدون من رعايا دولة الصين وذلك منذ عام ١٠٤٣.

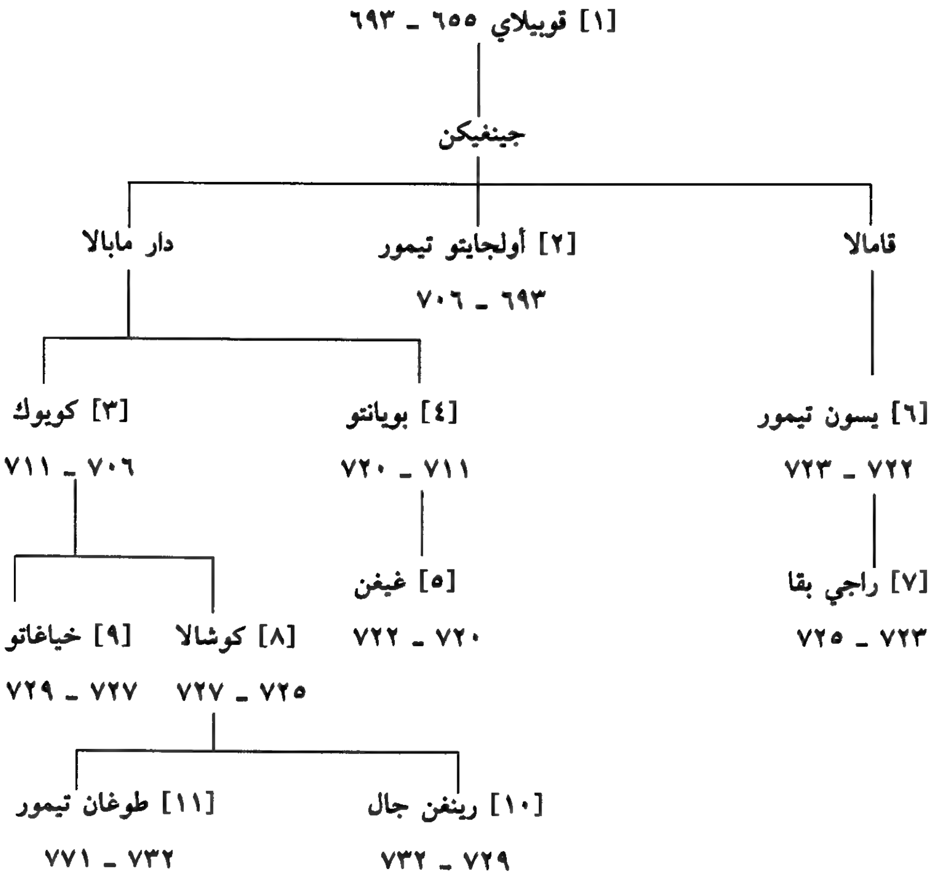

الفصل الخامس

تيمورلنك

تشتت شمل المغول في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري في دولهم كلها، وأصبحت كل دولةٍ أجزاء مبعثرة، فدولة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية تجزأت بين أبنائها، وانقسمت الدولة الإيلخانية إلى عدد من الدويلات إذ استقل كل زعيم بمنطقته وقطع صلته بالإيلخانيين، ومعظم هؤلاء الزعماء ليسوا من المغول وإنما من التركمان، وتوزعت بلاد ما وراء النهر بين أمراء أسرة جغطاي وكذا تركستان، أما أسرة أوغطاي فقد خضعت في تركستان لأسرة جغطاي، وأُخرج من كان منها في الصين حوالي عام ٧٧٣ مع خاناتهم من أحفاد قوبيلاي بن تولوي، وكان الخلاف بين أمراء هذه الأجزاء كثيراً ما يؤدي إلى القتال، في هذه الأثناء ظهر تيمورلنك، وكان الجو مهيئاً له.

استطاع توغلق تيمور خان بلاد التركستان أن يبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر. وأن يضع الولاة على المدن من قبله، وقد تحرّك والي سمرقند نحو مدينة هراة واحتلها، ثم اغتيل أمير سمرقند، واختلف الأهالي على الذي يلي أمرهم، وعمّت الفوضى، وأصبحت المنطقة في شبه ثورة، ووصل الخبر إلى الخان توغلق، فسار بقوة نحو سمرقند، ففرّ من وجهه بعض الأمراء الذين كانوا يظهرون العصيان، وأقبل من كان يبدي الطاعة على الخان وأقسم له يمين الولاء.

جاء الأمير حسين من جهات كابُل يريد إخضاع سمرقند، ولكنه هزم

وفرّ، وهو أخو زوجة تيمورلنك، ومن جهة أخرى فإن عمّ تيمورلنك وزعيم قبيلته «البرلاس» قد أظهر العصيان، واعتصم في بلدته في ضاحية سمرقند، فسار إليه جيش من قبل الخان، فاضطر إلى مغادرتها والفرار منها ولكن قطّاع الطرق قتلوه في أثناء فراره. وخوفاً من تهديم البلدة فقد تقدّم تيمورلنك إلى قائد طليعة جيش المغول وأكرمه، فأمر هذا الضابط جنده ألا يمسّوا هذه البلدة بسوء، كما طلب من تيمورلنك أن يسير معه إلى الخان، ففعل فكافأه الخان بأن جعله والياً على مدينة «كش».

ينتمي تيمورلنك إلى قبيلة «البرلاس» التركية، وقد كان أحد أجداده، وهو «قراجا رنويان» قد دعم جنكيزخان فأحبه، وجعله وصياً على ابنه جغطاي، فبرز بين المغول وعرف. وقد ولد تيمورلنك عام ٧٣٦ في بلدة «كش» التي أصبح والياً عليها فيما بعد، وتزوج من «توركان خاتون» أخت الأمير الفارّ الذي أراد إخضاع سمرقند.

رجع توغلق خان إلى تركستان مقر حكمه بعد أن عيّن ابنه إلياس حاكماً على بلاد ما وراء النهر، كما ألقى بجانبه جيشاً ينفّذ به أحكامه، وأعطى تيمورلنك إمرة مدينة سمرقند. غير أن قائد الجيش المغولي لم يحسن السيرة في معاملة أهل سمرقند فحدث الخلاف في المدينة بين أهلها والجيش المغولي، واشتدّ الوضع على الحاكم فكتب إلى أبيه، فطلب الوالد من أبيه أن يقتل أمير المدينة تيمورلنك، وأحس تيمورلنك بما يدبّر له، ففرّ، والتقى في أثناء هروبه مع أخي زوجته الأمير حسين الهارب أيضاً من المغول، واستطاع تيمورلنك أن يجمع حوله الأنصار، ونازل بهم المغول، وأحرز النصر. وفي هذه الأثناء علم إلياس خان بلاد ما وراء النهر بوفاة والده في تركستان فغادر بلاد ما وراء النهر، واتجه نحو تركستان ليتسلم الخانية العظمى، وبهذه المغادرة أصبحت بلاد ما وراء النهر في قبضة تيمورلنك.

سار الخان إلياس نحو بلاد ما رواء النهر وتمكّن من إحراز النصر

على تيمورلنك، ولكنه لم يستطع دخول سمرقند إذ صمدت في وجهه. ورجع تيمور إلى قاعدة ملكه غير أن الأمير حسيناً أخا زوجة تيمورلنك قد فرض نفسه أميراً على سمرقند، ورضخ تيمورلنك لذلك رغبةً في جمع الكلمة، والوقوف أمام المغول. ولكن هذا الاتفاق لم يدم إذ لم يلبث أن وقع الخلاف، وادعى تيمورلنك أن حسيناً قد أساء معاملته، وحدث القتال، وخرج تيمورلنك منتصراً، وأصبح أمير التتار بعد اجتماع أعيانهم في مدينة بلخ عام ٧٧١. واضطر «قمر الدين» من أسرة جغطاي وهو صاحب الكلمة الاسمية في بلاد ما وراء النهر أن يترك سمرقند، وأن يتجه إلى تركستان، وبذا فقد فقدَ الخان إلياس بلاد ما وراء النهر نهائياً، وأصبح تيمورلنك صاحب الكلمة العليا، فعيّن خاناً اسمياً على البلاد، وهو «سيورغتمش بن دانشمندجة» من أسرة أوغطاي وذلك عام ٧٧١، وبذا أصبحت بلاد ما وراء النهر تحت سلطة أسرة أوغطاي على حين كانت تركستان تحت سلطة أسرة جغطاي وهذا ليضمن عدم اتفاق الطرفين هذا من جهة، ومن جهة ثانية بقي الأمر بيد أحفاد جنكيزخان هم الذين يخضع لهم السكان مغولاً وتتاراً وتركاً.

كان الأمير حسين أخو زوجة تيمورلنك قد بسط نفوذه على خوارزم فسار إليه تيمورلنك وأخذ المدينة من أميرها الذي أدركته المنية في أثناء الحصار. ثم اتجه نحو هراة ودخلها بعد حصار، وحمل معه إلى سمرقند أميرها غياث الدين.

وفي هذه الأثناء هاجم «ماماي» الخان بمنطقة القرم مدينة «سراي» ففرّ منها خانها «توقتاميش»، واتجه نحو سمرقند، والتجأ إلى تيمورلنك فأعانه ورجع إلى بلاده، ودخل مدينة «سراي» منتصراً، وتمكّن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل مدينة موسكو.

وفي المدة ٧٨٢ ـ ٧٨٦ استولى تيمورلنك على خراسان[1]،

---

(١) كان السربداريون في نيسابور، وقد أسس هذه الدولة خواجه عبد الرزاق الذي كان يعمل =

وجرجان، ومازندران(١)، وسجستان(٢)، وأفغانستان، وفارس(٣)، وأذربيجان(٤)، وكردستان.

= جابياً للضرائب في كرمان. وقد قاد عصياناً ضد ظلم المغول وسيطر على المنطقة عام ٧٣٨، وخلفه أخوه وجيه الدين فاستولى على نيسابور، وبقي فيها حتى دخل تيمورلنك المنطقة عام ٧٨٣.

وكان في مدينة هراة دولة بني كرت التي أسسها شمس الدين مجمد عام ٦٤٣، وخلفه ولده ركن الدين، وخدموا الدولة الإيلخانية، وقد استولى تيمورلنك على هراة عام ٧٨٤، وأعدم أفراد أسرة بني كرت جميعاً.

(١) سار تيمورلنك إلى مازندران ودخلها عام ٧٨٦، وقضى فصل الشتاء في الري.

(٢) أغار تيمورلنك على سجستان عام ٧٨٥، ثم اتجه إلى الشمال فضم إليه جرجان ومازندران عام ٧٨٦.

(٣) حكم فارس في عهد الإيلخانيين شرف الدين محمود إينجو، واستقل فيها عام ٧٢٥، واعترف له بذلك الأمير شوبان الذي حكم حتى عام ٧٢٧، وخُلع شوبان، وخلفه أرباخان فأعدم شرف الدين محمود إينجو الذي ناوأه السلطة، وخُلع أرباخان عام ٧٣٦ وسُلّم إلى أولاد محمود شاه فقتلوه، وسيطر جلال الدين بن محمود شاه على فارس، وأبو إسحاق على يزد، ولكن آل مظفر سيطروا على المنطقة عام ٧٥٨.

كان غياث الدين حاجي قد هاجر من خراسان واستقر في يزد، وخدم واليها، وقام حفيده مظفر الدين بخدمة الإيلخانيين، فعينوه على مَيْبُد إحدى ضواحي أصفهان، وقد توفي عام ٧١٣، وخلفه ابنه مبارز الدين محمد الذي عينه أبو سعيد بها دور خان على يزد، وقد تمكّن من السيطرة على كرمان عام ٧٤١، ثم ضمّ إليه أصفهان ٧٥٨، وخلعه أولاده عام ٧٦٠، لكنه عاد إلى الحكم عام ٧٦٥ ثم مات في تلك السنة، وحكم بعده ولداه جلال الدين وشجاع ٧٦٩ ـ ٧٨٦ وخلف جلال الدين ولده مجاهد الدين علي زين العابدين وبعد وفاته اختلف آل مظفر، فاستولى تيمورلنك على المنطقة ودخل أصفهان عام ٧٨٨، ففر مجاهد الدين إلى الأمير منصور في شوشتر فقبض عليه وسجنه، ثم فر، وعاد فاستولى على أصفهان، وقد تمكن الأمير منصور من القبض عليه عام ٧٩٢، وكان الشاه يحيى المظفري في يزد، والسلطان أحمد في كرمان، والشاه منصور في أصفهان، وقد عاد تيمور فاستولى على المنطقة عام ٧٩٥.

(٤) بعد وفاة أبي سعيد بها دورخان آخر ملوك الإيلخانيين عام ٧٣٦ سيطر شيخ قبيلة تركية وهو الشيخ حسن بزرك على شمال إيران ثم ضم إليه العراق عام ٧٤١، واتخذ بغداد عاصمة له، وتوفي عام ٧٥٧، وخلفه ابنه الشيخ أويس بهادور خان فسيطر على تبريز عام ٧٥٩، ثم ضم إليه الموصل وديار بكر عام ٧٦٦، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ولده جلال الدين حسين فحارب آل مظفر، وحكام أرمينيا عام ٧٧٩، ثم عاد فاتفق معهم، ومات جلال الدين حسين عام ٧٨٤، وانقسمت الدولة بين ولديه، فكانت أذربيجان =

دبّ الخلاف بين توقتاميش وتيمورلنك عام ٧٨٨، إذ هاجم توقتاميش ضواحي سمرقند. ولم يكن تيمورلنك فيها، فلما عاد تيمورلنك إلى قاعدة حكمه رجع توقتاميش إلى بلاده، ولم تمض مدة حتى كرر توقتاميش الغارة وهذا ما شجع خوارزم على إعلان العصيان على تيمورلنك، وتراجع توقتاميش وفي نيته استدراج تيمورلنك إلى بلاد سيبيريا الواسعة ثم ينقض عليه، فسار تيمورلنك نحو الجرجانية إحدى مدن خوارزم، وفعل بأهلها الأفاعيل ليرهب أعداءه ولتكون درساً لمن تسوّل له نفسه إعلان العصيان على تيمورلنك. ورجع توقتاميش مرةً ثالثة للإغارة على مناطق تيمورلنك، فتحرّك تيمورلنك نحوه، ففرّ أمامه توقتاميش قاصداً استدراجه، ثم التقيا على ضفة نهر أورال. وكانت طليعة جيش تيمورلنك بقيادة ابنه عمر شيخ، والقائد سيف الدين، أما بقية الجيش فكان على ميمنته ابنه الصغير ميران شاه، وانتصر تيمورلنك، وفرّ توقتاميش وكان توقتاميش قد اتفق مع خان كاشغر «قمر الدين» من أسرة جغطاي على محاربة تيمورلنك، كما راسل السلطان الظاهر برقوق في مصر للغاية نفسها. وتابع تيمورلنك سيره فدخل مدينة «سراي» عاصمة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية، فعيّن عليها خاناً من قبله وهو «قويرجق بن أرص خان» من أسرة شوبان، أما هو فقد عاد إلى سمرقند، وكان صاحب الكلمة في مدينة «سراي» أيدكو زوج ابنة توقتاميش، إلا أنه قد أيّد تيمورلنك في حربه ضد عمه. ولما مات «قويرجق» عام ٨٠١ عيّن «أيدكو» مكانه خاناً جديداً هو «تيمرقتلغ» إلا أن هذا الخان الجديد لم يلبث أن توفي عام ٨٠٢، فأقام «أيدكو» مكانه ابنه «شادي بك»، ويبدو أن «توقتاميش» كان قد اختفى هذه المدة، ثم ظهر ونازع «شادي بك» السلطة.

لقد هدّم تيمورلنك مدينة «سراي»، ومدينة «استراخان» قبل مغادرته،

= والعراق بيد السلطان أحمد، وكردستان وشمال العراق بيد السلطان بايزيد، ثم إن بايزيد قد سقط في يد أخيه عام ٧٨٥، ثم جاء تيمورلنك واستولى على المنطقة عام ٧٨٦، وبعد ذلك رجع تيمورلنك إلى سمرقند.

ثم سار نحو الغرب، وخاف الروس عندما اجتاز نهر الدون متجهاً نحو الغرب إلا أنه عاد فعدل سيره، ورجع إلى بلاد القوقاز، وتغلّب على بلاد الكرج، ومات ابنه شيخ عمر في بلاد القوقاز، وتابع تيمورلنك سيره من شمال بلاد فارس إلى سمرقند حيث أخذ قسطاً من الراحة.

وفي عام ٧٩٠ توفي الخان سيورغتمش من أسرة أوغطاي والذي نصّبه تيمورلنك، فعيّن مكانه ابنه محمود فبقي حتى عام ٨٠٠، وجعل تيمورلنك نفسه وزيراً له، كما كان الأمير مع والده سيروغتمش.

بعد أن رجع تيمورلنك إلى سمرقند عاد آل مظفر في فارس إلى حكمها واستولى منصور شاه على أصفهان، وقبض على مجاهد الدين علي زين العابدين فسار تيمورلنك عام ٧٩٥ إلى جهة الغرب ومعه ابنه شاه رخ، وقد انتصر تيمورلنك، وأرسل ابنه شاه رخ يتعقب منصور شاه، وقد تمكّن من قتله. وسار تيمورلنك بعدها إلى بغداد واستطاع أن يدخلها في العام نفسه ٧٩٥، وقد فرّ منها صاحبها السلطان أحمد بن أويس، واتجه إلى مصر، فأقام تيمورلنك في بغداد والياً من قبله.

واتجه تيمورلنك إلى الموصل ومنها إلى أذربيجان[١] فدخلها، وكانت تحت إمرة قره يوسف، وبعد انتصاره هذا رجع إلى سمرقند ليأخذ شيئاً من الراحة، وما أن رجع حتى عاد السلطان أحمد بن أويس إلى بغداد وعاد قره يوسف إلى تبريز، واتفقا على أن يعلن كل منهما استقلاله عن الدولة التيمورية. وكان تيمورلنك قد أرسل رسلاً إلى السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق فقتل السلطان الرسل، وسار إلى بغداد فأخرج منها التتار، وأعاد السلطان أحمد بن أويس.

---

(١) كانت تحكم أذربيجان أسرة قرة قيونلي، وهي أسرة تركمانية الأصل، دخل جدهم بيرام خواجه في خدمة الشيخ أويس الجلائري، فلما مات الشيخ أويس عام ٧٧٦ استولى بيرام خواجه على الموصل، وقد توفي عام ٧٨٢ فخلفه ابنه فدخل في خدمة السلطان أحمد بن أويس، وقد قُتل عام ٧٩٢، وقام مكانه ابنه قره يوسف، فجمع الموصل وتبريز إليه حتى غلبه تيمورلنك عام ٧٩٥، فغادر المنطقة، ولما عاد تيمورلنك إلى سمرقند رجع قره يوسف إلى منطقته وبقي فيها حتى رجع تيمورلنك مرة أخرى.

اتجه تيمورلنك إلى شمالي الهند عام ٨٠٠، وسيطر على دهلي وكشمير عام ٨٠١، وكان طريقه عبر ممر خيبر، وقد تصدّى له السلطان محمود فهزمه، ودخل البلاد، فأقام فيها حكاماً من قبله، وعاد عام ٨٠٢ إلى سمرقند فقضى فيها بعض الراحة.

عاد تيمورلنك فاتجه نحو الغرب عام ٨٠٢، فاستولى على أذربيجان ففرّ منها قره يوسف، كما فرّ من بغداد السلطان أحمد بن أويس، واتجها نحو السلطان العثماني بايزيد، وأخذا في طريقهما مدينة أرزنجان من أميرها الموالي لتيمورلنك. ووصل تيمورلنك إلى القوقاز، وأدّب بلاد الكرج الذين كانوا قد ثاروا على عامله عليهم، واتجه نحو السلطان العثماني عن طريق أرضروم، ودخل سيواس عام ٨٠٣، وفر حاكمها، وقاومه أربعة آلاف أرضي فجمعهم في خندق وردم التراب فوقهم، وسار إلى ملاطية فخربها، كما خرب سيواس من قبل، وهكذا دان له القسم الشرقي من الأناضول.

اتجه تيمورلنك إلى حلب ومنها إلى دمشق فدخلها، ثم رجع إلى حلب، ومنها اتجه إلى بغداد فدخلها ثانيةً عام ٨٠٤، وارتحل بعدها إلى تبريز فجعلها قاعدته الحربية. وفي أثناء احتلاله لبلاد الشام عام ٨٠٤ انقاد له سلطان المماليك فرج ناصر الدين بن الظاهر برقوق، فدفع له أتاوةً، وخطب باسمه.

اتجه تيمورلنك نحو الأناضول، ووصل الخبر إلى السلطان العثماني بايزيد ففكّ الحصار عن مدينة القسطنطينية، ووصل تيمورلنك إلى سيواس ومنها انطلق نحو أنقرة، والتقى الطرفان في معركة طاحنة في صيف عام ٨٠٥، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة العثمانيين وأسر سلطانهم وأحد أبنائه، وقتل ولدٍ آخر له، واستولى تيمورلنك بعدها على مدينة بروسة قاعدة العثمانيين، وسار بعدها إلى مدينة أزمير، وكانت بيد بقايا الصليبيين من جماعة القديس يوحنا، وكانت قد استعصت من قبل على السلطان العثماني بايزيد لمدة ست سنوات، فدخلها تيمورلنك بعد حصار دام أسبوعين

فأخلاها الصليبيون. أما السلطان أحمد بن أويس الجلائري الذي كان قد التجأ إلى السلطان العثماني فقد فرّ إلى مصر إلا أن السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق قبض عليه، وزجّه بالسجن لأنه كان قد انقاد إلى تيمورلنك، وأما قره يوسف فقد فرّ إلى جزيرة العرب، وأعاد تيمورلنك إلى أسر الطوائف أملاكها في الأناضول، وعاد بعدها إلى سمرقند.

قرر تيمورلنك غزو الصين فسار إليها على رأس جيش جرار إلا أن المنية قد وافته، وهو في طريقه إليها في مدينة «أوترار» في مطلع عام ٨٠٨، وعهد قبل موته إلى حفيده بير محمد بن غياث الدين جهانكير، كما أوصى بمتابعة السير لغزو الصين.

سار الجيش التيموري إلى الصين بقيادة حفيد تيمورلنك «أولوغ بك» بن «شاه رخ» أما حفيده الآخر بير محمد بن غياث الدين جهانكير وهو ولي عهده فقد كان في الهند، لذا فقد شذ عن تعاليم تيمورلنك حفيده الثالث خليل سلطان بن جلال الدين ميران شاه فسار إلى سمرقند ودخلها، وساعدته أمه خان زاده في ذلك، وعدّ نفسه خليفة تيمورلنك جده.

جاء بير محمد من الهند بجيشٍ نحو سمرقند فتصدّى له سلطان خليل وهزمه. وتدّخل القائد نور الدين فاستولى على سمرقند، وسجن سلطان خليل فيها، وأراد إعادة السلطة إلى بير محمد حسب وصيته تيمورلنك غير أن شاه رخ بن تيمورلنك قد جاء من هراة ودخل سمرقند وسلّم أمرها إلى ابنه أولوغ بك بعد أن عاد من الصين، أما هو فقد استقر في هراة وتبعه خراسان، ومازندران، وسجستان، وأصفهان، وشيراز وبقي حتى توفي عام ٨٥٠. ومنذ أن سيطر على سمرقند عام ٨١٢ نصّب أولاد تيمورلنك وأحفاده كل في جهة من جهات الإمبراطورية الواسعة، وهذا ما أضعف الدولة فهيأ الجو لقيام دولة الصفويين والشيبانيين.

أما أحمد بن أويس الجلائري فقد رجع إلى بغداد حاكماً عليها من قبل المماليك. كما رجع إلى أذربيجان قره يوسف وانتصر على حفيد تيمورلنك أبي بكر بن جلال الدين ميران شاه عام ٨١٠، إلا أن الخلاف قد

وقع بين هذين الجارين، أو الصديقين سابقاً، وتمكّن السلطان أحمد من احتلال أذربيجان غير أنه وقع أسيراً بيد قره يوسف عام ٨١٣ فقتله مع ولده علاء الدولة، وسيطر قره يوسف بعدها على بغداد بعد أن هزم الشاه محمود الذي حكم بعد أبيه السلطان أحمد لمدة سنة واحدة ٨١٣ ـ ٨١٤، وتوفي عام ٨٢٣ إلا أن السلطات بقيت في يد أسرته من بعده في تبريز وبغداد حتى عام ٨٧٤ حيث خلفهم الأقيونيون[١] الذين بقوا حتى جاء الصفويون عام ٩١٤.

وكذلك فإن العثمانيين قد عادت لهم قوتهم بعد وفاة تيمورلنك.

وبقيت الأسرة التيمورية تحكم بلاد ما وراء النهر، وفرغانة، وخراسان، وكابل. . . . حتى كانت آخر أيام السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين الذي توفي عام ٩٠٠ فأصبح أولاده يتصارعون على السلطة في بلاد ما وراء النهر فظهر جيش أوزبك الذي يقوده محمد الشيباني أحد أحفاد شوبان بن جوجي بن جنكيزخان، وقد عرف الفرع الأصلي في سيبيريا باسم «تيومن» إلا أن القسم الأكبر قد هاجر إلى بلاد ما وراء النهر، واشترك في النزاع على السلطة، وصار منه خانات في بخارى وخيوه، وقد حكم من قبل بلاد ما وراء النهر كلها.

وكان فرع من الأسرة التيمورية قد حكم الهند، وهم أحفاد ظهير الدين محمد بابر الذي توفي عام ٩٣٧، وأسس أسرة حكمت الهند قضى عليها الاستعمار الإنكليزي.

---

(١) الأقيونيون: عشيرة تركمانية هاجرت من تركستان إلى أذربيجان، واستقرت بعدئذٍ بجهات ديار بكر، وقد وافق أميرها تيمورلنك فأعطاه ولاية ديار بكر عام ٨٠٦، وبعد وفاة تيمورلنك اصطدم مع قره يوسف أمير أذربيجان ومع سلطان سيواس وانتصر عليهما، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «حسن أوزون» الذي عاصر السلطان العثماني محمد الفاتح، وقد تمكّن حسن هذا من الاستيلاء على تبريز عام ٨٧١، ثم على بغداد عام ٨٧٤، وبقيت بأيدي أسرته حتى جاء الصفويون عام ٩١٤ فدخلوا بغداد.

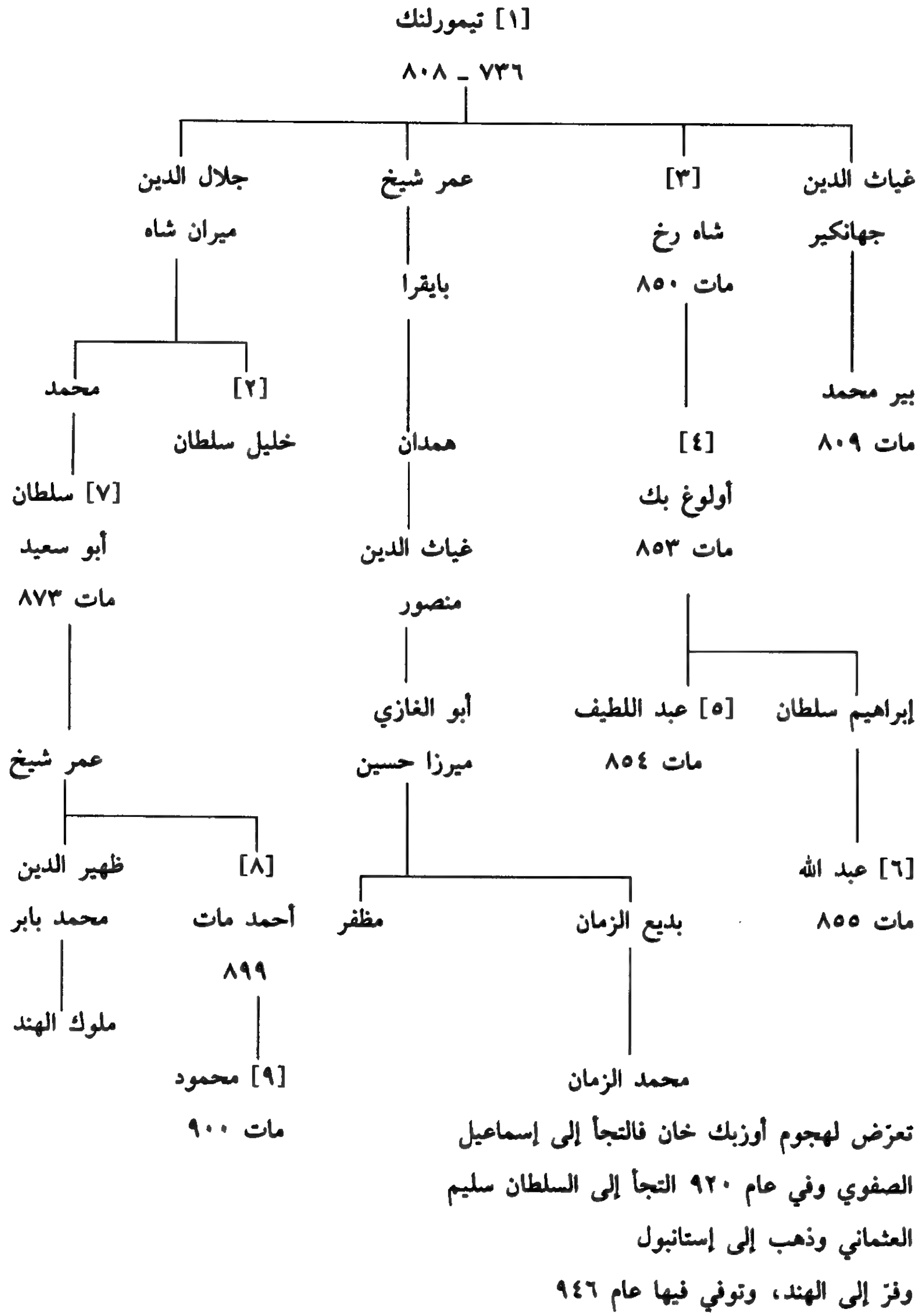

[١] تيمورلنك
٧٣٦ ـ ٨٠٨
غياث الدين
جهانكير
[٣]
شاه رخ
مات ٨٥٠
عمر شيخ
جلال الدين
ميران شاه
بايقرا
بير محمد
مات ٨٠٩
[٤]
أولوغ بك
مات ٨٥٣
همدان
[٢]
خليل سلطان
محمد
[٧] سلطان
أبو سعيد
مات ٨٧٣
غياث الدين
منصور
إبراهيم سلطان
[٥] عبد اللطيف
مات ٨٥٤
أبو الغازي
ميرزا حسين
عمر شيخ
[٦] عبد الله
مات ٨٥٥
بديع الزمان
مظفر
[٨]
أحمد مات
٨٩٩
ظهير الدين
محمد بابر
ملوك الهند
[٩] محمود
مات ٩٠٠
محمد الزمان
تعرّض لهجوم أوزبك خان فالتجأ إلى إسماعيل
الصفوي وفي عام ٩٢٠ التجأ إلى السلطان سليم
العثماني وذهب إلى إستانبول
وفرّ إلى الهند، وتوفي فيها عام ٩٤٦

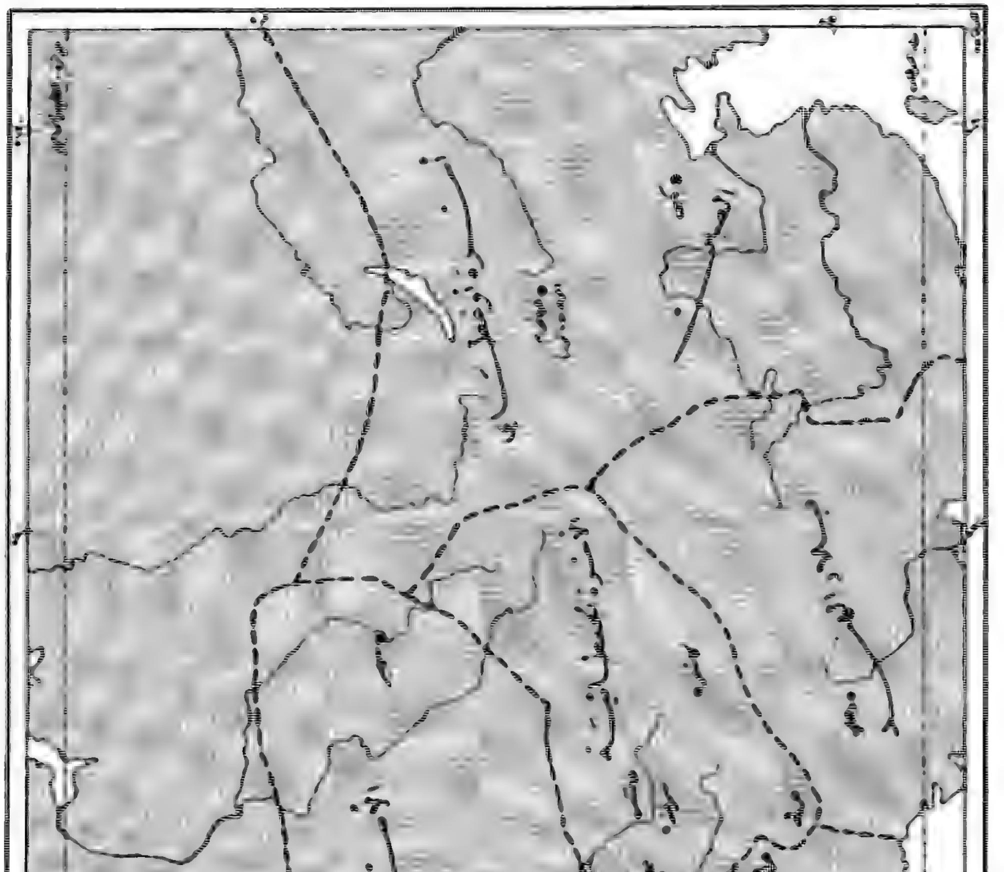

الباب الرابع

المسلمون في الهند

٦٥٦ - ٩٢٣ هـ

الفصل الأول

المسلمون في أطراف الهند

الهند بلاد واسعة الأرجاء، كثيرة الشعوب، متباينة اللغات، مختلفة الأقاليم لذا يصعب قيام حكم مركزي فيها يجمع شعوبها المتعددة، وأجناسها المتنافرة، وأصحاب لغاتها المتشعبة إن لم يكن هذا الحكم قوياً، يغذّي هذا التنافر بالروح الإيمانية فيجمع بعضهم إلى بعض، ويضفي عليهم الإسلام عدله وسماحته فيخلد أبناؤه إلى الأمن والاستقرار، ويشعر بالطمأنينة أفراده كافةً.

وكل حكم يكون في أول أمره قوياً ثم يضعف شيئاً فشيئاً مع الدعة والخلود إلى الأرض ونسيان ما بذل في سبيل الوصول إلى السلطة وفي النهاية يزول، ولطالما شبهت حياة الدول بحياة الإنسان يبدأ المرء فتًى غضّاً ثم لا يلبث أن يشتدّ عوده ويقوى ساعده، ثم يعتريه الهرم ويحلّ به الضعف، ثم تكون الشيخوخة وأخيراً يكون الزوال مصيره.

لقد فتح المسلمون أطراف الهند، ثم دخلوا حاضرتها دهلي، واستقروا فيها، وأسسوا حكومةً قويةً فيها تمكنت من التوسع والانتشار ففتحت «بيهار» و «البنغال» من ناحية الشرق، وحكمت كوجرات من جهة الغرب، وامتد سلطانها فسيطرت على «الدكن»، واتجهت نحو «كيرالا» في أقصى الجنوب. ولم يلبث أن حلّ الضعف فيها فتعاقبت أسر على الحكم في دهلي، ومع هذا الضعف استقل الحكام في المقاطعات بسبب ضعف السلطة المركزية أو لأطماعهم، فنشأت دويلات وممالك كثيرة تنافر بعضها

مع بعض وتناحر فوقعت الصدامات فزاد ضعف المسلمين ضعفاً بسبب التشتت والتجزؤ، وتكاثر البلاء عليهم، وكانت حكومات كثيرة وأسماء ملوك متشابهة بحيث يصعب على المرء تمييزها أحياناً.

وربما كان من جملة البلاء الذي نزل بالمسلمين في بلاد الهند بل من أعظم ما نزل بهم إنما كان بسبب مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى فإن ملوكهم هناك رغم دعوتهم للإسلام، ومحاولة التمسّك به، والمحافظة عليه إلا أنهم لم يرعوا تعاليمه وتطبيقها بشكلٍ تامٍ فتركوا منها جانباً مهماً فحلّت بهم المصائب، ولا تزال تنزل بهم إلىٰ اليوم بسبب ذلك، وهو أن المسلمين عندما يفتحون بلداً ويحكمونه ويصبحون الأقوياء فيه وأصحاب السيادة التامة لا يجبرون أهله على اعتناق عقيدةٍ معيّنةٍ بشرط أن تكون العقيدة التي يدين بها السكان الإسلام أو عقيدة أهل الكتاب وما يلحق بهم من المجوس، ولا يصح أن يكون في بلاد المسلمين ما سوى ذلك من مشركين عامة كالهنادك، والبوذيين، والكونفوشيين، والشنتويين، والوثنيين عامةً، وشرط رعاية ذمة المسلمين وعهودهم، وهي معروفة منها ألا يلجئوا إلى بلادهم عدواً للمسلمين، ولا يخفوه، ولا يسكتوا عنه، ولا يساعدوا خصوم المسلمين، ولا يدلّوا على عوراتهم، وأن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويضمن المسلمون لهم مقابل ذلك الأمن والاستقرار وهو أعزّ شيء على النفس البشرية، وحرية ممتلكاتهم ومقدساتهم القائمة، ولا يؤذونهم، غير أن المسلمين في بلاد الهند لم يفعلوا ذلك.

دخل المسلمون إلى بلاد الهند فوجدوا فيها أعداداً كبيرةً من الهنادك وهم لا يدينون بديانة أهل الكتاب ولا بديانة من يلحق بأهل الكتاب من المجوس، ولم تعتنق هذه الجماعات في الوقت نفسه الإسلام إلا بأعداد قليلة، ووقع المسلمون في حيرةٍ إذ استعظموا أعداد الهنادك الفخمة هل يهجّرونهم؟ أم يجبرونهم على الإسلام؟ أم يقتلون من يعصي؟. . . أسئلة كثيرة سكتوا عن الجواب عليها، وتركوا الحبل على الغارب وفي نفوسهم أن هذه الأعداد ستقبل على الإسلام مع الزمن، وكان تطبيق الإسلام هو الأولى وفيه الخير والمصلحة للطرفين ولكن. . .

اكتفى المسلمون بالسيطرة على البلاد والعباد، ونسوا مهمتهم الأولى في الحياة وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ورحمته و. . . خالفوا الأوامر فنزل بهم ما نزل، وأعتقد أنهم لو عرضوا على الهنادك الرحيل عن بلادهم أو الإسلام أو القتل لدخلوا في الإسلام ما دام المسلمون قاهرين لهم، وبيدهم السلطة، وعندهم الإمكانات كافةً لتنفيذ ما يريدون، ولو دخل الهنادك في الإسلام لما ارتدوا عنه ولتعمّق في نفوسهم مع الزمن وخاصة بعد أن يعرفوا تعاليمه ومنهجه، وموافقته لفطرة البشر، وبعد أن يقارنوا ما كانوا عليه من الأساطير والخرافات من عبادة البقر وتقديسه، وحرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن ظلماً وطغياناً، ثم لنشأ أبناؤهم على الإسلام، وتمسَّكوا به وكنا في راحة، ولما حدث في بلاد الهند ما يحدث اليوم.

لقد ترك المسلمون أهل البلاد من الهنادك على عقيدتهم وهم الأكثرية، وهذا ما كان يُشجّع الكفّار على التمرّد والحركات، وخاصةً عندما ضعف أمر المسلمين هناك. ولكي يأمن بعض حكام المسلمين شرّ هؤلاء الكفّار كان يسمح لهم بعض الأحيان بممارسة باطلهم وكفرهم وجرائمهم مثل حرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن على عادتهم الجارية، وهو محرم عليهم، ويمنع ذبح البقر إرضاءً لهم وقد أحلّ الله ذلك، كما يسمح بالزواج من المشركات. . . ويصل الحدّ إلى أبعد من ذلك عند بعض الملوك فيسمح للهنادك بالزواج من المسلمات، لهذا كله بقي الهنادك على درجةٍ من القوة يمارسون شعائرهم الزائفة، ويتربّصون بالمسلمين الدوائر، بل ويتقرب منهم الحكام أحياناً ويقدّمونهم.

وإن تاريخ الهند في هذه الحقبة لغامض علينا لكثرة الأسر التي حكمت في مناطق متعددة ومتقاربة، ولتشابه أسماء الملوك وألقابهم من هذه الأسر، ولعدم الصلة بين مناطقنا العربية وبلاد الهند في تلك المرحلة حيث ضعفت الدولة الإسلامية وتشتت أبناؤها، واختلفت أجزاؤها، كما وهت

أواصر العقيدة بضعف الإيمان في نفوس أبناء المسلمين، هذا بالإضافة إلى العصبيات القومية التي بدأت تدخل ميدان الساحات السياسية فيما بعد فتكسبها نتناً فينأى بعضها مع بعض.

الفصل الثاني

ملوك دهلي

مُلَخَّصٌ عَنِ المُسلِمِينَ فِي الهِنْدِ قَبلَ عَام ٦٥٦هـ

الراشدون والأمويون:

سنة

١٥ ولّى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على البحرين وعُمان عثمان بن أبي العاص فولّى أخاه الحكم على البحرين، وسار إلى عُمان فوجّه جيشاً إلى الهند، ثم وجّه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى الديبل.

٢٤ ولّى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عبد الله بن عامر بن كريز على العراق، فأرسل إلى الهند حكيم بن جبلة العبدي،

٣٩ وجّه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الحارث بن مرة العبدي إلى الهند.

٤٤ غزا المهلب بن أبي صفرة أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وأرسل عبد الله بن عامر بناءً على أوامر معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، عبد الله بن سواد العبدي.

استعمل زياد بن أبيه على ثغر الهند راشد بن عمرو الجديدي الأزدي، فغزا واستشهد، فولّى زياد مكانه سنان بن سلمة، فأقام سنتين.

غزا عباد بن زياد ثغر الهند.

ولّى زياد على الهند المنذر بن الجارود العبدي، فمات هناك، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الهند ابن حري الباهلي.

ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي على الهند سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان، وقتلاه، وغلبا على الثغر، فولّى الحجاج مكانه مجاعة بن سعر التميمي، ثم أرسل مكانه محمد بن هارون بن ذراع النمري، ثم بعث الحجاج إلى الديبل غازياً عبيد الله بن نبهان، فقاتل، واستشهد، فأمر الحجاج أن يسير من عُمان بديل بن طهفة البجلي فغزا، واستشهد.

٩٢ أرسل الحجاج محمد بن القاسم ففتح السند.

٩٦ ولّى سليمان بن عبد الملك على السند يزيد بن أبي كبشة السكسكي، فلم يلبث أن توفي فاستعمل سليمان مكانه حبيب بن المهلب.

٩٩ استعمل عمر بن عبد العزيز على السند عمرو بن مسلم الباهلي.

١٠٣ استعمل يزيد بن عبد الملك على الهند هلال بن أحوز التميمي، وهرب بنو المهلب إلى السند فقتل هلال منهم: مُدرك، والمفضل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بني المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب.

١٠٧ ولّى هشام بن عبد الملك على ثغر السند الجند بن عبد الرحمن المري.

١١١ ولّى هشام بعد ذلك تميم بن زيد العتبي، ثم أرسل الحكم بن عوانة الكلبي، فاستشهد.

١٢٢ ولّى عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي فقام عليه مروان بن يزيد بن المهلب فقتله.

١٢٦ عزل يزيد بن الوليد عن الثغر عمرو بن محمد بن القاسم وولى مكانه يزيد بن عرار.

١٣٠ قام منصور بن جمهور الكلبي فقتل يزيد بن عرار، واستقل بأرض السند.

العباسيون:

١٣٢ أرسل أبو مسلم الخراساني إلى الثغر مغلس العبدي، فقاتل منصوراً غير أنه هزم، فأرسل أبو مسلم إلى السند موسى بن كعب التميمي فانتصر على منصور، وأخذ الولاية عام ١٣٤.

استخلف موسى بن كعب مكانه ابنه عيينه بن موسى فخلع الطاعة.

١٤٢ أرسل أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص بن أبي صفراء العتكي فحارب عيينه وغلب على إقليم السند، وفي أيامه دخل إلى السند عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الثغر.

١٥١ عزل المنصور عن السند عمرو بن حفص، وولّى مكانه هشام بن عمرو التغلبي، فافتتح الملتان وكشمير، وتوفي ١٥٨.

١٥٧ ولّى المنصور على السند معبد بن خليل التميمي، وتوفي ١٥٩.

١٥٩ بعث المهدي إلى السند روح بن حاتم، ثم استبدله بسطام بن عمرو التغلبي، ثم عزله.

١٦١ أعاد المهدي روح بن حاتم ثانيةً ثم عزله.

ولّى المهدي نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، ثم عبد الملك بن شهاب المسمعي، ثم أعاد نصر بن محمد بن الأشعث، وبقي حتى مات ١٦٤.

١٦٤ ولّى المهدي مصبح بن عمرو التغلبي ثم ليث بن طريف الكوفي.

١٧٠ عزل الرشيد الليث، وولّى مكانه سالم اليونسي مولى إسماعيل بن علي، فبقي أربع سنوات.

١٧٤ بعث الرشيد إسحاق بن سليمان الهاشمي فمات فولّى مكانه ابنه يوسف بن إسحاق، ثم عزله، وولّى طيفور بن عبد الله بن المنصور الحميري، ثم جابر بن الأشعث الطائي، ثم سعيد بن مسلم بن قتيبة، ثم عيسى بن جعفر المنصور العباسي فأناب عنه محمد بن عدي، فعزله الرشيد، وولّى عبد الرحمن، ثم أيوب بن جعفر بن سليمان.

١٨٤ ولّى الرشيد على ثغر السند بعد أن فشل الذين تولّوا هذه المهمة داود بن يزيد بن حاتم المهلبي فاستقام الأمر، وبقي حتى توفي عام ٢٠٥.

٢٠٥ ولّى المأمون بعد وفاة داود ابنه بشير بن داود فخلع الطاعة.

٢١١ أرسل المأمون إلى بشير بن داود قائداً يدعى حاجب بن صالح غير أن بشيراً قد هزمه، فعاد المأمون فأرسل غسان بن عباد الكوفي عام ٢١٣، فطلب بشير الأمان.

وخلف على الثغر بعد غسان أحد أفراد البرامكة وهو موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، وكان له أثر حسن، واستخلف بعده ابنه عمران بن موسى، ووافق المعتصم على ذلك. ووقعت الفتنة بين النزارية واليمانية، ومال عمران إلى اليمانية فقتله عمر بن عبد العزيز الهباري.

ولّى المعتصم بعد ذلك عنبسة بن إسحاق الضبي، ثم عُزل في أيام المتوكل الذي أرسل هارون بن خالد المروزي فقتل عام ٢٤٠ بسبب العصبية القبلية.

٢٤٠ وثب على حكم السند عمر بن عبد العزيز الهباري، وأطاعه الناس، فرضي عنه المتوكل وأقرّه، وقام بعده ابنه عبد الله بن عمر، ثم ولده عمر بن عبد الله بن عمر، وقد زاره المسعودي عام ٣٠٣، وأخذ الملتان يومذاك المنبه بن الأسد القرشي.

الغزنويون:

٣٦٦ تولّى سُبُكتُكين أمر غزنة فحارب ملك البنجاب وانتصر عليه.

٣٨٧ تولّى أمر غزنة محمود بن سبكتكين بعد أبيه فاشتغل في بداية الأمر في القتال في خراسان ثم اتجه نحو الهند فدخلها سبع عشرة مرة، فانتصر على ملك البنجاب قرب بيشاور عام ٣٩١، وحارب صاحب ملتان القرمطي عام ٣٩٦ وهو أبو الفتح داود بن نصير بن حميد. ودانت له أجزاء واسعة إذ كان في كل عام يغزو الهند تقريباً. وفتح سومنات على ساحل البحر عام ٤١٦.

٤٢١ توفي محمود بن سبكتكين وخلفه حسب وصيته ابنه محمد، فخرج عليه أخوه مسعود بن محمود وتسلّم الأمر.

٤٣٢ قتل مسعود، ووليّ مكانه أخوه محمد، ثم إن مودود بن مسعود قتله وقام مكانه.

٤٣٥ توفي مجدود بن مسعود أمير الهند، فتمرّد ملوك الهند.

٤٤١ توفي مودود، وخلفه عمه عبد الرشيد بن محمود، فولّى على الهند نوشتكين الحاجب الكرخي فأحسن السيرة.

٤٤٤ قتل عبد الرشيد، وآل أمر غزنة إلى فرخ زاد بن مسعود.

٤٥١ تولّى أمر غزنة إبراهيم بن مسعود، وبقي حتى عام ٤٨١ حيث توفي وخلفه ولده.

٤٨١ توفي مسعود بن إبراهيم فولّى على الهند طغاتكين الحاجب، وبقي حتى عام ٥٠٨.

٥٠٨ تولّى أمر الهند أرسلان شاه بن مسعود فأمّر على الهند محمد باهليم الحاجب.

٥١٢ بهرام شاه خرج على أخيه أرسلان شاه الذي فر إلى الهند ثم عاد إلى غزنة وقتل عام ٥١٢.

٥٤٣ ملك سيف الدين الغوري غزنة ففر بهرام شاه إلى الهند، ثم عاد إلى غزنة ودخلها عام ٥٤٤، غير أن علاء الدين الغوري رجع إلى غزنة، وكان قد توفي بهرام شاه وتولى مكانه ابنه خسرو شاه ففر إلى الهند، وبقي فيها حتى توفي بمدينة لاهور عام ٥٥٥ وخلفه ولده خسرو ملك.

٥٧٢ سار شهاب الدين الغوري إلى الهند فأخذ الملتان من القرامطة.

٥٨٢ أخذ شهاب الدين لاهور من الغزنويين الذين انتهت دولتهم.

٥٨٨ انتصر شهاب الدين الغوري على الهنود، واقترب من دهلي، فأقطع ذلك لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة.

٥٨٩ دخل قطب الدين أيبك دهلي، وجعلها مقر حكمه.

٥٩٠ سار شهاب الدين إلى الهند، وانتصر على الهنود عند نهر جمنا.

٥٩٩ أخذ محمد بن بختيار الخلجي بيهار وكان نائب قطب أيبك على ما وراء نهر الغانج، واتخذ مدينة رانغبور قاعدةً له. واستولى على البنغال.

٦٠٢ توفي شهاب الدين الغوري، فأعتق قطب الدين أيبك، فجلس على كرسي المملكة في لاهور.

٦٠٧ مات قطب الدين أيبك، وتولّى مكانه ابنه آرام شاه.

استقل شمس الدين إيلتمش مملوك قطب الدين بملك مدينة دهلي.

٦٢٢ سار إيلتمش إلى البنغال وانتزعها من غياث الدين الخلجي وأمّر عليها ولده ناصر الدين محمود، وثار أهل البنغال عليه، فعاد إليها إيلتمش عام ٦٢٧ وولّى عليها أحد أمرائه وهو علاء الدين.

٦٣٣ مات إيلتمش بدهلي وخلفه ابنه ركن الدين، فقتل أخاه قطب، وثار عليه الناس لظلمه، وقتلوه بعد ٦ أشهر من حكمه.

٦٣٤ بويعت رضية بنت إيلتمش.

٦٣٨ خلعت رضية، وبويع أخوها معز الدين بن إيلتمش، وخرجت عليه أخته رضية وزوجها، فهزمهما بجهود أخيه ناصر الدين محمود.

٦٣٩ ثار الأمراء على معز الدين بن إيلتمش وقتلوه، وولّوا علاء الدين مسعود بن إيلتمش.

٦٤٤ خلع الأمراء علاء الدين مسعود، واختاروا عمه ناصر الدين محمود.

٦٦٤ توفي ناصر الدين محمود بن إيلتمش.

١" ـ أسرة بلبن

٦٦٤ ـ ٦٨٩

انتهى حكم أسرة إيلتمش في دهلي بعد أن دام مدة سبع وخمسين سنة (٦٠٧ ـ ٦٦٤) وكان آخرها ناصر الدين محمود إيلتمش الذي حكم عشرين سنة (٦٤٤ ـ ٦٦٤)، وبعد وفاته خلفه نائبه على دهلي غياث الدين بلبن الذي أسس أسرةً حاكمةً تولّت أمر دهلي مدة ربع قرن (٦٦٤ ـ ٦٨٩)، وتعاقب ملكان من هذه الأسرة على الحكم.

١ ـ غياث الدين بلبن:

تولّى الحكم بعد وفاة ناصر الدين محمود إيلتمش عام ٦٦٤، وقاتل التتار، وانتصر عليهم في كل لقاء معهم. وخلع طاعته نائبه على البنغال «طغرل» فأرسل له سريةً، ثم سار إليه بنفسه، ففر طغرل إلى التتار، فلاحقه غياث الدين، وأدركه قبل وصوله إلى الحدود وقتله.

كان غياث الدين قد عهد من بعده إلى ولده خان شهيد محمد الذي كان والياً لأبيه على بلاد السند، وكان يُقيم في مدينة «الملتان» غير أنه قتل قبل وفاة أبيه في حروبه مع التتار. فعهد غياث الدين إلى حفيده كيخسرو بعد مقتل أبيه الذي كان له الأمر، غير أن غياث الدين لم يلبث أن عدل عن حفيده إلى ولده الآخر ناصر الدين محمود الذي كان والي البنغال لأبيه.

توفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦ بعد أن حكم اثنتين وعشرين سنة، وكان ولي عهده ولده ناصر الدين محمود في بلاد البنغال فبايع الأمراء ابنه معز الدين كيقباد، فأثر ذلك في نفس ناصر الدين محمود فجمع جموعه وسار بها إلى الهند، واتجه للقائه ابنه كيقباد، وعندما التقى الجمعان عطف الأب لولده، وثارت عاطفة الأبوة عند الولد فتصالحا وسارا معاً إلى دهلي، حيث تنازل الأب لولده، وبايع الجميع معز الدين كيقباد، ورجع ناصر الدين محمود إلى البنغال حيث بقي فيها حتى توفي.

٢ ـ معز الدين كيقباد:

أصابه المرض، وعجز الأطباء عن إيجاد الدواء الشافي له، ويبس أحد شقيه، فخرج عليه نائبه جلال الدين فيروز الخلجي، وأعلن خلع الطاعة في ظاهر المدينة، فأرسل كيقباد إليه الأمراء، فكانوا ينضمون إلى خصمه عندما يصلوا إليه، ثم دخل الخلجي دهلي، وقتل كيقباد بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات وبضعة أشهر. وبموته انتهى حكم أسرة بلبن.

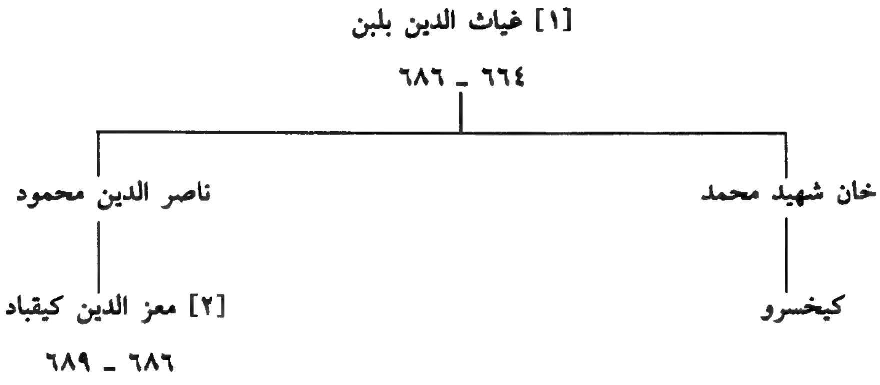

٣" ـ الخلجيون

٦٨٩ ـ ٧٢٠

حكمت هذه الأسرة مدة إحدى وثلاثين سنة (٦٨٩ ـ ٧٢٠)، وتوالى عليها أربعة ملوك.

١ ـ جلال الدين فيروز الخلجي:

كان نائب كيقباد آل بلبن على دهلي، خلع طاعته وانتصر عليه، وتسلّم مكانه عام ٦٨٩، اختلف مع ابن أخيه علاء الدين محمد شاه الذي كان نائبه على مدينة «كره» وزوج ابنته، وذلك أن الناس قد أوغروا صدره عليه فاستدعاه فرفض الحضور، فعدّه كولده وسار إليه يريد إكرامه غير أن ابن أخيه قد تجهّز له وعندما التقى به قتله عام ٦٩٦، وأخذ الحكم مكانه.

٢ ـ علاء الدين محمد شاه الخلجي:

وعندما سار علاء الدين نحو دهلي بعد قتل عمه خرج إليه ابن عمه ركن الدين غير أن عسكر ركن الدين قد انحازت إلى علاء الدين الأمر الذي جعل الهزيمة تحلّ بركن الدين ففرّ إلى بلاد السند، وبدأ علاء الدين صراعه مع التتار، فانتصر عليهم في بداية الأمر فقفلوا راجعين إلى خراسان. ثم جاء «قتلق خواجه» كبير التتار وانتصر على جيش علاء الدين عام ٦٩٧، ووصل التتار إلى ضواحي دهلي فخرج عليهم علاء الدين بنفسه مستميتاً فهزمهم، وتراجعوا إلى بلاد ما وراء النهر.

وفي عام ٦٩٧ أيضاً أرسل قوةً إلى كوجرات فدخلوها. وأرسل قوةً عام ٧٠٣ إلى الدكن فدخلت بلاد الدكن، وأحرزت انتصاراً كبيراً.

عاد التتار إلى الهند عام ٧٠٧ لكنهم هُزموا أمام علاء الدين، وكرروا الهجوم ثانيةً في العام نفسه فبعث إليهم أمير السند تغلق فانتصر عليهم.

واتجه نحو جنوبي الهند ففتح بلاد كيرالا (المعبر) وبنى فيها مسجداً.

كان لعلاء الدين عدد من الأولاد منهم: خضر، وشادي، وشهاب الدين، وأبو بكر، ومبارك خان الذي عرف باسم قطب الدين.

وعندما مرض علاء الدين، أرادت أم ولده خضر أن تملّك ابنها فاتفقت مع أخيها «سنجر» على ذلك، فأخبر علاء الدين نائبه بما تمّ، فغضب علاء الدين غضباً شديداً وقتل سنجر، وحرم ابنه خضر من الملك،

وكان خضر بعيداً عن دهلي، وقد أخذ منه الحزن كل مأخذ لما تمّ، وعندما وصل إلى دهلي قيّده أبوه، ثم أخذته عاطفة الأبوة فحزن عليه فأراد توليته، إلا أن أنصار إخوته لم يحلّوا قيده، ولم يبلغوه، وكلما سأل علاء الدين عن ابنه خضر أجابوه بقرب حضوره، ومات علاء الدين ولم ير ابنه خضراً. وكانت وفاته عام ٧١٥.

٣ ـ شهاب الدين بن علاء الدين الخلجي:

لما توفي علاء الدين أجلس نائبه على دهلي ابنه الصغير شهاب الدين، وحكم دونه، وسيطر عليه، وخوفاً من أبناء علاء الدين الآخرين فقد سجن أبا بكر وشادي وسمل أعينهما، كما أمر بسمل عيني خضر، وسجن مبارك غير أنه لم يسمل عينيه. ولا شك فإن أم الأولاد وهي ابنة معز الدين كيقباد قد جزعت جزعاً شديداً، وأغرت مملوكيها «بشير» و «مبشر» اللذين قدمهما لها علاء الدين، أغرتهما بقتل نائب السلطان فقتلاه وأخرجا مبارك خان المعروف باسم قطب الدين من السجن. فجاء إلى أخيه الصغير فجلس عنده كالنائب مدة، ثم خلعه وتسلّم الأمر دونه.

٤ ـ قطب الدين مبارك شاه الخلجي:

بعد أن خلع أخاه عام ٧١٧ جلس على كرسي الحكم، ثم أرسل أخاه المخلوع ليسجن مع إخوته الآخرين. وبعث قواته إلى غربي الدكن عام ٧١٨ فأحرزوا الانتصار، وأسسوا مسجداً في ديوكير، وسمّوها دولة أباد، ثم سارت عساكره إلى كيرالا، فحصلت على غنائم كثيرة، وسار نحو ورنكل من نواحي بومباي. وصالح أهلها على مال يؤدّونه، وعندما خرج في هذه الغزوة اتفق الأمراء على خلعه، وتولية ابن أخيه خضر، وكان هذا لا يزال غلاماً لا يتجاوز العاشرة من عمره. وعلم قطب الدين بالأمر فقتل الولد، كما أرسل من قتل أباه وأعمامه في السجن.

ناصر الدين خسروخان:

وكان من أكبر أمراء قطب الدين، فلما قتل قطب الدين إخوته وابن أخيه، خاف خسروخان على نفسه، فبدأ بقطب الدين قبل أن يبدأ به، وقتله بحيلة، وذلك عام ٧٢٠، وقام بأمر الدولة. وكان يميل إلى الهنادك لذا فإن المسلمين قد كرهوه وتمنّوا الخلاص منه. وعندما جلس على كرسي الحكم بايعه الأمراء إلا تغلق في السند فإنه أعلن خلافه، وسار إليه وقتله، ولم تزد أيام خسروخان على أربعة أشهر.

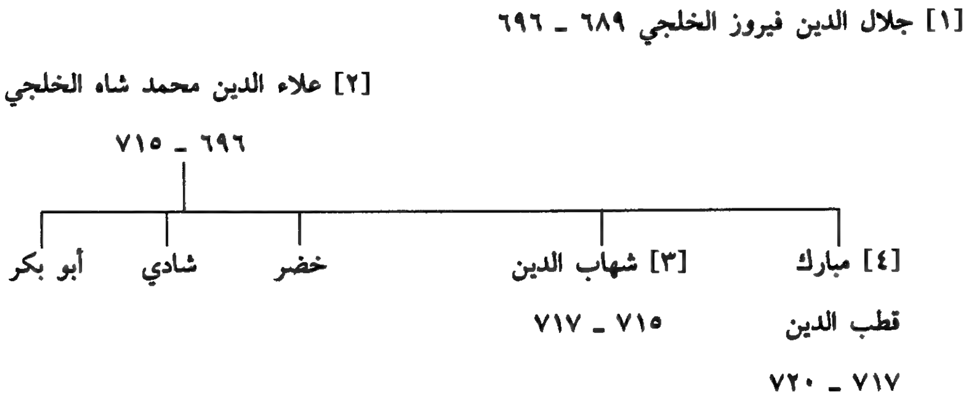

٣ً ـ آل تغلق
٧٢٠ ـ ٨١٥

حكمت هذه الأسرة مدة خمس وتسعين سنة (٧٢٠ ـ ٨١٥) وتوالى على الحكم ثمانية ملوك من هذه الأسرة.

١ ـ غياث الدين تغلق شاه:

جاء غياث الدين إلى بلاد السند في أيام علاء الدين الخلجي، وكان أمير السند يومذاك أدلوخان الخلجي أخو الملك علاء الدين. فتقرّب منه غياث الدين وخدمه، فقدّمه الأمير وجعله أمير الخيل، وقد أبدى شجاعةً في قتال التتار إذ اشتبك معهم في تسع وعشرين موقعة فأعطاه الأمير لقب

الغازي، وتسلّم إمرة إحدى المدن فجعل ابنه عنده أمير خيله.

ولما قُتل قطب الدين وتولّى خسروخان أبقاه أمير خيل بلاد السند، غير أن غياث الدين تغلق لم يبال بهذا، وأعلن خلاف خسروخان، واستعان بكشلوخان أمير مدينة الملتان، ولما علم خسروخان بخلع تغلق للطاعة أرسل إليه قوةً بقيادة أخيه غير أنها هزمت أمام قوة تغلق وكشلو اللذين سارا إلى دهلي فدخلاها وخرج منها خسروخان، وتسلّم تغلق الملك ولم يختلف مع كشلو بل كل منهما كان يقدّم الآخر.

حارب غياث الدين تغلق شاه ملك البنغال الذي قتل إخوته وتمكّن آخرون منهم أن ينجوا ففروا إلى دهلي، واستنجدوا بملكها فسار إليه فهزمه، وأخذه أسيراً فحمله إلى دهلي.

وفي عام ٧٢٥ سقط عليه قصره الذي بناه له ابنه محمد من الخشب فقضى نحبه.

٢ ـ محمد شاه بن تغلق شاه:

كان اسمه جونه فتسمّى محمداً، وتكنّى بأبي المجاهد حكم سبعاً وعشرين سنة، كان فتّاكاً، متواضعاً، شجاعاً، براً، يشدّد العقوبة على ترك الصلاة، ويقتل تاركها، فتح كيرالا، وأرسل قوةً إلى بلاد الصين فهلك أفرادها في جبال هيمالايا، وتوفي عام ٧٥٢.

٣ ـ فيروزشاه بن رجب، أبو المظفر:

عندما توفي محمد شاه اتفق الأمراء على تولية ابن عمه فيروزشاه الذي كان في بلاد السند، فقدم إلى دهلي، واستقل بالملك، كان من خيار السلاطين، ومن كبار المصلحين، بنى المساجد، والمدارس، والمستشفيات، وأقام الحصون. من المساجد التي عمرها المسجد الكبير في دهلي، ومن مدارسه المدرسة الفيروزشاهية، كما أسس مدينة فيروزأباد، ومدينة كانبور، واستمر حكمه حتى عام ٧٩٠.

٤ ـ تغلق شاه بن فتح خان بن فيروزشاه:

تولّى الحكم عام ٧٩٠ بعد وفاة جدّه وحسب وصيته وقد وافق الأمراء والأعيان، ولقّب نفسه غياث الدين. اختلف مع عمه محمد شاه فهزمه، وخاف منه ابن أخيه أبو بكر بن ظفر بن فتح خان بن فيروز، فاتفق مع الأمراء على قتل عمه تغلق، وقد نفّذ ما صمّم عليه عام ٧٩١.

٥ ـ أبو بكر شاه:

تولّى الحكم بعد مقتل عمّه تغلق شاه، وكان سيئاً فكرهه الناس فطلبوا محمد شاه، فاتجه نحو دهلي فسار إليه أبو بكر، وهزمه مرتين، وخرج أبو بكر إلى ظاهر دهلي على مسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً لمنازلة محمد شاه، فدخلها الآخر من طريقٍ ثانية، فأسرع أبو بكر إليها فخرج محمد شاه منها هارباً، إلا أن كره الأمراء لأبي بكر لم يتغير فعادوا إلى طلب محمد شاه فجاء واستطاع أن يدخل دهلي، وأن يجلس على كرسي الحكم، وقاتل أبا بكر، وتمكّن من القبض عليه، وسجنه وبقي سجيناً في القلعة حتى توفي عام ٧٩٣.

٦ ـ محمد شاه:

لم تطل مدته إذ توفي عام ٧٩٦، فيكون قد حكم مدة ثلاث سنوات.

٧ ـ علاء الدين إسكندرشاه:

تولّى بعهد من أبيه، وكان اسمه همايون خان فتلّقب علاء الدين إسكندرشاه، وبقي في الحكم شهراً ونصف الشهر فقط.

٨ ـ محمود شاه:

لما توفي علاء الدين إسكندرشاه اتفق الأمراء على تنصيب أخيه

محمود، ولكنه لم يلبث أن خضع للأمراء وأصبح ألعوبة بأيديهم وأيدي الوزراء، فاستدعى الأمراء نصرة خان بن فتخ خان، ووقع القتال بين الطرفين، ينتصر هذا تارةً ثم يُهزم، ويحلّ الآخر مكانه، وبعد مدةٍ يعود الأول للحكم ويفرّ الثاني وهكذا حتى دخل تيمورلنك الهند في ١٢ محرم من عام ٨٠١، فأخذ السند والبنجاب، وسار نحو دهلي فدخلها في ١٦ جمادى الآخرة، وخرج منها محمود شاه إلى كوجرات. وبقي تيمورلنك في دهلي خمسة عشرة يوماً ثم رجع إلى البنجاب ومنها إلى خراسان، فاستقل الأمراء بالهند، ورجع محمود شاه إلى مقر حكمه، ولم يبق له سوى دهلي والبنجاب. وتوفي عام ٨١٥، وبوفاته انتهى حكم آل تغلق.

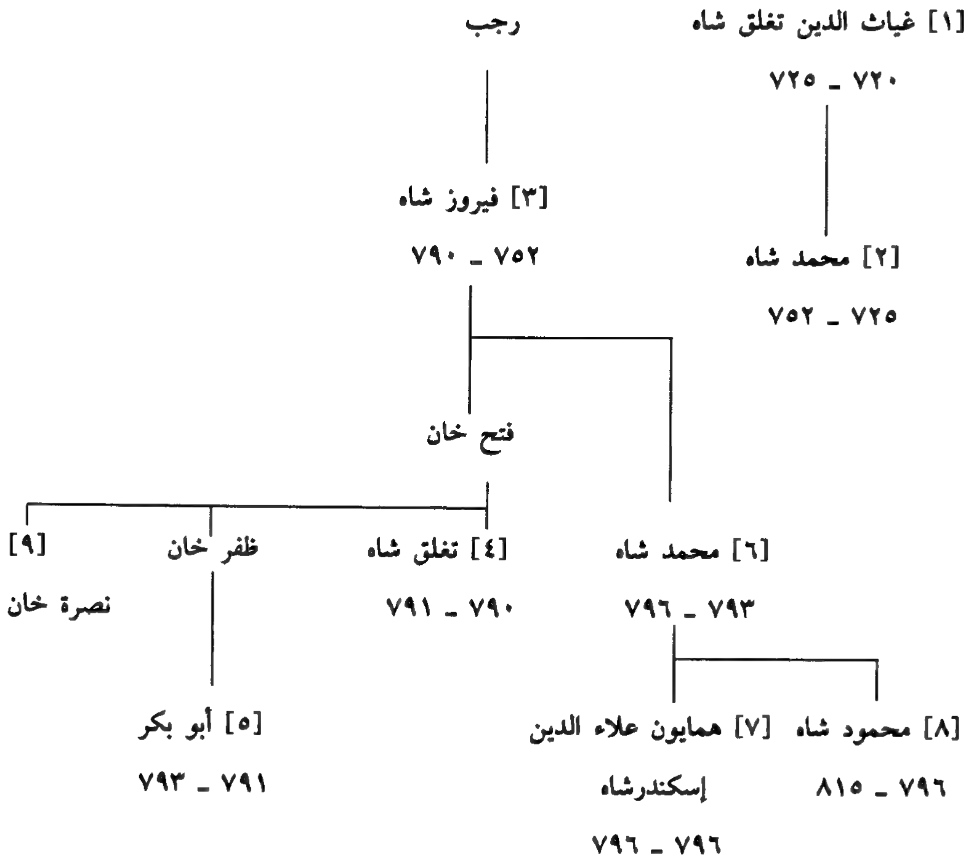

٤" ـ آل خضر

٨١٥ ـ ٨٥٥

حكمت هذه الأسرة دهلي مدة أربعين سنة (٨١٥ ـ ٨٥٥)، وقد تعاقب منها أربعة ملوك.

١" ـ خضر خان:

بن شرف الدين بن سليمان: كان جده سليمان مولى لأحد ولاة ملتان وهو «مردان» فلما مات خلفه ابنه «ملك شيخ» فلما مات عهد إلى سليمان، بحكم تلك المدينة، ومنه انتقل إلى حفيده خضر هذا في أيام فيروزشاه. ولما دخل تيمورلنك الهند عام ٨٠١ تقرّب «خضر» منه، فقويت شوكته، وأراد محمود شاه أن يستأصله فلم يقدر عليه، وخاصة أن أمر محمود شاه كان ضعيفاً بعد تيمورلنك، وينازعه نصرة خان. ولما مات محمود شاه عام ٨١٥ دخل خضر خان دهلي، وجلس على كرسي السلطة. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٨٢٤.

٢" ـ مبارك شاه:

لما توفي خضر خان اتفق الأعيان على تولية ابنه مبارك شاه، كان من خيار الملوك، عادلاً رحيماً، كريماً. قتل عام ٨٣٧، وقد حكم مدة ثلاث عشرة سنة، قتله بعض الكفرة وهو يستعد للصلاة.

٣" ـ محمد شاه:

لما قتل مبارك شاه، اهتبل ابن أخيه محمد شاه بن فريد، واستلم السلطة، وإن كان عمه قد أوصى له بذلك. وقد حكم أربع عشرة سنةً قضاها كلها في الحروب، وتوفي عام ٨٤٧.

٤" ـ علاء الدين شاه:

أوصى محمد شاه من بعده لولده علاء الدين. خرج عليه أحد كبار

الأمراء، حاكم ديبالبور، فلما خرج علاء الدين إلى بدايون دخل حاكم ديبالبور بهلول اللودي دهلي، وقبض على الخزائن، واستولى على القصور، وبايعه الناس، فأقام نائباً عنه بدهلي، وعاد إلى ديبالبور، وراسل علاء الدين، فقنع علاء الدين بما تحت يده في بدايون، وترك السلطة لبهلول، وبقي علاء الدين في موضعه حتى توفي عام ٨٥٥ فجاء بهلول بعد ذلك إلى دهلي.

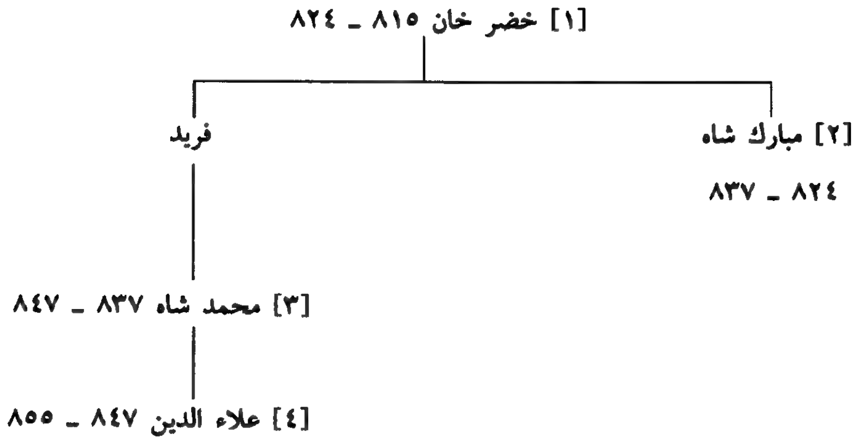

٥" ـ اللوديون
٨٥٥ ـ ٩٣٢

حكمت هذه الأسرة مدة سبع وسبعين سنة (٨٥٥ ـ ٩٣٢)، وتعاقب عليها ثلاثة ملوك، وانتهت بدخول ظهير الدين محمد بابر التيموري إلى الهند، وأسس الأسرة التيمورية التي بدأت تحكم الهند.

١" ـ بهلول بن كالا اللودي:

كان منذ أيام محمد شاه آل خضر من كبار الأمراء، وقد ولّاه ديبالبور، غير أنه خرج عليه، ولكنه هزم أمامه، فرجع إلى مقر إمارته في ديبالبور. ولما آل حكم دهلي إلى علاء الدين بن محمد شاه، ورأى الضعف بدأ ينخر بالدولة خلع الطاعة، ورحّب به الناس، قصد دهلي ونزل

بالقصر الملكي، عام ٨٥٥، وذلك بعد وفاة علاء الدين، وبقي في الحكم ثماني وثلاثين سنة (٨٥٥ ـ ٨٩٤)، وكان عادلاً، كريماً، محباً للخير.

٢" ـ نظام خان بن بهلول:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، ولقّب نفسه إسكندر، كان خيّراً كوالده، أسس المدارس وبنى المساجد، ورفع الضرائب، وأجبر الهنود أن يتعلّموا الفارسية، وأمر بترجمة علوم الهند إلى الفارسية. وتوفي عام ٩٢٣.

٣" ـ إبراهيم بن نظام خان:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، وأجمع الناس عليه، غير أنه بعد أن تسلّم الأمر بدأ يتعدّى على أمراء أبيه، فأظهروا الطاعة له وفي الوقت نفسه اتصلوا ببابر شاه التيموري في كابل، وطلبوا منه القدوم إلى دهلي ليحكمها.

جاء بابر شاه، واستولى على القلاع التي في طريقه، وانتصر على الولاة ثم التقى بإبراهيم خان الذي قابله بمائة ألف على حين لم يكن مع بابر شاه سوى خمسة عشرة ألفاً، ففرّ جنود إبراهيم، وثبت جنود التتار، فقتل إبراهيم في ساحة القتال بعد أن خذله جنده وذلك عام ٩٣٢.

[١] بهلول بن كالا اللودي

٨٥٥ ـ ٨٩٤

|

[٢] نظام خان

٨٩٤ ـ ٩٢٣

|

[٣] إبراهيم خان

٩٢٣ ـ ٩٣٢

الفصل الثالث

ملوك المقاطعات

لم تكن بلاد الهند في هذه المرحلة التاريخية ذات وحدةٍ سياسيةٍ تحكم كلها من دهلي، أو لم يكن المسلمون في الهند جميعاً، يرتبطون بسلطانٍ واحدٍ، وإنما كانوا مُتفرقين، يقوم عدد من الحكام في آنٍ واحد، على كل رقعةٍ محددةٍ يسيطر ملك، فإضافةً إلى الملك في دهلي كان ملوك آخرون في كشمير، وكوجرات، والدكن، والسند، والبنغال.

١" ـ ملوك كشمير

جاء رجل إلى كشمير من خراسان عام ٧١٥، يُدعى شاه مرزا، وخدم ملكها الوثني، ثم أصبح وزير ابنه عندما آل إليه الحكم، وأوكلت إليه مهمات كبيرة في الدولة، وأصبح له ولأبنائه إقطاعات واسعة، ووصل الحكم إلى امرأةٍ بعد هلاك زوجها، فتزوّجت شاه مرزا، وأسلمت، ثم رغبت الغدر به، فأحسّ بما تنوي له، فقبض عليها، وسجنها، واستلم أمر البلاد عام ٧٤٤، فبذل جهده في إعمار البلاد، وتحسين وسائل الزراعة، وألغى الضرائب، وأحسن إلى الناس فأحبوه، وعدل بين الرعية، وتقرّب إلى العلماء. وأسس أسرةً حاكمةً بقيت تحكم كشمير أكثر من قرنين وربع (٧٤٤ ـ ٩٧٠). ولما أحسّ بالتعب اعتزل السلطة، وانصرف إلى العبادة، وأوكل أمور السلطة إلى ابنه جمشيد عام ٧٤٧، وعاش بعدها ما يقرب من عام إذ توفي عام ٧٤٨.

ولما توفي شاه مرزا، خرج على جمشيد بن شاه مرزا أخوه علي شير، وتمكّن من بسط نفوذه فخرج جمشيد من البلاد، وحل مكانه في

السلطة أخوه علي شير فتلقّب باسم علاء الدين، وحكم ما يزيد على اثنتي عشرة سنة (٧٤٨ ـ ٧٦٠) ثم توفي.

وخلف علاء الدين أخوه «سراشامك» الذي كان يضبط أمور الدولة لأخيه علاء الدين، وتسمّى باسم شهاب الدين، وقد حارب ملوك التبت وفرض عليهم الجزية، وحكم كشمير مدة عشرين سنة (٧٦٠ ـ ٧٨٠)، وقد فتح في أثناء حكمه كثيراً من الجهات.

وأتى بعد علاء الدين أخوه قطب الدين، وكان عادلاً كريماً، وزادت مدة حكمه على خمس عشرة سنة (٧٨٠ ـ ٧٩٦). وخلفه ابنه اسكندر الذي كان له وزير براهمي فأسلم، وكسر الأصنام، ومنع البراهمة من حرق النساء اللواتي يتوفى رجالهن، ومنع بيع الخمور، وهدّم الكنائس، وشدّد على البراهمة الأمر الذي ساق عدداً كبيراً منهم إلى الإسلام، وحكم مدة اثنتين وعشرين سنة (٧٩٦ ـ ٨١٩).

وأتى بعد إسكندر ابنه علي شاه الذي اختلف مع أخيه شاهي خان الذي سار إلى البنجاب فجمع الجند، وقادهم لقتال أخيه، فانتصر عليه، وتسلّم السلطة مكانه عام ٨٢٦، فكان حكم علي شاه سبع سنوات (٨١٩ ـ ٨٢٦).

استلم شاهي خان السلطة، وتلقّب باسم زين العابدين، كان كريماً رحيماً عطوفاً على الرعية، لكن إسلامه كان ضعيفاً، فقد أعطى الحريات لسائر أهل الديانات، ومنهم البراهمة، وتقرّب إليهم فمنع ذبح البقرة، وأذن لهم بحرق النساء اللواتي يتوفى أزواجهن، وكانت هذه العادة متبعة في الأسر الشريفة، وكان يعفو عن المجرمين. وقد حرص على تشجيع وسائل الزراعة، وتعمير البلاد، وحماية الحدود، ونقلت في عهده بعض العلوم من العربية والفارسية إلى الهندية، وبقي في السلطة اثنتين وخمسين سنة (٨٢٦ ـ ٨٧٧).

عندما توفي السلطان زين العابدين خلفه ابنه (حاجي خان) الذي لقّب نفسه شاه حيدر، وقد سخط عليه الأمراء لتعاطيه الخمرة، فدبّروا مؤامرةً لخلعه، غير أنه توفي قبل أن تتمّ، ولم تزد مدة حكمه على السنة والشهرين (٨٧٧ ـ ٨٧٨). وجاء بعده ولده حسن، فبذل المال للناس، وقاتل عمه بهرام خان، وانتصر عليه، وقتله، وتوفي عام ٨٨٤.

تولّى إمرة بلاد كشمير بعد حسن شاه ابنه محمد شاه، وكان صغيراً لا

يزيد عمره على عشر سنين كثيراً، لذا كان ألعوبة بيد الأمراء، فخرج عليه ابن عم أبيه فتح خان بن آدم خان بن زين العابدين، وهزمه، فخرج محمد شاه من البلاد بعد أن حكم مدة ١٠ سنوات (٨٨٤ ـ ٨٩٤)، وغاب مدة تسع سنوات حكم في أثنائها كشمير فتح خان، ورجع محمد شاه بعد هذه المدة وقد استعد للقاء فتح خان فالتقى معه، وانتصر عليه فخرج فتح خان إلى بلاد البنجاب، وعاد محمد شاه إلى الحكم مرةً ثانيةً، لكنه لم يلبث أن جمع فتح خان قوة في بنجاب وسار إلى كشمير وأخرج محمد شاه منها، وتسلّم أمرها، ولم يمكث فتح شاه في السلطة في المرة الثانية سوى عامٍ وشهر واحدٍ. ورجع محمد شاه مرةً ثالثة إلى الحكم، وخرج فتح خان إلى البنجاب، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٢٢. غير أن أهل كشمير قد اتفقوا على مبايعة إبراهيم شاه بن محمد شاه، وسجن الأب في قلعة هناك، وسار أبدال بن إبراهيم الماكري إلى دهلي، وطلب الدعم من ظهير الدين بابر شاه التيموري فأعانه، ورجع أبدال فقاتل إبراهيم وانتصر عليه، وقُتل إبراهيم في المعركة، وعندها نصّب أبدال مكانه ابنه نازك، وكان هو مطلق اليد في أمور الحكم، ثم تغيّر رأي أبدال فخلع نازك من شؤون السلطة، وأخرج محمد شاه من السجن وسلّمه الحكم للمرة الرابعة، فبقي فيه حتى مات عام ٩٤٦، وعندما مات جاء أبدال بنازك شاه مرةً ثانية، وفي هذه الأثناء توفي أبدال، فاستبد بأمر نازك شاه رجل من الأسرة التيمورية يُعرف باسم مرزا حيدر بن محمد حسين بل أصبح هو الحاكم وذلك مدة عشر سنوات (٩٤٨ ـ ٩٥٨)، فلما قتل مرزا حيدر رجع نازك شاه للحكم مرة ثالثة، ولكن كان ضعيفاً كعادته فكان ألعوبة بيد الأمراء والوزراء، وليس له من الحكم سوى الاسم، فاتفقوا على خلعه، وتولية ابنه إبراهيم شاه، وبعد خمسة أشهر عادوا فخلعوا إبراهيم عام ٩٦٣هـ، وولّوا مكانه أخاه إسماعيل فلبث مدة سنتين (٩٦٣ ـ ٩٦٥) ثم توفي، وخلفه ابنه حبيب شاه الذي حكم خمس سنوات (٩٦٥ ـ ٩٧٠) ثم خرج عليه أحد الأمراء، وتسلّم مكانه وهو غازي شاه الكشميري، وهو من الشيعة، وقد حكم الشيعة مدة خمس وعشرين سنة (٩٧٠ ـ ٩٩٥) وجاء منها ثلاثة حكام، ثم تبعت كشمير إلى التيموريين.

- [١] شمس الدين شاه مرزا ٧٤٤ ـ ٧٤٧
  - [٢] جمشيد ٧٤٧ ـ ٧٤٨
  - [٣] علي شير «علاء الدين» ٧٤٨ ـ ٧٦٠
  - [٤] سراشامك «شهاب الدين» ٧٦٠ ـ ٧٨٠
  - [٥] قطب الدين ٧٨٠ ـ ٧٩٦
    - [٦] إسكندر ٧٩٦ ـ ٨١٩
      - [٧] علي شاه ٨١٩ ـ ٨٢٦
      - [٨] شاهي خان «زين العابدين» ٨٢٦ ـ ٨٧٧
        - [٩] حاجي خان «حيدر» ٨٧٧ ـ ٨٧٨
          - [١٠] حسن شاه ٨٧٨ ـ ٨٨٤
            - [١١] محمد شاه
              ٨٨٤ ـ ٨٩٤ المرة الأولى
              ٩٠٣ ـ ٩٠٤ المرة الثانية.
              ٩٠٥ ـ ٩١٧ المرة الثالثة.
              ٩١٩ ـ ٩٤٦ المرة الرابعة.
              - [١٣] إبراهيم شاه ٩١٧ ـ ٩١٨
                - [١٤] نازك شاه
                  ٩١٨ ـ ٩١٩ المرة الأولى
                  ٩٤٦ ـ ٩٤٨ المرة الثانية
                  ٩٥٨ ـ ٩٦٣ المرة الثالثة.
                  - [١٥] إبراهيم شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٣
                  - [١٦] إسماعيل شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٥
                    - [١٧] حبيب شاه ٩٦٥ ـ ٩٧٠
        - بهرام خان
        - آدم خان
          - [١٢] فتح خان
            ٨٩٤ ـ ٩٠٣ المرة الأولى
            ٩٠٤ ـ ٩٠٥ المرة الثانية.

٢ ـ ملوك السند

فتح محمد بن القاسم السند عام ٩٣، وبقي الولاة من العرب يعيّنون من مركز الخلافة حتى منتصف القرن الثالث، وبعدها تمكّنت المرازبة من أسرة «سومرة» من حكم المنطقة، واستمر حكمها حوالي مائة سنة أي إلى منتصف القرن الرابع، وقامت بعدها أسرة أخرى تُعرف باسم «سمّه»، فكان حكامها يخضعون لملوك دهلي، وأحياناً أخرى يستقلون بمنطقتهم.

وعندما آل حكم غزنة إلى محمود بن سبُكتُكين وبدأ يجاهد في أرض الهند، واستمر خلفاؤه من بعده فإنما كان دخولهم إلى الهند عن طريق البنجاب الأمر الذي أبقى أسرة «سمّه» في بسط نفوذها على السند، وقد خالف حاكمها عام ٧٦٠ سلطان دهلي فيروز شاه من آل تغلق، فغزاه السلطان عام ٧٦٢ ففرّ أمير أسرة «سمّه» وهو «جام ماني» إلى كوجرات، وأعاد فيروز شاه الغزو في العام التالي (٧٦٣)، وتمكّن من دخول السند، وأسر «جام ماني» وحمله إلى دهلي، وبعد مدة أطلق سراحه، وجعله والياً من قبله على السند، ويبدو أنه قد وعد بالسير في طريق الإسلام، وحكمت هذه الأسرة مدة سبع وأربعين سنة تعاقب عليها ستة ملوك، وهم: جام ماني وحكم ١٥ سنة، وابنه جام تماجي ومدته ١٣ سنة، ثم صلاح الدين ١١ سنة، ثم ولده نظام الدين وقد حكم سنتين، ثم ولده علي شير، وحكم ست سنوات ثم ولده كران، وقد قتل في اليوم الثاني لتوليته، واختار الناس فتح خان بن الإسكندر، وهو من أسرة «ستمكان» التي حكمت السند أكثر من مائة سنة، ثم زالت عام ٩٢٧ على يد شاه بيك القندهاري، وتولّى أبناؤه الحكم، واستمروا من بعده حتى دخلت جنود أكبر شاه بن همايون البلاد عام ٩٩٥.

٣ ـ ملوك ملتان

كانت البنجاب تتبع سلاطين دهلي، فلما ضعف الحكم في دهلي بعد فيروز شاه، وبدأت حملات التتار على البنجاب، ولّى السكان عليهم

الشيخ يوسف سنة ٨٤٧، ولكن رئيس الجند الأفغانيين (رايصهره) قد احتال عليه، وقبض عليه، وسجنه، وتسلّم هو أمر الملك، ولقّب نفسه قطب الدين لنكاه، وبقي في السلطة حتى توفي عام ٨٧٤، وقد حكم ستة عشرة سنة (٨٥٨ ـ ٨٧٤)، وخلفه ابنه حسين شاه وقد طال حكمه، وتقدّمت به السن فعيّن ابنه فيروز شاه مكانه غير أن فيروز كان سيئاً فقتل مسموماً، فعيّن والده مكانه ابنه محمود بن فيروز الذي اختلف مع وزيره الذي خطب لسلطان دهلي إسكندر بن بهلول اللودي (٨٩٤ ـ ٩٢٣). ولما دخل بابرشاه التيموري دهلي عام ٩٣٢ أمر ملك السند شاه حسين القندهاري أن يضمّ إلى بلاده السند منطقة ملتان فسار إليها وفتحها عام ٩٣٢.

٤ ـ ملوك كوجرات

كوجرات شبه جزيرة تقع في غربي الهند، وأكبر مدنها الآن أحمد أباد نسبةً إلى ملكها الذي أول ما استقل بها، والذي نتكلم عنه الآن. كانت تتبع دهلي حتى عهد محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق. وقد تولى أمرها عام ٧٩٣ ظفر خان بن وجيه الدهلوي، وقد استقل عن دهلي عام ٨١٠ أيام محمود شاه آخر ملوك بني تغلق، وقد كان ظفر خان هذا حسن العقيدة، عمل مجاهداً مدة حكمه، وتوفي عام ٨١٣.

عندما توفي ظفر خان خلفه ابنه أحمد الذي أسس مدينة أحمد أباد كبرى مدن كوجرات اليوم، وطالت أيامه حتى عام ٨٤٥، فيكون عهده اثنتين وثلاثين سنة، وتولى بعده ولده غياث الدين محمد شاه، فكان جواداً، شجاعاً، وقد حكم عشر سنوات (٨٤٥ ـ ٨٥٥) مذ كان صبياً في العاشرة من عمره حتى الثامنة والعشرين، ومات ولا يزال في ريعان الشباب. وخلفه ابنه قطب الدين أحمد شاه، واستمر حكمه سبع سنوات ونصف، وقاتل الكفار، وتوفي عام ٨٦٢، وتولى ابنه داود شاه، وكان صغيراً وغير أهل للحكم، فلم يحكم سوى سبعة أيام.

[١] مظفر شاه ٨١٠ ـ ٨١٣

محمد

[٢] أحمد شاه ٨١٣ ـ ٨٤٥

[٣] غياث الدين محمد شاه ٨٤٥ ـ ٨٥٥

[٤] قطب الدين أحمد شاه ٨٥٥ ـ ٨٦٢

[٦] محمود شاه ٨٦٢ ـ ٩١٧

[٥] داود شاه ٨٦٢ ـ ٨٦٢

[٧] مظفر شاه ٩١٧ ـ ٩٣٢

[٨] إسكندر شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٢

[٩] نصير محمود شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٢

[١٠] بهادور شاه ٩٣٢ ـ ٩٤٣

لطيف خان

[١١] محمود شاه ٩٤٣ ـ ٩٦١

أحمد شاه ٩٦١ ـ ٩٦٩

مظفر شاه ٩٦٩ ـ ٩٨٠

مظفر شاه للمرة الثانية ٩٨١ ـ ٩٩٢

اختار الأمراء بعد عزل داود عمه محمود شاه أبا الفتح، وكان عمره خمس عشرة سنة، فأحسن السياسة، وقاتل الكفار، وفتح الحصون، فاتسعت أملاكه. واستمر حكمه خمسة وخمسين عاماً، وتوفي سنة ٩١٧. وتولّى ابنه مظفر شاه الحليم ويُكنّى أبا النصر، وكان ورعاً، كريماً، وحكم أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفي عام ٩٣٢. وخلفه ابنه إسكندر شاه، ولم يحسن السياسة فخلعه الأمراء بعد ثلاثة أشهر، وعيّنوا مكانه أخاه نصير الذي عُرف باسم محمود شاه، ثم إن عماد الملك قتل إسكندر شاه، وأصبح محمود شاه ألعوبةً بيد عماد الملك، ولم تطل الأيام سوى أربعة أشهر، إذ كان أخو محمود شاه وهو بهادور شاه في دهلي فرجع إلى كوجرات فاجتمع إليه الأمراء ففرّ عماد الملك فتبعه وقتله، وتسلّم الأمر، وأخذ الرعية بسياسةٍ حسنةٍ، وهاجمه همايون بن بابر التيموري فهُزم بهادورشاه، واتجه إلى بلاد السواحل، ثم رجع همايون إلى دهلي فعاد بهادور إلى أحمد أباد، واصطدم مع البرتغاليين وقتل عام ٩٤٣.

تولى الأمر بعد بهادور ابن أخيه محمود شاه بن لطيف خان فحكم ثماني عشرة سنة، وقام ببعض الفتوحات، وقتله أحد غلمانه عام ٩٦١.

حكم بعد محمود شاه أحد أفراد أسرة أحمد شاه واسمه رضي الملك، وحكم ثمان سنوات كان في خلالها ألعوبةً بيد الوزراء، وقد لُقّب أحمد شاه، وقتل عام ٩٦٩. ثم جاء بعده مظفر شاه وكان ضعيفاً، وآلت الدولة عام ٩٨٠ إلى التيموريين، ثم فرّ مظفر شاه من وجههم، وعاد بعد سنة إلى أحمد أباد، وسيطر على بعض المناطق، وهزم التيموريين، ولكن آل أمره إلى الضعف وانتهى بسيطرة التيموريين عام ٩٩٢.

٥ ـ ملوك جونبور

تقع جونبور بين نهر الغانج ورافده نهر غاغارا، جنوب شرقي دهلي وعلى بعد ٦٢٠ كيلومتراً منها، أو شمال غربي بنارس وعلى بعد ٦٠ كيلومتراً منها، كانت تتبع مملكة دهلي إلى زمن الملك محمود شاه آل تغلق، حيث استقل فيها خواجه جهان سرور عام ٧٩٦ أي العام الذي تولّى فيه محمود شاه السلطة.

كان سرور ناظراً عند حرم محمد شاه، ثم رقّاه إلى مرتبة وزير، ولقّبه خواجه جهان، فلما مات محمد شاه، واستلم الملك بعده ولده محمود شاه ولّى خواجه جهان سرور على جونبور، فقام بالأمر بقوة وخضع له ملوك البنغال، وإن كان يدعو لمحمود شاه ملك دهلي إلّا أنه في الواقع مستقل بأمره، وقد حكم جونبور وبيهار مدة ست سنوات وبضعة أشهر حيث توفي عام ٨٠٢هـ.

وخلف خواجه جهان سرور مولاه قرنفل الذي رباه وتعهده وعهد إليه بالسلطة من بعده، فلقّب نفسه مبارك شاه، وقطع الخطبة عن محمود شاه، وخطب لنفسه، ولم تطل أيامه فقد توفي عام ٨٠٤، فكانت مدة حكمه سنة ونصف السنة.

وتولّى أمر جونبور بعد مبارك شاه أخوه إبراهيم شاه، وقد اتجه غرباً وأراد ضمّ قنوج إليه، فصدّه عنها محمود شاه، فتركها وسار نحو دهلي، فدعم صاحب كوجرات مظفر شاه الملك محمود شاه فاضطر إبراهيم شاه أن يعود إلى جونبور. وحاول مرةً ثانيةً السير إلى دهلي أيام مبارك شاه بن خضر، ووقع القتال بينهما، ولم يفلح إبراهيم شاه في مهمته، وحكم مدة أربعين سنة كانت جونبور في عهده مدينة العلم، وهو حسن السيرة صاحب دين وخلق وعقل، وتوفي عام ٨٤٤.

خلف إبراهيم شاه ابنه محمود شاه، وحكم مدة تزيد على عشرين

سنة، وقد اصطدم مع جيرانه، وتوفي عام ٨٦٤، وقام بعده ولده محمد شاه لمدة خمسة أشهر حيث زادت تعدياته على الناس، فخلع، ونُصّب مكانه أخوه حسين شاه فبنى قلعة بنارس عام ٨٦٩، وصالح جيرانه بعد معارك بينه وبينهم، وأخذ المال منهم مقابل الصلح مثل ملك أوريسا. وسار إلى دهلي عام ٨٧٨، وملكها بهلول اللودي فأغراه بأنه يتنازل له، وهو يزيد في طمعه، حتى ألزمه على القتال، فتغلّب بهلول اللودي عليه فاضطر إلى الرجوع إلى جونبور، وحاول ثانيةً دخول دهلي، وثالثةً ورابعة وفي كل مرة يُهزم أمام بهلول، وفي المرة الأخيرة تبعه بهلول إلى جونبور فدخلها، ففرّ حسين إلى جهةٍ نائيةٍ في دولته، فأقام بهلول في جونبور ابنه باربك بن بهلول سلطاناً، وعاد إلى دهلي، وعندما تولّى أمر دهلي إسكندر بن بهلول تعقّب حسين شاه فهرب إلى البنغال، وانقرضت الدولة عام ٨٨١، وقد حكم حسين تسع عشرة سنة، وتوفي في البنغال عام ٨٩٥.

[١] خواجه جهان سرور ٧٩٦ ـ ٨٠٢

[٢] مبارك شاه قرنفل ٨٠٢ ـ ٨٠٤

[٣] إبراهيم شاه
٨٠٤ ـ ٨٤٤

[٤] محمود شاه
٨٤٤ ـ ٨٦٣

[٥] محمد شاه
٨٦٣ ـ ٨٦٣

[٦] حسين شاه
٨٦٣ ـ ٨٨١

٦ ـ ملوك البنغال

فتح البنغال عز الدين محمد بن بختيار الخلجي عام ٥٩٩ بأمر من قطب الدين أيبك، وبعد ثلاث سنوات توفي عز الدين هذا فولّى قطب الدين مكانه محمد شيران الخلجي، غير أن علي مردان أحد الأمراء قد سار إلى دهلي، وتقرّب من قطب الدين أيبك فاستعمله على البنغال فسار علي مردان وقاتل محمد شيران الذي فرّ، وانتهى أمره، وضبط علي مردان المنطقة، ولما مات قطب الدين عام ٦٠٧ استقل علي مردان في بلاد البنغال، وتلقّب باسم علاء الدين، ولكنه لم يلبث أن توفي عام ٦٠٩، واتفق أهل البنغال على عوض بن الحسين الخلجي، ولقّب نفسه غياث الدين، ووقع الصدام بينه وبين ملك دهلي شمس الدين إيلتمش الذي بعث الجيش إثر الجيش إلى البنغال، واتفقا على الصلح عام ٦٢٢ بعد أن سار بنفسه شمس الدين إيلتمش إلى جهة البنغال، وتمكّن من أخذ بيهار، ولم تمض غير مدةٍ قصيرةٍ حتى عاد الاختلاف، فبعث إيلتمش ولده ناصر الدين محمود عام ٦٢٤ فاستطاع أن يهزم غياث الدين، وأن يقتله، وأن يحتل البنغال. وتولّى أمرها لأبيه، وهكذا عادت البنغال تتبع دهلي.

توفي ناصر الدين محمود عام ٦٢٦، فسار شمس الدين إيلتمش إلى البنغال، وأصلح أمورها، وولّى عليها علاء الدين خان الذي عرف باسم عزة الملك، وبقي حتى عام ٦٣٠، ثم جاء سيف الدين الترك حتى عام ٦٣٣، ثم عز الدين طغان خان، وبقي حتى عام ٦٤٦، وكان قد توفي شمس الدين إيلتمش عام ٦٣٣.

جاء التتار إلى البنغال عن طريق التبت عام ٦٤٦، فأرسل ملك دهلي علاء الدين مسعود جيشاً لقتال التتار بإمرة قره تيمور خان فانتصر على التتار، وأخرجهم من البلاد، وتولّى حكم البنغال حتى عام ٦٥٦، وخلفه عليها جلال الدين خان الذي عُزل بعد سنة، وحلّ مكانه أرسلان خان، ثم ابنه تاتار الذي بقي حتى عام ٦٦٤، وتسلّم الولاية بعد ذلك طغرل الذي خلع طاعة ملك دهلي علي غياث الدين بلبن، ولقب نفسه عام ٦٧٨ مغيث الدين وعادت البنغال لتنفصل عن دهلي مرة أخرى.

بعث غياث الدين بلبن جيشاً إلى البنغال بإمرة البتكين غير أنه هُزم، فسار بلبن بنفسه، وتمكّن من دخول البنغال، فولّى عليها ابنه ناصر الدين محمود المعروف باسم بغراخان. وتوفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦، وعهد من بعده لحفيده معز الدين وهو ولد ناصر الدين محمود فتأثر الأب وسار إلى ابنه والتقيا غير أنهما قد تصالحا، وتنازل ناصر الدين محمود لابنه معز الدين، وعاد إلى البنغال، وبقي حاكماً لها حتى عام ٦٩١ حيث توفي، وخلفه ابنه ركن الدين وبقي حتى عام ٧٠٢ فخلفه أخوه شمس الدين واستمر في ولايته حتى عام ٧٢٢، وتولّى مكانه ابنه شهاب الدين. وخرج عليه أخوه غياث الدين، وانتصر عليه، فسار شهاب الدين إلى دهلي، واستنجد بغياث الدين تغلق ملك دهلي فأنجده، وأعاده إلى ولاية البنغال مكان أخيه الذي حُمل أسيراً إلى دهلي. ولما توفي غياث الدين تغلق وقام مكانه ابنه محمد شاه عام ٧٢٥ أطلق سراح غياث الدين فعاد إلى البنغال ونقض عهد محمد شاه فقاتله، وقتل غياث الدين، فولى محمد شاه مكانه على البنغال تاتار الذي قتله الجند، وبدأت ولاية البنغال تتجزأ.

استطاع الحاج إلياس الذي تلقّب باسم شمس الدين أن يسيطر على المنطقة وما انفصل عنها، والتقى مع ملك دهلي فيروز شاه، فانهزم، والتجأ إلى بعض القلاع، فلما عاد فيروز شاه إلى دهلي، رجع شمس الدين إلى مقره وراسل فيروز شاه وبعث له الهدايا، وتوفي شمس الدين عام ٧٥٩ بعد أن حكم ست عشر سنة، وتولّى مكانه ابنه إسكندر شاه فبقي على مودته لفيروز شاه، وبقي في الحكم تسع سنوات، وخلفه ابنه غياث الدين لمدة سبع سنوات، وكان من أفاضل الملوك وتوفي عام ٧٧٥، وخلفه ابنه سيف الدين، ولقب نفسه سلطان السلاطين وتوفي عام ٧٨٥، وخلفه ابنه شمس الدين، وكان ضعيفاً فغلب عليه أحد أمرائه من الوثنيين، ولم يبق سوى سنتين، فاستقل الأمير الوثني بالحكم، وخلفه ابنه الذي أعلن إسلامه وتسمّى باسم جلال الدين وتوفي ٨١٢ بعد أن حكم سبع عشرة سنة، وتولى مكانه ابنه أحمد شاه حتى توفي عام ٨٣٠.

خلف أحمد شاه ناصر الدين شاه وهو من أسرةٍ ثانيةٍ وبقي مدة ٣٢ سنة حيث توفي عام ٨٦٢، وقام مكانه ابنه باربك شاه حتى ٨٧٩، وخلفه ابنه يوسف شاه حتى ٨٨٧، وكان من خيار السلاطين ثم حكم ابنه فتح شاه، وكان صالحاً فقتله الأحباش الذين كانوا متسلطين على الحكم وذلك عام ٨٩٦.

تولّى حكم البنغال بعد فتح شاه قاتله باربك وهو عبد حبشي، ولم يدم له الأمر سوى ثمانية أشهر حيث قتله عبد حبشي آخر اسمه «انديل» ولقّب نفسه فيروز شاه وقد بقي حتى توفي عام ٨٩٩، وخلفه ابنه محمود شاه، وقتله بدر الحبشي وتسلّم السلطة لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة، وتسمّى باسم مظفر شاه، وقتله وزيره حسين بن أشرف الحسيني المكي الذي تسلّم الأمر مكانه وتسمّى باسم علاء الدين، وقد توفي عام ٩٢٧، وخلفه ابنه نصرة الذي توفي عام ٩٤٣. وتولّى مكانه ولده محمود شاه، وخرج عليه شيرشاه السوري فأخرجه من البنغال فسار إلى دهلي واستنصر بهمايون بن بابر التيموري، فسار إليه عام ٩٤٥ وهزمه، فلما عاد همايون، ووصل إلى (أكره) رجع شير شاه السوري، واستعاد سلطته.

فتح البنغال عز الدين الخلجي عام ٥٩٩

عز الدين الخلجي	٥٩٩ ـ ٦٠٢
محمد شيران الخلجي	٦٠٢ ـ ٦٠٥
علي مردان	٦٠٥ ـ ٦٠٩
عوض بن حسين الخلجي	٦٠٩ ـ ٦٢٤
ناصر الدين محمود	٦٢٤ ـ ٦٢٦
علاء الدين خان	٦٢٦ ـ ٦٣٠
سيف الدين الترك	٦٣٠ ـ ٦٣٣
عز الدين طغان خان	٦٣٣ ـ ٦٤٦

جاء التتار عن طريق التبت

قرة تيمور خان	٦٤٦ ـ ٦٥٦
جلال الدين خان	٦٥٦ ـ ٦٥٧
أرسلان خان	٦٥٧ ـ ٦٦٠

تاتار بن أرسلان خان	٦٦٠ ـ ٦٦٤	
طغرل	٦٦٤ ـ ٦٧٩	
ناصر الدين محمود بلبن	٦٧٩ ـ ٦٩١	
ركن الدين بلبن	٦٩١ ـ ٧٠٢	
شمس الدين بلبن	٧٠٢ ـ ٧٢٢	
شهاب الدين بلبن	٧٢٢ ـ ٧٢٣	
غياث الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٣	
شهاب الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٥	
تاتار	٧٢٥ ـ ٧٢٦	
		فوضى
شمس الدين الحاج إلياس	٧٤١ ـ ٧٥٩	
إسكندر شاه	٧٥٩ ـ ٧٦٨	
غياث الدين	٧٦٨ ـ ٧٧٥	
سيف الدين	٧٧٥ ـ ٧٨٥	
شمس الدين	٧٨٥ ـ ٧٨٧	
	٨٧٧ ـ ٨٩٥	أمير وثني
جلال الدين	٧٩٥ ـ ٨١٢	أسلم
أحمد شاه	٨١٢ ـ ٨٣٠	
ناصر الدين شاه	٨٣٠ ـ ٨٦٢	
باربك شاه	٨٦٢ ـ ٨٧٩	
يوسف شاه	٨٧٩ ـ ٨٨٧	
فتح شاه	٨٨٧ ـ ٨٩٦	
باربك الحبشي	٨٩٦ ـ ٨٩٧	
فيروز شاه الحبشي	٨٩٧ ـ ٨٩٩	
محمود شاه الحبشي	٨٩٩ ـ ٩٠٠	
بدر الحبشي	٩٠٠ ـ ٩٠٤	
علاء الدين	٩٠٤ ـ ٩٢٧	
نصرة شاه	٩٢٧ ـ ٩٤٣	
محمود شاه	٩٤٣ ـ ٩٤٥	خرج عليه شير شاه السوري

٧" ـ ملوك الدكن

أقطع محمد شاه تغلق بعض قرى في الدكن إلى علاء الدين البهمني، وفرّ عدد من أمراء كوجرات من وجه محمد شاه تغلق خوفاً منه، وساروا نحو الدكن، وولّوا عليهم إسماعيل الفتح الأفغاني، وذلك بالاتفاق مع أمرائها ومنهم علاء الدين البهمني، فسار إليهم محمد شاه تغلق بجنود كثيرة، فقاتلوه وتحصّن علاء الدين بقلعته، ثم تقدّم، واحتل دولة أحمد أباد، وانتصر على جيوش دهلي، فأصبح ملك المنطقة، واعتزل إسماعيل الفتح الأفغاني أو تنازل له.

استطاع علاء الدين أن يستولي على كل ما فتحه المسلمون في الدكن، وقاتل أهل كيرالا، وأخذ منهم الأموال. وهو أول من استعمل الوثنيين والبراهميين في الأمور المالية، وتوفي عام ٧٥٩. وملك بعده ابنه محمد شاه، الذي قاتل جواره من ملوك البراهمة، وانتصر عليهم، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ابنه مجاهد شاه، قاتل البراهميين، وفي أثناء عودته قتله عمه داود عام ٧٧٩، وجلس مكانه، ولكنه قتل قصاصاً بعد شهر، واختير للملك أخوه محمود شاه، وكان رجلاً صالحاً بقي حتى توفي عام ٧٩٩، فخلفه ابنه غياث الدين، ونقم عليه أحد غلمانه الذي يُدعى «تغلقين» فسجنه، وولّى مكانه أخاه شمس الدين وكان صغيراً، وتصرّف هو بشؤون الدولة، غير أن فيروز شاه بن داود قد خرج، وقتل «تغلقين»، وسجن شمس الدين، وتسلم الأمر، وبقي حتى عام ٨٢٥، وكان عالماً كبيراً ومجاهداً شجاعاً، وفي أواخر حياته خرج عليه أخوه أحمد وتسلّم الأمر دونه، ولكنه توفي بعد استلام أخيه بعشرة أيام. وقاتل أحمد شاه البراهميين وانتصر عليهم، وأسس مدينة أحمد شاه وجعلها مقره، وتوفي عام ٨٣٨، وخلفه ابنه علاء الدين، ففتح الفتوح العظيمة، وبنى مستشفى كبيرة في أحمد أباد وتوفي عام ٨٦٢، وتولّى مكانه ابنه همايون شاه، وتوفي عام ٨٦٥ إذ لم يحكم سوى ثلاث سنوات، وخلفه ولده نظام شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة نهباً بيد الوزراء، وتوفي عام ٨٦٧ وله من العمر عشر

سنوات. وأخذ أخوه الملك من بعده، وكان صغيراً لم يتجاوز العاشرة. فاشتغل بالعلم مدةً، ثم استلم السلطة بيده وأرسل القادة إلى مختلف الجهات فدانت له، وبعد حكم عشرين سنة توفي عام ٨٨٧، ولم يتجاوز الثلاثين.

الأسرة البهمنية

[١] علاء الدين حسن ٧٣٠ ـ ٧٥٩

[٤] داود شاه ٧٧٩ ـ ٧٧٩

[٢] محمد شاه ٧٥٩ ـ ٧٧٦

[٥] محمود شاه ٧٨٠ ـ ٧٩٩

[٣] مجاهد شاه ٧٧٦ ـ ٧٧٩

[٨] فيروز شاه ٨٠٠ ـ ٨٢٥

[٩] أحمد شاه ٨٢٥ ـ ٨٣٨

[٦] غياث الدين ٧٩٩ ـ ٨٠٠

[٧] شمس الدين ٧٨٠ ـ ٨٠٠

[٩] علاء الدين ٨٣٨ ـ ٨٦٢

[١٠] همايون شاه ٨٦٢ ـ ٨٦٥

[١١] نظام شاه ٨٦٥ ـ ٨٦٧

[١٣] محمد شاه ٨٦٧ ـ ٨٨٧

[١٤] محمود شاه ٨٨٧ ـ ٩٢٤

[١٨] كليم الله ٩٣٢ ـ ٩٣٤

[١٧] ولي الله ٩٢٩ ـ ٩٣٢

[١٥] أحمد شاه ٩٢٤ ـ ٩٢٧

[١٦] علاء الدين ٩٢٧ ـ ٩٢٩

تولى محمود شاه بعد أبيه محمد شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة تُصرّف بأيدي الوزراء، وهذا ما أضعف السلطة فاستقل نظام الملك في أحمد نكر عام ٨٩٥، وعماد الملك في برار عام ٨٩٥، وعادل الملك في بيجابور في العام نفسه، واستقل قطب الملك في بلاد تلنك عام ٩١٠، ولم يبق لمحمود شاه سوى السطلة الاسمية في أحمد أباد، وبقي هكذا حتى توفي عام ٩٢٤، وتولّى مكانه ابنه أحمد شاه، وكانت السطلة الحقيقية بيد الوزراء، وتوفي عام ٩٢٧، وخلفه ولده علاء الدين، وكان حازماً فأراد أن يستعيد سلطته، وهذا ما أدى إلى عزله وسجنه، وذلك عام ٩٢٩، وعُيّن عمُّه ولي الله بن محمود شاه فسجن أيضاً بعد ثلاث سنوات، وعُيّن أخوه الآخر كليم الله بن محمود شاه، فكان ألعوبة بيد الوزراء وهو راض على ذلك، ثم غضب فانتقل إلى بيجابور، ثم إلى أحمد نكر عام ٩٣٤، وانقرض ملكه.

أ ـ ملوك خانديس

تقع خانديس في شمال الدكن إلى الغرب قليلاً، أقطع فيروز شاه ملك دهلي عام ٧٨٤ بعض تلك الجهات إلى الشيخ أحمد بن محمد العمري، فعمل مستقلاً عن دهلي وضبط الأمور بشكل جيد، وتوفي عام ٨٠١، وخلفه ابنه نصير الدين فأسس مدينة سماها برهان بور على اسم الشيخ برهان الدين الغريب، وجعلها مقر ملكه، واستمر في حكمه حتى عام ٨٤١، وقام مكانه ولده عادل خان، إلى عام ٨٤٤، ثم مبارك خان حتى عام ٨٦١، ثم عادل خان الذي قام بفتوحات واسعة، وبقي حتى عام ٩٠٧، وبوفاته اختل نظام الملك.

اتفق الأمراء بعد وفاة عادل خان على ابن أخيه غزنين خان بن داود خان وبعد أشهرٍ عادوا فخلعوا غزنين خان، ونصّبوا والده داود خان ملكاً على البلاد.

دعم بعض الأمراء عالم خان وكانت أمه ابنة سلطان كوجرات فطلبت المساعدة منه لدعم ابنها فجاء بقوة، ودخل برهان بور ونصَّب ابن ابنته ملكاً ولقبه أعظم همايون عادل خان الفاروقي فقام بالأمر عام ٩١٤ فضبط الأمر وبقي حتى عام ٩٢٦، ثم خلفه ابنه محمد شاه، وهو ابن أخت بهادور شاه سلطان كوجرات، وتوفي عام ٩٤٤ وهو في طريقه إلى أحمد

أباد مقر سلطان كوجرات، فاختار الأمراء ابنه أحمد شاه، وكان طفلاً صغيراً فكفله عمه مبارك خان فاستأثر بالأمر وتسمّى مبارك شاه، وقام بفتوحات وتوفي عام ٩٧٤، وخلفه ابنه محمد شاه، وبقي عشر سنوات، وكان وزيره زين الدين هو المسيطر على شؤون الدولة، ثم تولى أخوه راجه علي خان، وبقي إحدى وعشرين سنة فقد مات عام ١٠٠٥، وولي بعده ابنه بهادور خان وفي أيامه انقرضت الدولة الفاروقية، وغدت تتبع الدولة التيمورية وذلك منذ عام ١٠٠٩هـ.

الأسرة الفاروقية:

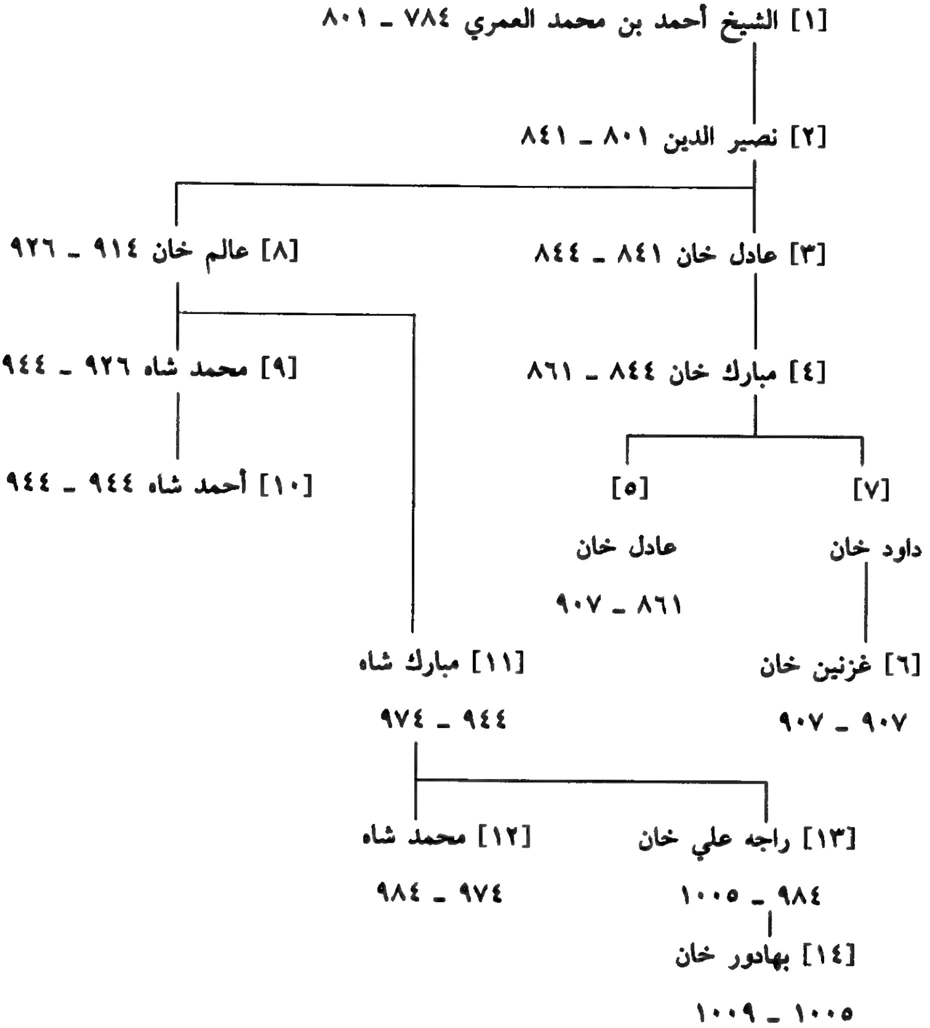

ب ـ ملوك مالوه

مالوه إقليم يقع إلى الشرق من كوجرات، كان مقره مدينة «مندو» التي اندثرت، كان هذا الإقليم يخضع لمملكة دهلي حتى أيام محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق، فأعطى ولاية هذا الإقليم إلى الحسين الغوري ولقّبه دلاور خان فضبط الإقليم، وأحسن السياسة، ولما رأى ضعف مملكة دهلي استقل بما تحت يده عام ٨٠٤، وبقي مستقلاً مدة أربع سنوات، وتوفي عام ٨٠٨.

قام بعد دلاور خان ابنه البخان، وقد لقّب نفسه هو شنغ شاه، بنى قلعة مندو، وانتقل إليها، وجعلها قاعدة حكمه، وأغار عليه مظفر شاه صاحب كوجرات فقبض عليه وسجنه مدة سنة، ثم أطلق سراحه، واستقل بالملك مدة ثلاثين سنة، فتوفي عام ٨٣٨.

وخلف هوشنغ شاه ابنه عزمين خان، وسمّى نفسه محمد شاه الغوري، فجعل الأمر بيد محمود بن المغيث الخلجي، واشتغل باللهو فقتلوه، ولم يدم حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر. وتولّى مكانه محمود شاه الخلجي، وقد ضبط الأمور، وفتح البلاد، وخضع له الجوار، وكان عادلاً، رحيماً، ملك أربعاً وثلاثين سنة وتوفي عام ٨٧٣.

وقام بعد محمود شاه ولده غياث الدين، وقد حكم ثلاثاً وثلاثين سنة، وعندما أحس بالهرم ترك الأمر لولده ناصر الدين، ثم إن الولد تضايق من أبيه ونصائحه وتوجيهاته فعزله، وقام مكانه وتوفي الوالد ٩٠٥، في الأيام الأولى من عزله لذا قيل: إنه مات مسموماً، وبقي ناصر الدين إحدى عشرة سنة، وقد أناب عمه همايون في أجمير فاستقل بها، وتوفي ناصر الدين عام ٩١٦، وخلفه ابنه محمود شاه، فأوكل أمر الوزارة إلى أحد الكفار، فكان يتظاهر بإرضاء محمود شاه، ويعمل على إبعاد المسلمين، وتعيين الكفار حتى تمكّن من الأمر، وشاع الكفر، فاضطر محمود شاه أن يلتجئ إلى مظفر شاه صاحب كوجرات، فساعده وخلّص إقليم «مالوه» من أيدي الكفار الهنادك، وأعاد محمود شاه إلى الحكم، وترك عنده ولده تاج

خان، فلما مات مظفر شاه وتولى أمر كوجرات بعده بهادور شاه استدعى أخاه تاج خان، فأبى محمود شاه فسار إليه بهادور شاه، وقاتله، وانتصر عليه، وملك البلاد، وأصبحت منطقة «مالوه» تتبع كوجرات حتى عام ٩٤١، ثم تبعت دهلي سنة ٩٦٨، ثم انتقلت إلى التيموريين.

[١] حسين الغوري دلاور خان ٨٠٤ ـ ٨٠٨

[٢] البخان هوشنغ خان ٨٠٨ ـ ٨٣٨

[٣] عزمين خان محمد شاه الغوري ٨٣٨ ـ ٨٤٠

---

[١] محمود شاه الخلجي ٨٤٠ ـ ٨٧٣

[٢] غياث الدين الخلجي ٨٧٣ ـ ٩٠٥

[٣] ناصر الدين شاه ٩٠٥ ـ ٩١٦

[٤] محمود شاه ٩١٦ ـ ٩٢١

جـ ـ ملوك بيجابور

بيجابور منطقة من الدكن تقع إلى الغرب منها. وقد استقلت هذه المنطقة عن الدكن عام ٨٩٥، وكان أول المستقلين عادل الملك، لذا عرفت أسرته باسم عادل شاهين، ويقال أنهم من بني عثمان، فقد أرسلت زوجة السلطان مراد العثماني ولدها مع أحد التجار خوفاً عليه، فسار به إلى الهند، وقدّمه لسلطان الدكن يومذاك وهو نظام شاه، وبقي يترقّى في المناصب حتى ولّي بيجابور فاستقل بها، واسمه الحقيقي يوسف، وبقي مدة عشرين سنة في الحكم، روّج في خلالها مذهبه الشيعي، وتوفي عام ٩١٥،

وخلفه ابنه إسماعيل إلى عام ٩٤١، ثم ابنه ملوخان غير أنه خلع بعد عدة أشهر، ثم أخوه إبراهيم الذي ترك الشيعة وغدا مسلماً، وبقي حتى عام ٩٦٥، واستمرت هذه الأسرة إلى عام ١٠٩٧.

د ـ ملوك أحمد نكر

في أثناء قتال ملوك الدكن للبراهميين أسر رجل بارز من بيجانكر في عهد أحمد شاه (٨٢٥ ـ ٨٣٨)، فأسلم هذا البراهمي على يد أحمد شاه، فأطلق عليه اسم حسن البحري، وترك الاسم الجاهلي القديم فنسي، وشعر السلطان بحسن إسلام حسن هذا فأعطاه منصباً وأخلص فزادت منزلته ولقبه محمد شاه(٨٦٧ ـ ٨٨٧) نظام الملك، ثم استوزره، وجعله أمير الأمراء، ثم صار وكيل السلطنة فأقطع ابنه أحمد القطائع، ثم قتل فاستقل ابنه أحمد بما تحت يده، ولقّب نفسه أحمد نظام شاه البحري، وأسس مدينة نكر وجعلها مركز حكمه عام ٩٠٠ وتوفي عام ٩١٤، وخلفه ابنه برهان وكان صغيراً لا يزيد عمره على السابعة فصار ألعوبة بيد الوزراء، فلما بلغ رشده أخذ الأمور بيده، واعتنق الشيعة عام ٩٤٤، ومات ٩٦١، ثم تولّى ابنه الحسين من بعده، واستمرت هذه الدولة حتى عام ١٠٤٢.

هـ ـ ملوك كلكنده وحيدر أباد

جاء في أيام محمد شاه البهمني سلطان دكن رجل يُدعى قلي الهمداني تركي الأصل، ودخل في خدمته فكان أحد غلمانه، وأحسن الخدمة، وترقّى في المناصب حتى ولّاه محمد شاه منطقة تلنكانه، ولقّبه قطب الملك فأحسن السياسة، وقاتل البراهميين، وفتح القلاع، فلما تولّى أمر الدكن محمود شاه استقل قطب الملك بما تحت يده، وجعل كلكنده مقر حكمه عام ٩١٨، واعتنق الشيعة مذهباً له، وتوفي عام ٩٥٠، وخلفه ابنه جمشيد حتى عام ٩٥٧، ثم أخوه إبراهيم، وسّع ملكه، وأحسن إلى رعاياه كثيراً، واستمر حتى عام ٩٨٩، ثم خلفه ابنه محمد قلي، فأسس مدينة حيدر أباد، وكان قد أسماها بهاكنكر باسم عشيقته، ثم لم يلبث أن غيّر اسمها إلى حيدر أباد وجعلها قاعدة ملكه، وبنى فيها القصور، ومدرسة

كبيرة، ومشفى واسعة، وحدائق غناء، وتوفي عام ١٠٢٠، وخلفه ابن أخيه محمد لمدة خمس عشرة سنة، ثم ولده عبد الله وبقي ثمان وأربعين سنة، ثم صهره تاتا شاه، وقد انقرضت الدولة في أيامه عام ١٠٩٦ نتيجة الحروب بينه وبين عالمكير.

[١] قلي الهمداني «قطب الملك».
٨٩٥ ـ ٩٥٠

[٢] جمشيد ٩٥٠ ـ ٩٥٧
[٣] إبراهيم ٩٥٧ ـ ٩٨٩

محمد
[٤] محمد قلي ٩٨٩ ـ ١٠٢٠

[٥] محمد ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥

[٦] عبد الله ١٠٣٥ ـ ١٠٨٣

[٧] تاتا شاه ١٠٨٣ ـ ١٠٩٦

و ـ ملوك برار

برار منطقة في شمالي الدكن، دخل أحد البراهميين الذين أسلموا في خدمة أمير عسكرها، فلما توفي أمير العسكر، دخل في خدمة محمد شاه البهمني سلطان الدكن، فقدّمه وولّاه على برار لمعرفته بها، ولقبه عماد الملك، فلما مات محمد شاه استقل عماد الملك بما تحت يده في برار عام ٨٩٢، وخلفه ابنه علاء الدين وتلقّب باسم عماد شاه، وقد بقي حتى عام ٩٦٧، وتولّى مكانه ابنه دريا عماد شاه، ثم ابنه برهان عماد شاه، وكان صغيراً فغلب عليه تغال خان وسجنه، واستقل بالملك فسار إليه مرتضى نظام شاه فتسلّم الأمر، وأنهى ملك الأسرة السابقة.

ملاحظة:

إن اسم قاعدة الهند اليوم (نيودلهي) هكذا أسماها المستعمرون الإنكليز بعد سيطرتهم على الهند، لكن اسمها الحقيقي (دهلي)، وقد درجت على استعمال الاسم الحقيقي لارتباطه بالتاريخ الإسلامي، وكذا نُسب إليها العلماء الذين خرجوا منها.

وتغيير المستعمرين الإنكليز للاسم إنما هو من باب قطع الحاضر عن الماضي الإسلامي.

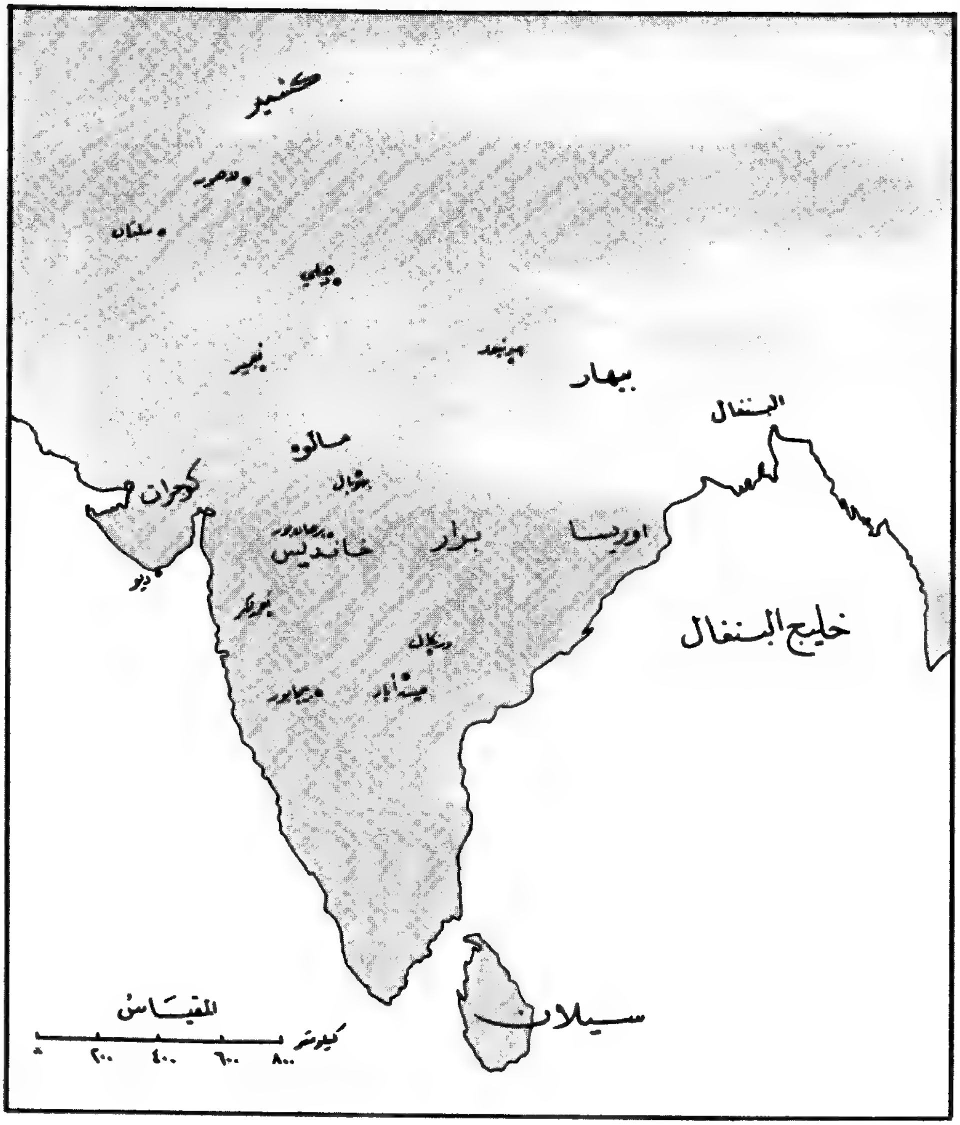
كشمير
ملتان
دلهي
اجمير
بيهار
البنغال
مالوه
كجرات
خانديس
برار
اوريسا
ديو
خليج البنغال
سيلان
المقياس
كيلومتر
٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠

الفصل الرابع

الإسلام في الجزر وجنوب شرقي آسيا

في هذا الوقت الذي توقّفت فيه الفتوحات، وضعُفت الخلافة، وتجزّأت الدولة الإسلامية اتجه أعداد من الناس إلى التجارة، وعن طريق التجار انتشر الإسلام في المناطق التي وصلوا إليها، وتعاملوا مع أبنائها، نتيجة سلوك هؤلاء التجار الذين أكسبهم الإسلام المعاملة الطيبة فكانوا أنموذجاً جيداً لعقيدتهم التي يحملونها هذا بالإضافة إلى الفارق الكبير بين صفاء الإسلام وعلوه، وضلالات عقائد السكان الجاهليين وضعتها، ونتيجة هذا فقد ساد الإسلام جزر المالديف، وشبه جزيرة الملايو، وأندونيسيا، وجزر الفيلبيين الجنوبية.

المالديف:

وصل الإسلام إلى جزر المالديف حوالي عام ١٨٩ عن طريق التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجزر سواء كانوا يأتون من غربي الهند أم من جنوبي جزيرة العرب أم من شرقي إفريقية. وبدأ الدعاة يفدون أيضاً إلى هذه الجهات ومن أشهرهم الشيخ حافظ بن بركات البربري المغربي الذي تمكّن بفضل الله أن يؤثر على ملك البلاد البوذي وأن يدخله في الإسلام وذلك عام ٥٤٨، ومع إسلام الملك بدأ السكان كافة يعتنقون الديانة الإسلامية، ولم تمض إلا مدة بسيطة حتى غدا السكان جميعاً من المسلمين، ولكن لم يتمثّلوا الإسلام بصورةٍ جيدة، وإنما بقيت عادات جاهلية كثيرة متحكّمة في النفوس، واستمرت مدة طويلة حتى زالت، إذ

كانت تزول تدريجياً مع التعلّم على الأحكام الصحيحة.

وفي عام ٧٤٤ زار الرحالة ابن بطوطة تلك الجزر، واستقبله السكان، وفرحوا به، وقد عمل عندهم قاضياً. واستمر وضع البلاد هادئاً آمناً حتى وصل البرتغاليون إليها في حروبهم الصليبية عام ٩١٣.

الملايو:

كانت العلاقة قويةً بين شبه جزيرة الملايو وبلاد الهند وخاصةً مع سواحل الهند الغربية تلك التي انتشر فيها الإسلام في وقت مبكرٍ نتيجة التجارة مع جزيرة العرب، وكان لتجار سواحل الهند الغربية أثر واضح في انتشار الإسلام في شبه جزيرة الملايو ويبدو في انتشار مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ الذي يسود في كلتا المنطقتين على عكس بقية المناطق الأخرى.

وكذلك كانت العلاقة قوية بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطره الأندونيسية التي تمتد غرب بلاد الملايو، وقد وصل الإسلام إلى شمالي سومطرة في القرن السابع وعندما وصل الرحالة الإيطالي «ماركو بولو» إلى شمالي سومطرة عام ٦٩٢ وجد التجار المسلمين في ميناء «برلاك» في شمالي سومطرة، ومن هناك انتقل الإسلام إلى منطقة «مالاقا» في بلاد الملايو.

وربما وصل الإسلام إلى مالاقا قبل المدة التي ذكرت، فتذكر بعض الروايات أن سفينةً تجاريةً وصلت إلى مالاقا عام ٦٧٦ بقيادة أحد التجار الذي يُسمّى عبد العزيز، والذي استطاع أن يؤثر على ملك مالاقا فأسلم، وسمّى نفسه محمد شاه، وتبعه إسلام عدد كبير من شعبه، وقامت أول مملكةٍ إسلاميةٍ في مالاقا في تلك المدة، وبدأت تعمل على نشر الإسلام الذي انتشر في «باهانغ» وجنوبي بلاد الملايو.

وتذكر رواية أخرى أن الإسلام قد انتقل إلى مالاقا من شمالي

سومطرة، عندما أسلم حاكم مالاقا ليتزوج أميرةً مسلمةً من «باساي» المرفأ السومطري المعروف وذلك عام ٨٠٣، ثم أسلم بعدئذ شعب مالاقا.

وكانت السفن الإسلامية ترسو في ميناء «سري فيجايا» على ساحل شبه جزيرة الملايو الغربي، ويعدّ أكبر المرافئ يومذاك في تلك الجهات، وقد زادت أهميته عندما أُغلق مرفأ «كانتون» الصيني، بسبب الاضطرابات التي قامت في مملكة «تانك» الصينية في القرن الثالث الهجري. وإن حاكم مالاقا قد أسلم ليحصل على تأييد التجار المسلمين، وكسبهم لقدومهم إلى مرفئه.

وبعد إسلام حاكم مالاقا وانتشار الإسلام بدأت مملكة مالاقا تتعرض لتهديدات حكومة تايلند البوذية، غير أن الأمير المسلم الصيني الحاج خان المعروف باسم «تشنغ» قد زار مالاقا عام ٨٠٨، ووفر لها الحماية من تهديدات تايلند بدعم من حكومة الصين، فعاشت المملكة في أمان وطمأنينة، وتمكّنت من أن تقوم بدورها في نشر الإسلام.

وتذكر بعض الروايات أن ملك مملكة «تيماسيك» في سنغافورة قد فرّ من بلاده عندما احتلتها جيوش مملكة «ماجا باهيت» التي مقرها في جاوه، والتجأ إلى مالاقا مع ألف وخمسمائة رجل من أعوانه عام ٨١٧، وهناك اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم «إسكندر شاه»، واستطاع أن يصل إلى الحكم.

وعلى مختلف الروايات فإن الإسلام قد عمّ في مملكة مالاقا مع مطلع القرن التاسع الهجري، ومنها انتشر إلى باقي جهات شبه جزيرة الملايو. وقد تأسست مملكة في مالاقا تعاقب عليها سبعة ملوك، كان أشهرهم الأمير «منصور باشا» الذي كان حكمه (٨٦١ ـ ٨٨١)، والذي اجتاحت جيوشه شبه جزيرة الملايو كلها، ووصلت إلى حدود بورما من جهة الشمال، وإلى أواسط جزيرة سومطرة من جهة الجنوب والغرب.

وقد استعملت الحروف العربية في عهد هذه المملكة، وساد الأمن،

وقامت إمارات أخرى في «قدح» و «بيرق» و «باهانغ» و «جوهور» وغيرها.

وتعرّضت مالاقا للغزو الصليبي في بداية القرن العاشر، إذ وصل البرتغاليون إليها عام ٩١٧، وألقوا الحصار عليها، فعجزوا عن اقتحامها، ثم أعادوا الحصار، وقد ألقى كبيرهم «البوكرك» خطاباً قبل هجومه الثاني جاء فيه «الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة، إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة... وستنهار بعدها مكة»[١].

وتمكّن «البوكرك» من دخول مالاقا فاهتزّت أوربا طرباً، واستدعى ذلك إلى إقامة قداس شكر عام ٩٢١، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو «كاميلو بورتيون» وأمام ليو العاشر: إن هذا سيسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة، واتهم سلطان مالاقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس[٢].

وجاءت النصرانية مع البرتغاليين إلا أن المعاملة السيئة التي لقيها أهل البلاد من أتباع النصرانية، والحقد الصليبي، وارتباط ذلك بالأجانب قد جعل الناس يقومون بردّ فعل ضدهم، ويتجهون نحو الإسلام بشكلٍ أفضل وأوسع.

ومع سقوط مالاقا بأيدي البرتغاليين عاد مقر التجارة والدعوة إلى شمالي سومطرة إذ نشط مركز «آتشيه».

أندونيسيا:

بدأ الإسلام ينتشر في جزر أندونيسيا مع توسع التجارة التي ازدهرت

---

(١) الإسلام في الشرق الأقصى تعريب الدكتور نبيل الطويل.

(٢) المرجع نفسه.

بعد توقّف الفتوحات وربما كان القرن الثالث هو القرن الذي ظهر فيه أثر المسلمين هناك مع كثرة عددهم، وإن كانت تحدد نهاية القرن السابع لحكم المسلمين لبعض جهات شمالي جزيرة سومطرة، مع أن كتب تاريخ الملايو توقّت عام ٦٠٢ لتسلم أول ملك مسلم حكم مملكة «آتشيه» في شمالي جزيرة سومطرة. ويقول الرحالة الإيطالي الذي زار المنطقة عام ٦٩٢ وهو «ماركو بولو»: (إن جميع سكان البلاد عبدة أوثان اللهم إلا في مملكة «برلاك» الصغيرة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر). ولا شك فإن سكان المدن هم الذين يحكمون المنطقة، وليس غريباً أن تكون المملكة مسلمة، ولا يزال في الغابات الكائنة في المرتفعات قبائل وثنية تأكل لحوم البشر.

وعندما وصل ابن بطوطة إلى المنطقة بعد نصف قرن تقريباً من ماركو بولو وجد الملك مسلماً ورعاياه كذلك، وقد وصف الملك ومشيه إلى الصلاة ورعاياه و. . . .

ويبدو أن المسلمين عندما زاد عددهم في النصف الأول من القرن السابع أسسوا بعض الممالك مثل «آتشيه» و «باساي» و «برلاك». ومن سومطرة الشمالية انتقل الإسلام إلى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة، وإلى جاوه عن طريق الدعوة ومن أشهر الدعاة في جزيرة جاوه الشيخ إبراهيم الذي يعرف باسم الملك إبراهيم والذي توفي عام ٨٢٢هـ.

ومن الجزيرتين الكبيرتين «سومطرة» و «جاوه» انتقل الإسلام إلى باقي الجزر الأندونيسية فقد أسس شعب «بنغرماسين» مملكة في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة بورنيو، وعندما وصل الإسبان إلى تلك الجزيرة عام ٩٢٧ وجدوا ملك بروني مسلماً. ونستطيع أن نقول: إن الإسلام انتشر في القرن العاشر في باقي الجزر الأندونيسية، وخاصةً بعد أن سيطر البرتغاليون على مالاقا عام ٩١٧ اضطر المسلمون إلى تغيير الطريق من مالاقا إلى غربي سومطرة حيث يمر من مضيق الصوند بين جاوه وسومطره، وبهذا التغيير بدأ الإسلام ينتشر في بقية الجزر.

ومع اتساع رقعة الجزر الأندونيسية، وكثرة عددها، وانفصال بعضها عن بعض لذا فقد قام عدد من الإمارات فيها، منها:

١ ـ مملكة سومطرة التي زارها ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن الهجري.

٢ ـ مملكة بنتام في غربي جاوه: وقد أسسها السلطان حسن الدين عام ٩٧٦.

٣ ـ مملكة ديماك: وقامت في وسط جاوه، وأسسها رمضان فاطمي ٨٣٢.

ونستطيع أن نقول: إن القرن العاشر لم يكد ينتصف حتى كان الإسلام قد عمّ الجزر الأندونيسية، وإن كان الهنود من بقايا إمبراطورية ماجا فاهيت قد تجمعوا في جزيرة «بالي» الصغيرة.

جنوبي الفيليبين:

وصل الإسلام إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم الفيليبين عن طريق التجارة التي كانت تتم عن طريق الملايو وأندونيسيا، وربما كان وصول أوائل المسلمين إلى تلك الجهات يعود إلى عام ٢٧٠، ولما وجدوا الأرض بكراً وصالحة للدعوة بدأ الدعاة يفدون إليها، ثم انتقلوا إلى الجزر الوسطى من القرن الخامس، وبُني أول مسجد في جزر صولو عام ٦٧٩، وازداد إقبال الناس على الإسلام ورافق ذلك زيادة في قدوم الدعاة، وكان الدعاة والتجار عرباً، وهنوداً، وماليزيين، وأندونيسيين، ولم يأت القرن العاشر حتى كانت الجزر كلها تحت سيطرة إمارات مسلمة أشهرها في الشمال إمارة (رجا سليمان) التي كانت قاعدتها في مانيلا عاصمة البلاد الحالية، وهذا رغم قلة أعداد المسلمين في الشمال، أما في الجنوب فكان الحكام المحليون من المسلمين أيضاً، ويتبعون سلطنة «صولو».

في هذا الوقت وصل ماجلان كطليعة للغزو الصليبي، وقد عرض على السكان الديانة النصرانية فرفضوا منه ذلك فأراد أن يخضعهم بالقوة مستفيداً من أسلحة حديثة يمتلكها فالتقى معهم في معركة كان أول صريع فيها. وهكذا بدأ عهد جديد في البلاد ظاهره استعمار اقتصادي وحقيقته غزو صليبي.

الباب الخامس

المَغرِب والأندلُس وغَربي إفريقيّة

منذ أن فتح المسلمون الأندلس عام ٩٢ وهم وجهاً لوجه مع النصارى الإسبان بل مع نصارى أوروبا الذين يرغبون في استعادة ما فقدوه لا نستثني من ذلك بلاد المغرب وربما نتجاوز ذلك إلى مصر وبلاد الشام والمناطق التي كانت في حوزة الرومان يومذاك وقبله، بل ربما الحقد الصليبي الذي تحمله الكنيسة أو يرفع شعاره البابا كان يؤجج ذلك العداء. وكانت بلاد الأندلس هي أقرب المناطق لذلك الصراع لقربها من أوروبا أو لبعدها عن قلب بلاد الإسلام، ووقوعها على هامش تلك البلاد، وربما للصراع الذي كان يحدث على أرضها بين القبائل حسب أصولها، وبين الجماعات حسب أماكن قدومهم.

وإذا كانت الصليبية قد سكنت في المرحلة الأولى لقوة المسلمين إلا أنها حرصت أن تنهض مجرد أن تلمح ضعفاً منهم، وعندما حاولت أن تضرب ضربتها لما أحسّت أن الضعف بدأ يحلّ والتفرقة قد استشرت غير أنها وجدت دعماً للمسلمين من بلاد المغرب فتراجعت واتجهت نحو نقطةٍ أخرى على سواحل البحر المتوسط في بلاد الشام، ولكنها في الوقت نفسه زادت نقمتها على مسلمي المغرب لدعم إخوانهم الأندلسيين. وفي الوقت الذي احتدم فيه القتال في بلاد الشام ومصر لم يكن أهل المغرب في منأى عنه فقد دعموا إخوانهم في المشرق بالأساطيل، وكانت سفنهم تعترض سبيل الحملات الصليبية، وهذا ما زاد من حقد الصليبيين على مسلمي المغرب.

وفشلت الحملات الصليبية على المشرق أو على بلاد الشام ومصر،

وإن أحرزت نجاحاً جزئياً في أول عهدها، وعادت الكنيسة أو البابا يحرّض ويركّز على الأندلس، وقد زادت تفرقة المسلمين وعمّ اختلافهم، كما ضعف أمرهم في المغرب، ولم تكن حالهم في بقية الجهات أفضل حالاً. وانطلق الحاقدون من بلاد أوروبا المختلفة نحو الأندلس يحملون العداء الديني بل الحقد الصليبي مشحوناً بتبريك الكنيسة وتقديس البابا والرغبة بإزالة جرثومة الكفر - حسب اصطلاحهم - والطمع بالأسلاب والغنائم، والعمل على توحيد الإمارات النصرانية الإسبانية للوقوف صفاً واحداً في وجه المسلمين. وتداعى النصارى الأوروبيون على الأندلس وبلاد المغرب من كل جهةٍ بتركيز على الأندلس والهجمات المتتالية على السواحل المغربية. أما المسلمون فمع ما يرونه من سقوط مدينة بعد أخرى في الأندلس بيد النصارى إلا أنهم لم يعتبروا أبداً ولم يرعووا بل ظلوا في قتال بعضهم بعضاً، ومنهم من يطلب عون الطاغية النصراني ضد أخيه هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا القتال الذي كان يدور بينهم لم يكن في سبيل سيطرة أحدهم للوقوف في وجه العدو بعد أن يقوى أمره، ويشتدّ ساعده، ويوحّد الإمارات المسلمة المتقاتلة، وإنما كان في سبيل حكمه وإرضاء شهوته وأطماع نفسه، وربما لو كان في الأمر شيء من مصلحة الأمة لتعلل بعضهم بهذا على الأقل، ولكن لم يحدث هذا أبداً، وإنما يفكر كل منهم في إحراز النصر على خصمه، وإرغامه على قبول الدنية، والرغبة في الحياة، وكراهية الموت، فقد أصاب المسلمين كراهية الموت، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم للموت»[1]. لذا كانت النتيجة أن سقطت الأندلس بيد النصارى، وزال عنها

---

(١) كنز العمال الجزء ١١ ص١٣٢ رقم الحديث ٣٠٩١٦، أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام رقم ٤٢٧٦.

المسلمون نهائياً، كما سيطر الإسبان والبرتغاليون على بعض الموانئ المغربية، وبدؤوا يدعمون حاكماً ضد آخر، ويضعون الشروط لمساعدة من يطلب منهم العون فيقبلها صاغراً.

ورغبت الدولة العثمانية التي وصلت إلى قوة كبيرة يومذاك أن تخفف ضغط النصارى عن المسلمين في الأندلس والمغرب فتقدّمت في أوروبا غير أن أهل الأندلس والمغرب قد وصلوا إلى درجة من الضعف لا يجدي معها تخفيف ضغط، ورأى العثمانيون الوصول إلى المغرب عن طريق البر والبحر لهذا الغرض لكن بعض الأمراء المسلمين هناك بدلاً من أن يمدوا يدهم لإخوانهم المسلمين من العثمانيين كانوا يطلبون دعم النصارى الإسبان لهم للوقوف في وجه العثمانيين ومحاربتهم.

الفصل الأول

بنو مرين في المغرب

يعود بنو مرين إلى بربر المغرب، من قبيلة زنانة، وكانت إقامتهم في بلاد القبلة، من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك الصحارى، لا يدخلون تحت حكم سلطان، ولا يؤدون ضريبةً لأحد، شغلهم الصيد والإغارة على أطراف البلاد، وعرف من رؤسائهم المخضب بن عسكر بن محمد، وقد قتل عام ٥٤٠ في بعض الحروب التي دارت بين عبد المؤمن بن علي والمرابطين، فانتقلت رئاسة القبيلة إلى ابن عمه أبي بكر بن حمامة، ومنه إلى ابنه أبي خالد محيو الذي قتل في صحراء الزاب عام ٥٩٢، ومنه إلى ولده عبد الحق الذي ولد في الزاب. ويبدو أن سنواتٍ عجافاً جاءت على مواطن هذه القبيلة فاضطر زعيمها أن ينتقل بها إلى المغرب الأقصى حيث المرعى والماء، واتجه إلى بلاد الريف، وأقام له حصناً عُرف باسم «تازوطا»، وكانت الكلمة هناك للموحدين لكن كانت شمسهم تغرب، فقاتلوا بني مرين حيث وجدوا فيهم قوةً يُرهب جانبهم، غير أنهم قد هزموا أمامهم عام ٦١٣ لحالة الضعف التي كانوا يمرون بها. وتقدّم عبد الحق نحو حصن تازة فتمكّن من دخوله، وقتل عامل الموحدين فيه، لكن هذه القوة لم تكتمل بعد إذ لم تلبث أن انقسمت إذ خرج على عبد الحق بعض رجاله من بني عسكر، وتقوّوا بقبائل بني رياح العربية في تلك الجهات، وقاتلوا عبد الحق غير أنه انتصر عليهم في معركة جرت في وادي (سبو) عام ٦١٤، وقُتل هو في النهاية فدفن قرب مكناس.

تولى زعامة بني مرين بعد مقتل زعيمهم عبد الحق ابنه عثمان الذي

كان معه في المعركة، فنظم أمر جماعته، ودعا القبائل إلى طاعته فبايعته هوّارة: وزكاوة، ومكناسة وغيرها، وفرض الضرائب السنوية على بعض المدن مثل فاس، ومكناس، وتازه، لتضمن شر غاراته، وليحمي أمنها، وقد قتل بيد أحد الذين رباهم صغاراً وذلك عام ٦٣٨، وتولّى أخوه محمد بن عبد الحق مكانه، وقد قاتله الموحدون بجيشٍ كبير في جهات مكناس فانتصر عليهم، وتكررت المعارك بينه وبينهم، وقد كبا جواده في آخرها عام ٦٤٢ فقتله أحد الجنود من الخصوم. وقام بالأمر بعده أخوه الثالث أبو بكر المكنّى بأبي يحيى، فأظهر الدعوة للحفصيين أصحاب تونس ليجد لنفسه سنداً ودعماً، واستطاع أن يدخل مكناس باسمهم عام ٦٤٣، ووصل النبأ إلى سلطان الموحدين المعتضد علي بن إدريس فخرج لقتاله عام ٦٤٥، ولما وجد أبو بكر جيشه قليلاً أمام جيش الموحدين انسحب من مكناس، وتوجّه نحو بلاد الريف حيث تحصّن فيها، وأرسل إلى المعتضد سلطان الموحدين يبايعه، وأرسل خمسمائة من جنوده ليكونوا في عداد جيش الموحدين، فقبل المعتضد منه هذا، ورجع عن قتاله، وبقي أبو بكر يترقب، فلما قتل المعتضد قرب تلمسان عام ٦٤٦، أسرع أبو بكر وقصد تلك الجهات، وانقضّ على بقايا الجيش الموحدي، ودخل مكناس، وافتتح حصون الملوية، وأطاعه أهل فاس وبايعه الناس باسم الحفصيين، ووطد الأمن في البلاد التي دانت له، وخرج لقتال بعض بطون زناتة فنقضت فاس العهد، فرجع ودخلها وقتل رؤوس الفتنة منها، واتخذها عاصمةً له. وجاءه سلطان الموحدين الجديد المرتضى المؤمني بجيش يزيد على الثمانين ألفاً، فصمد في وجهه عام ٦٥٣، وانتصر عليه في جبال بهلولة بجهات فاس، واستولى على معسكر الموحدين، وخضعت له بعدها سجلماسة، ودرعه، وبلاد تادلا، وبقي حتى توفي عام ٦٥٦، وخلفه ابنه عمر إلا أن عمه يعقوب قاتله فتنازل عمر لعمّه في العام نفسه.

كان يعقوب بن عبد الحق أمير تازة وملوية في عهد أخيه أبي بكر، فلما توفي أخوه، وخلفه ولده عمر ثار عليه، فتنازل عمر لعمه، فقام

يعقوب بالأمر، وهاجم بني عبد الواد في تلمسان، وظفر بهم، وأنقذ مدينة (سلا) من أيدي الإسبان، ثم نزل إلى الأندلس وجاهد فيها ضد النصارى عام ٦٦٠، ثم قاتل الموحدين وانتصر عليهم، وعندما انقسم الموحدون جاءه أبو دبوس (إدريس بن محمد) طالباً نصرته ضد المرتضى فساعده بخمسة آلاف من الجند، واستطاع أبو دبوس أن يدخل مراكش، إلا أنه ما لبث أن تنكر للأمير يعقوب، فسار يعقوب نحوه ودخل مدينة مراكش عام ٦٦٨، ثم قضى على دولة الموحدين عام ٦٧٤. كانت دعوة بني مرين للحفصيين ظاهراً، لما تولّى يعقوب قطع الخطبة لهم فأرسل له المستنصر الحفصي هدايا ثمينة لإعادة الخطبة فوافق على ذلك، وإن كانت ظاهرية أو شكلية. واستولى الأمير يعقوب على طنجة وسبتة عام ٦٧٢، وانتزع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد عام ٦٧٣، وسار عام ٦٧٤ لنجدة الأندلس ففتح كثيراً من الحصون، ثم رجع إلى مدينة فاس، وبنى المدينة البيضاء ملاصقةً لها، وانتقل إليها عام ٦٧٦، كما غزا في الأندلس ٦٧٩، ٦٨١، ٦٨٣، وتوفي فيها بالجزيرة الخضراء عام ٦٨٥.

خلف يعقوب ابنه يوسف فتنازل لسلطان بني نصر في الأندلس عن الثغور جميعها، وإن كان قد احتفظ برنده، وطريف، والجزيرة، وجاز بحر الزقاق لدعم بني نصر، ومنازلة طاغية الإسبان، وحصل على النصر، إلا أن سلطان غرناطة قد اتفق مع طاغية النصارى، وشجّعه على احتلال طريف، وفي الوقت نفسه فقد شجّع عمر بن يحيى الوطاسي للثورة في حصن (تازوطا)، فسار يوسف الذي تلقّب بالناصر إلى الحصن، واحتله، واعتذر سلطان غرناطة عما بدر منه فقبل منه الناصر، وعاد الاتفاق بينهما وتنازل له عن رنده، والجزيرة، وعشرين حصناً، وفي عام ٧٠٦ قتله أحد مماليكه، وهو يحاصر تلمسان، كما قتل ابنه أبو سالم يومذاك، واسمه عبد الله.

وبعد وفاة يوسف قام بالأمر حفيده عامر بن عبد الله أبو ثابت، وكان مع جده يوم قتل، فدعا لنفسه فبايعه عليه القوم، وعقد صلحاً مع بني زيان، وعارضه بعض أقاربه فقتلهم ومن ساعدهم، كما خرجت عليه جماعة

في سبتة فنهض لحربهم، وبنى مدينة (تطاوين) لتضييق الحصار على سبتة، وأقام بطنجة فمرض، ومات فيها عام ٧٠٨.

وخلفه أخوه سليمان أبو الربيع فأُخذت له البيعة في طنجة، وانتقل إلى فاس، فأشاد العمران، وخرج عليه وزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي يدعو إلى بيعة عبد الحق بن عثمان، وكان بجهة تازة فخرج لحربه فمرض، ومات هناك عام ٧١٠هـ.

بويع بعد وفاة سليمان عم أبيه عثمان أبو سعيد بن يعقوب، وقد أسس داراً لصناعة السفن في (سلا) لإنشاء الأسطول لقتال الفرنج. وسار إلى ناحية تلمسان لقتال بني عبد الواد فسيطر على عدد من قرى تلمسان، واستقر في تازة، وأرسل ابنه عمر إلى فاس عام ٧١٤، وكان ولي عهده فخلع طاعة أبيه وقاتله، ثم ضعف أمر ابنه عمر فجاء إلى فاس، واستعاد ملكه، ثم مرض وتوفي عام ٧٣١.

تولّى أمر بني مرين بعد عثمان ابنه علي أبو الحسن الملقّب بالمنصور بالله، وكان يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه إذ أن أمه حبشية. احتل الإفرنج جبل طارق فاستنجد بنو الأحمر به فأنجدهم وفتح الجبل وحصنه. وأبرم صلحاً مع أصحاب تلمسان من بني عبد الواد، فنكثوا العهد، فسار إليهم عام ٧٣٥، واستولى على وجدة، ووهران، ومليانة، والجزائر، وجدد بناء المنصورة قرب تلمسان، وكان عمه يوسف بن يعقوب قد اختطها ثم خرّبها بنو عبد الواد، ثم فتح تلمسان، ورجع إلى فاس فجهّز جيشاً بقيادة ابنه أبي مالك لجهاد الفرنجة في الأندلس، فاستشهد أبو مالك، فسار بنفسه، ونزل سبته، وجمع بها الأساطيل وهزم أسطول الفرنجة، ثم انتقل إلى الأندلس فحاصر طريف، وكانت بيد العدو، وجاءت جموع من الفرنجة كبيرة فهزم، ونجا ببعض جنوده عام ٧٤١ فرجع إلى الجزيرة الخضراء، فجبل طارق، فسبته واستأسد عليه الفرنجة، وأغرقوا أسطوله في البحر، واحتلوا الجزيرة الخضراء. ووصلت أخبار وفاة أبي بكر المتوكل على الله الحفصي عام ٧٤٧، فسار

إلى تونس ودخلها عام ٧٤٨، وانتهت دولة الحفصيين موقتاً، وعيّن عماله على تلك الجهات، ثم انتفضت عليه القبائل فهُزم، وسار إلى القيروان، ومنها تسلل إلى تونس، ثم صالح القبائل، ووصلت الأخبار إلى زناتة فانتفضت عليه بنو عبد الواد، وكان ابنه والياً على تلمسان من قبله، وهو فارس أبو عنان فدعا بالمنصورة فأخذ البيعة لنفسه، وسار إلى فاس فقاومه أخوه منصور بن علي فتغلّب عليه، وقتله، وملك فاس، أما السلطان فقد وصلت أخبار ولديه إليه فركب البحر في ستمائة مركب فجاءها الموج فغرق أكثرها عام ٧٥٠، ونجا هو فنزل على ساحل الجزائر، واتجه نحو تلمسان فقاتله بنو زيان، ونهبوا ما معه، فسار إلى الصحراء، ووصل إلى سجلماسة فأطاعه أهلها، وانتقل إلى مراكش فرحب به سكانها، وسار إلى فاس فتصدّى له ولده فارس أبو عنان، وهزمه وحمته قبيلة هنتانة، ومرض في أثناء ذلك ومات عام ٧٥٢، فحمل إلى ابنه، فأظهر ندمه على ما كان منه، ولكن حين لا ينفع الندم. وكان من جملة من ثار عليه أخوه عمر أبو علي، وكان قد انتفض على أبيه، وجرحه عام ٧١٤، ثم صالحه وولاه سجلماسة فانتفض عليه ثانيةً، ثم عفا عنه، ولما تولي أخوه أبقاه على سجلماسة فوثب على أخيه، وانتزع درعة منه، فقبض عليه وسجنه، ثم قتل في السجن.

بويع فارس أبو عنان بن علي في فاس عام ٧٤٩، ولما مات أبوه استتب له الوضع، حارب بني زيّان، ودخل تلمسان، وثار عليه أبو الفضل أخوه فتمكّن منه فسجنه، ثم قتل في سجنه عام ٧٥٤. وأخذ قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين عام ٧٥٨، وعاد إلى فاس، ومرض وقتله وزيره عام ٧٥٩.

وقبل مقتل أبي عنان بيومين أخذت البيعة لابنه أبي بكر، فتلقّب السعيد بالله، وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره، فحجبه وزير أبيه وقاتله حسن بن عمر الفودويّ، وتفرّد هو بالأمر. واختل حكم بني مرين، إذ بايعت تلمسان يعيش بن علي، وبايع آخرون منصور بن سليمان، وفر

يعيش بن علي إلى الأندلس، وزحف منصور نحو فاس، وظهر الأمير أبو سالم إبراهيم بن علي في بلاد غمارة، وبدت قوته، فأرسل إليه الوزير حسن بن عمر الفودوي بالطاعة، ودعاه إلى فاس، وأعلن عن استعداده لخلع الطفل أبي بكر، فأقبل أبو سالم، ودخل فاس، وخُلع السعيد بالله أبو بكر، وأرسل إلى الأندلس، وأغرق في الطريق عام ٧٦٠.

كان أبو سالم إبراهيم بالأندلس، بعثه إليها أخوه فارس أبو عنان، فاستقر بها إلى أن مات أبو عنان، وبويع لابنه الطفل، فجاء أبو سالم إلى المغرب، وساعده في الوصول إليها ملك قشتالة النصراني لأن رضوان وزير بني الأحمر الذي استبد بسلطان غرناطة قد رفض دعمه. نزل أبو سالم في مدينة سبتة، ومنها انتقل إلى طنجة، ودعا هناك لنفسه فبايعه أهل طنجة، وعندما قوي أمره اتجه نحو فاس غير أنه هُزم أمام منصور بن سليمان، لكن جماعة منصور لم تلبث أن انفضت من حوله وقتل، وهذا ما سهل لأبي سالم من الوصول إلى فاس حيث كان الوزير حسن بن عمر الفودوي من أول المبايعين له، واستقبله، وخلع الطفل أبا بكر ابن أخي وأبي سالم، وتسمّى أبو سالم بالمستعين بالله.

شعر أبو سالم بسوء النية من الوزير فولاه مراكش إبعاداً له عن فاس، فانتقل الوزير إلى بلاد تادلا، وأظهر العصيان. واتجه السلطان أبو سالم إلى تلمسان، واستولى عليها، وتركها صاحبها أبو حمو واتجه نحو الصحراء، ومنها سار إلى جهات فاس فعاث فيها الفساد، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر تلمسان بعد أن ولّى عليها أبا زيان محمد بن عثمان الذي هرب منها عندما رجع إليها صاحبها الأول أبو حمو. ولم يستطع أبو سالم دخول فاس لأنه في غيابه عنها قد بويع أخوه تاشفين، وتفرّق عن أبي سالم رجاله فاختفى، ولكن قبض عليه بعض رجالات الحكم فحمل إلى فاس حيث لقي مصرعه عام ٧٦٢.

بويع تاشفين بن علي المكنّى بأبي عمرو، وهو مختل العقل، إذ كان قد أسر في معركة طريف في أيام أبيه فأصيب بعقله، وبعد ثلاثة أشهر من بيعته ثار عليه كبار بني مرين وخلعوه.

كان أبو حمو صاحب تلمسان يثير على السلطان أبي سالم أبناء عمه عمر أبي علي، وهم: عبد الحليم، وعبد المؤمن، وابن أخيهما عبد الرحمن بن علي بن عمر، وكانوا في الأندلس، فأُطلقوا من الأسر، فساروا إلى تلمسان، فأكرمهم أبو حمو، وفي هذا الوقت قتل السلطان أبو سالم، فرشح أبو حمو لحكم فاس عبد الحليم بن عمر، فسار إلى المغرب، ولكنه هُزم أمام الوزير عمر بن عبد الله الفودوي.

رشح الوزير عمر بن عبد الله إلى ملك فاس أبا الحسن محمد بن أبي عبد الرحمن، وكان معتقلاً عند الطاغية النصراني فأطلق سراحه بناءً على طلب ابن الأحمر، وجاء إلى المغرب عن طريق سبته فطنجة، وسار الوزير للقائه واستقباله في مطلع عام ٧٦٣، وسار به إلى فاس، وكان عبد الحليم بن عمر يومذاك في تازة فأرسل إليهما أخاه عبد المؤمن بن عمر، وابن أخيه عبد الرحمن بن علي المعروف بأبي يفلوس فتصدى لهما الوزير عمر بن عبد الله فهزمهما فعادا إلى تازة، ومنها ساروا مع عبد الحليم إلى سجلماسة، وكانت في طاعتهم فلحق بهم الوزير، وتمكّن أن يحتل سجلماسة، وأن يجلي عنها عبد الحليم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ورجع عبد الحليم إلى مقرّه في سجلماسة... وبعد مدةٍ ترك الأمر لأخيه عبد المؤمن، وسار إلى الحج عن طريق السودان الغربي، وتوفي وهو آيب في الإسكندرية عام ٧٦٦.

تولّى أبو الفضل بن أبي سالم أمر مراكش ومنطقة المصامدة، وبدأ يتصرف فيها كأنه مستقل، وإن كان الذي يسيّره وزيره عامر الذي استقدم عبد المؤمن بن عمر لبيعته. وأحس الوزير عمر بن عبد الله بالخطر فخرج من فاس، ودعا عبد الرحمن بن علي أبا يفلوس للإيقاع بين أولاد عمر أبي علي، واختل وضع بني مرين، وفّر عبد الرحمن بن علي أبو يفلوس إلى الأندلس، وعاد الوزير عمر بن عبد الله إلى بيعة سلطانه الأول محمد بن أبي عبد الرحمن، وحارب الوزير عامر في مراكش الذي عاد فاعتقل عبد المؤمن.

وفي عام ٧٦٨ استدعى الوزير أحد أبناء بني مرين وهو أبو فارس عبد العزيز بن السلطان علي أبي الحسن وبايعه، وقتل السلطان السابق محمد بن أبي عبد الرحمن، واستطاع الجديد أن يتخلّص من وزيره عمر بن عبد الله المستبد بالسلاطين إذ قتله وأسرته.

أما في مراكش فقد أراد أبو الفضل بن أبي سالم أن ينتهي من وزيره عامر غير أن هذا الوزير قد صحا لنفسه، وتظاهر بالمرض، واستأذن الأمير بالسفر إلى أهله حيث اعتصم بالجبال هناك، وتمكّن أبو الفضل من قتل عبد المؤمن، وهذا ما أرعب عامر فاتصل بالسلطان عبد العزيز وبايعه، وأغراه بأبي الفضل وبملك مراكش، ووعده بالنصر، فسار عبد العزيز من فاس إلى مراكش، وتمكّن من السيطرة عليها، والقبض على أبي الفضل، ولكن عامراً لم يلبث أن أظهر الخلاف، ونصّب أميراً اسمه تاشفين، غير أن عبد العزيز قد تمكّن من قتلهما.

واختلف النصارى بعضهم مع بعض في الأندلس فاستغل سلطان غرناطة ابن الأحمر هذا الاختلاف، وهاجم المناطق التي يسيطر عليها النصارى، وأنجده السلطان عبد العزيز في استرجاع الجزيرة الخضراء. كما سار السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واحتلها عام ٧٧٢، وفرّ منها صاحبها أبو حمو ولحق بالصحراء، ورجع السلطان إلى فاس فعاد أبو حمو إلى تلمسان، فسار إليه السلطان ثانيةً عام ٧٧٤، ودخلها وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين، وأصاب المرض السلطان وتوفي في ذلك العام ٧٧٤، وبويع من بعده لابنه السعيد، وعاد أبو حمو إلى تلمسان، وقضى على إبراهيم بن تاشفين. وقد استبد بالسلطان الجديد السعيد وزيره أبو بكر بن غازي.

اعتقل السلطان عبد العزيز ابن عمه عبد الرحمن أبا يفلوس وأرسله إلى ابن الأحمر، فعندما مات السلطان عبد العزيز بايع ابن الأحمر لحكم فاس أبا العباس أحمد بن أبي سالم الذي كان في طنجة، كما أرسل إلى

المغرب عبد الرحمن أبا يفلوس ووفق بينهما، وسار الاثنان نحو فاس فتصدى لهما الوزير أبو بكر بن غازي لكنه هُزم أمامهما، وتمكنا من دخول فاس وتسلم أبو العباس حكمها، وتولى عبد الرحمن إمرة مراكش واتجه نحوها. وتلقّب أبو العباس بالمستنصر، وقبض على السلطان السعيد، وأرسله إلى ابن الأحمر في الأندلس. ولكن عبد الرحمن في مراكش أظهر الخلاف لأبي العباس مرتين وجرى بينهما صلح غير أن علي بن زكريا أكبر أنصار عبد الرحمن قد ثار عليه وفتك به.

تنكر ابن الأحمر الغني بالله لأبي العباس عام ٧٨٦، فجهّز موسى بن أبي عنان وأرسله إلى سبته فاستولى عليها، وسلّمها إلى ابن الأحمر، ثم سار إلى فاس ودخلها وأعطى الأمان لأبي العباس، ثم اعتقله وأرسله إلى ابن الأحمر حيث بقي هناك حتى عام ٧٨٩، ثم نشب خلاف بين السلطان ووزيره فأرسل الوزير إلى ابن الأحمر يرجوه إرسال أبي العباس ودعمه لإعادته إلى الحكم، ثم عاد فرجاه باستبقاء أبي العباس، وإرسال محمد بن أبي الفضل... وفي هذه الأثناء توفي السلطان موسى بعد أن حكم ثلاث سنوات، وبويع المنتصر بن أبي العباس. وفي تونس كان الحسن بن الناصر بن أبي علي فاتجه إلى المغرب يطلب الملك وذلك بعد حكم موسى فلما اقترب منها كان السلطان موسى قد توفي وأخذت البيعة للمنتصر فرجع الحسن من حيث أتى.

جاء محمد بن أبي الفضل إلى المغرب، ووصل إلى فاس واستلم حكمها، ونُحي المنتصر عنها، وتلقّب محمد بن أبي الفضل بالواثق بالله، واستقر له الوضع، ثم عاد الخلاف فوقع بين ابن الأحمر والوزير المغربي، فأطلق ابن الأحمر سراح أبي العباس وأرسله إلى المغرب فتمكن من دخول فاس، وخلع الواثق بالله، كما اتجه إلى تلمسان ودخلها، وخرج منها صاحبها أبو حمو فاراً إلى الصحراء. وولى أبو العباس ابنه المنتصر على مراكش فاستقل بها، وتوفي أبو العباس عام ٧٩٦.

تولّى بعد أبي العباس ابنه أبو فارس عبد العزيز الملقب بالمنتصر، وبقي في الملك حتى عام ٧٩٩، حيث خلفه أخوه عبد الله أبو عامر الملقب بالمستنصر، ولم تزد أيامه على السنة كثيراً إذ توفي عام ٨٠٠، وخلفه أخوه الثالث عثمان أبو سعيد، وقد ترك أمر الملك لوزرائه، وفي أيامه استولى البرتغاليون على سبته عام ٨١٨، وأخيراً قتله وزيره عبد العزيز اللبابي عام ٨٢٣.

تولى بعد عثمان ابنه عبد الحق، وترك الأمر لوزرائه مثل أبيه، وقد استوزر يحيى بن زيان الوطاسي الذي قتل عام ٨٥٢، وقام مكانه ابن أخيه علي بن يوسف بن زيان الوطاسي الذي توفي عام ٨٦٥، وبموته قامت الفتن في بلاد المغرب حيث خلفه يحيى بن يحيى بن زيان الوطاسي فلما شعر السلطان عبد الحق باستبداد آل وطاس بالأمر دونه قتل وزيره يحيى وجمهور آل وطاس عام ٨٦٦، واستوزر يهوديين فاعتزّ يهود فاس، وضرب أحدهما امرأة فاستغاثت فثار الناس وعملوا قتلاً باليهود، ونادوا بخلع السلطان، وولوا أمرهم الشريف أبا عبد الله الحفيد[1]، وكان السلطان غائباً فلما عاد إلى المدينة قُبض عليه وقُتل وانقرضت دولة بني مرين بمقتله وذلك عام ٨٦٩. وفي عهد عبد الحق هذا استولى البرتغاليون على قصر المجاز.

بعد مقتل عبد الحق بويع الشريف أبو عبد الله إماماً وسلطاناً، وبقي في منصبه حتى هاجمه محمد الشيخ الوطاسي فدافع زمناً، ثم استسلم، وخلع عام ٨٧٥ فأقام قليلاً ثم رحل إلى تونس. وفي أيامه استولى البرتغاليون على مدينة آصيلا.

ثم جاء الوطاسيون الذين يعدّون من المرينيين لذا فإن دولتهم كأنها تتمة لدولة بني مرين.

---

(١) هو محمد بن علي الأدريسي الجوطي العمراني، أصله من قرية الجوطة على نهر السبو. وكان بنو عمران أوضح الأدارسة، نسباً وكان يومئذ نقيب الأشراف.

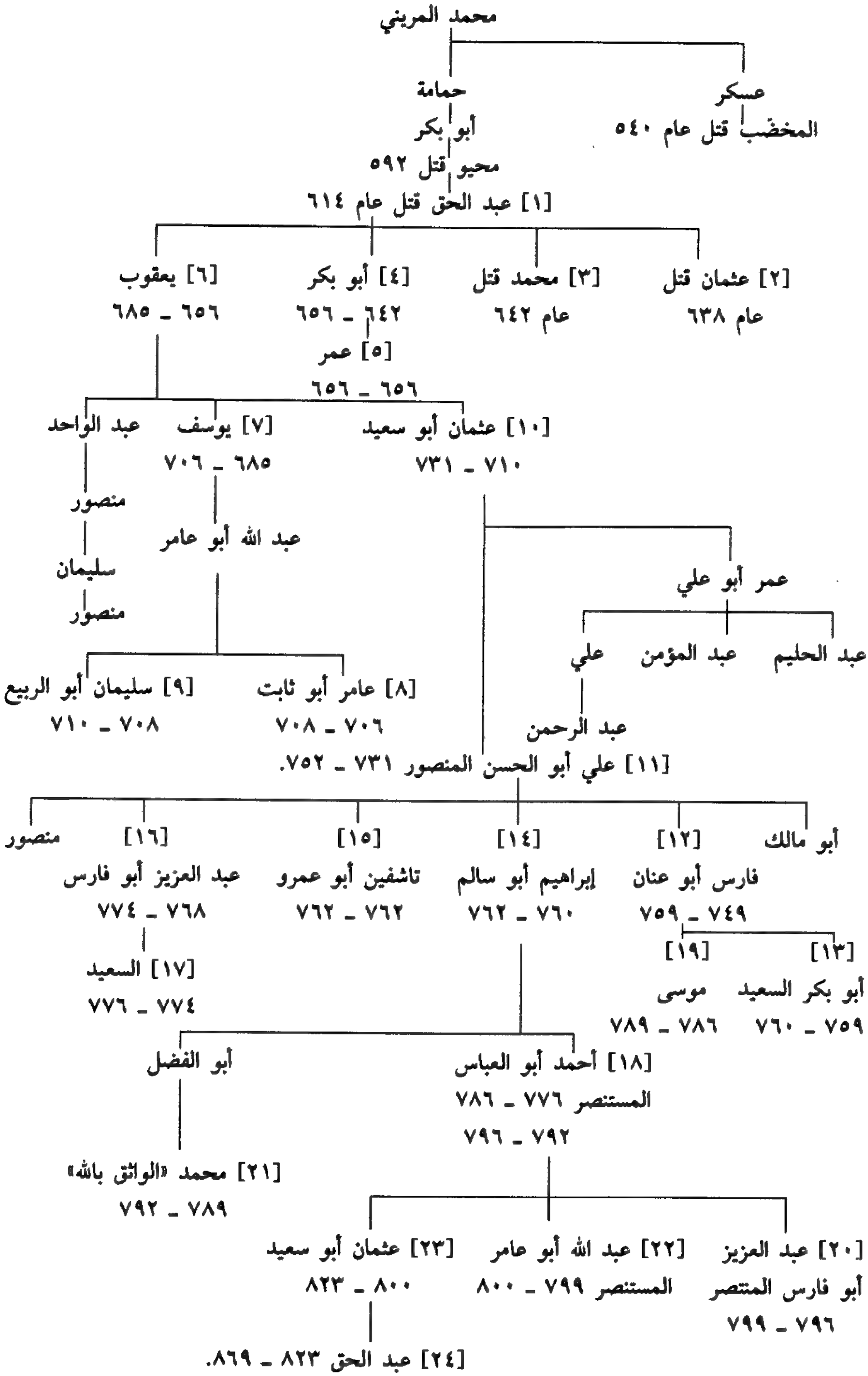
محمد المريني
حمامة
عسكر
المخضّب قتل عام ٥٤٠
أبو بكر
محيو قتل ٥٩٢
[١] عبد الحق قتل عام ٦١٤
[٢] عثمان قتل
عام ٦٣٨
[٣] محمد قتل
عام ٦٤٢
[٤] أبو بكر
٦٤٢ ـ ٦٥٦
[٥] عمر
٦٥٦ ـ ٦٥٦
[٦] يعقوب
٦٥٦ ـ ٦٨٥
[١٠] عثمان أبو سعيد
٧١٠ ـ ٧٣١
[٧] يوسف
٦٨٥ ـ ٧٠٦
عبد الواحد
منصور
سليمان
منصور
عبد الله أبو عامر
[٨] عامر أبو ثابت
٧٠٦ ـ ٧٠٨
[٩] سليمان أبو الربيع
٧٠٨ ـ ٧١٠
عمر أبو علي
عبد الحليم
عبد المؤمن
علي
عبد الرحمن
[١١] علي أبو الحسن المنصور ٧٣١ ـ ٧٥٢.
أبو مالك
[١٢]
فارس أبو عنان
٧٤٩ ـ ٧٥٩
[١٤]
إبراهيم أبو سالم
٧٦٠ ـ ٧٦٢
[١٥]
تاشفين أبو عمرو
٧٦٢ ـ ٧٦٢
[١٦]
عبد العزيز أبو فارس
٧٦٨ ـ ٧٧٤
منصور
[١٣]
أبو بكر السعيد
٧٥٩ ـ ٧٦٠
[١٩]
موسى
٧٨٦ ـ ٧٨٩
[١٧] السعيد
٧٧٤ ـ ٧٧٦
[١٨] أحمد أبو العباس
المستنصر ٧٧٦ ـ ٧٨٦
٧٩٢ ـ ٧٩٦
أبو الفضل
[٢١] محمد «الواثق بالله»
٧٨٩ ـ ٧٩٢
[٢٠] عبد العزيز
أبو فارس المنتصر
٧٩٦ ـ ٧٩٩
[٢٢] عبد الله أبو عامر
المستنصر ٧٩٩ ـ ٨٠٠
[٢٣] عثمان أبو سعيد
٨٠٠ ـ ٨٢٣
[٢٤] عبد الحق ٨٢٣ ـ ٨٦٩.

بنو وطاس

بنو وطاس فرع من بني مرين ولكنهم ليسوا من بني عبد الحق سلاطين فاس، وجميعهم من زناتة وكانت بلاد الريف أيام دولة بني مرين لبني وطاس، وفي أيام عبد الحق بن عثمان أصبح بعض رجالات بني وطاس وزراء لهم، وقد استبدوا بالأمر أو أن السلطان عبد الحق قد ترك لهم الأمر، وعندما خشي منهم على سلطانه قتل وزيره وأكثر بني وطاس بحيث لم ينج منهم إلا القليل، غير أنه قتل عام ٨٦٩، وقام بالأمر نقيب الأشراف.

قام أحد بني وطاس وهو محمد بن يحيى بن زيان الوطاسي المكنى بأبي زكريا والمعروف بالشيخ وهو ممن نجا من مذبحة عام ٨٦٦، وهاجم فاس، وكان بدء حركته من بلدة آصيلا فعندما غادرها استغل البرتغاليون غيابه واحتلوها فعاد إليها فلم يتمكن من دخولها فعقد هدنة مع البرتغال ورجع إلى فاس، واستطاع السيطرة عليها فخلع نقيب الأشراف، واستلم الحكم عام ٨٧٥، وأسس دولة بني وطاس، وطالت أيامه، وسقطت الأندلس في أيامه بيد النصارى الإسبان عام ٨٩٧ وانتقل سلطان غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر إلى المغرب حيث نزل لاجئاً في فاس عند محمد بن يحيى الوطاسي. واستولى البرتغاليون على ساحل البريجة عند أزمور عام ٩٠٧، كما استولوا على ساحل بلاد السوس، وبنوا حصن «فونتي» بقرب المكان الذي قامت فيه بعد ذلك مدينة «أغادير» وبقي محمد بن يحيى الوطاسي في الحكم حتى توفي عام ٩١٠.

وخلفه ابنه محمد بن محمد فحاول استرداد مدينة آصيلا من البرتغاليين، ولكنه عجز عن ذلك، وإن خربها، وزاد توسع البرتغاليين فاستولوا على «أزمور» و «المعمورة» وشرعوا في تجديد بناء مدينة «آنفي» التي سميت الدار البيضاء. وفي أيامه ظهر السعديون في بلاد السوس، ومراكش، وهاجم مراكش لكنه عجز عن فتحها، وبقي حتى توفي عام ٩٣٢، وقد عُرف بالبرتغالي.

الفصل الثاني

بنو زيان "عبد الواد" في المغرب الأوسط

كانت قبيلة بني عبد الواد تقيم بالقرب من مدينة تلمسان، وكان شيخها جابر بن يوسف بن محمد بن زجدان من بني عبد الواد، وقد أساء والي تلمسان الحسن بن حيان الكومي إلى هذه القبيلة إذ اعتقل رؤساءهم، فشفع بهم إبراهيم بن إسماعيل الصنهاجي من لمتونة، غير أن الوالي قد ردّ شفاعته، فأخذت الحمية إبراهيم فجمع قومه، وقتل الوالي، وأطلق بني عبد الواد، وخلع طاعة الموحدين، لكنه لم يلبث أن خاف منهم فأراد الغدر بهم، وربما كان للاعتذار عما قام به، فدعا وجهاءهم إلى وليمة، غير أنهم قد أحسوا بذلك فقبضوا عليه، ودخل جابر بن يوسف من بني عبد الواد مدينة تلمسان عام ٦٢٧، وضبط أمورها، وعاد فدعا للموحدين، وبايعته المنطقة إلّا بلدة «ندروما» فسار إليها، وحاصرها، ورماه يوسف الغفاري التلمساني بسهم في أثناء الحصار فقتله عام ٦٢٩، وتولّى مشيخة القبيلة بعده أخوه عثمان، ولم يلبث أن خلع بعد سنتين عام ٦٣١، فانتقلت المشيخة إلى ابن عمه زيّان بن ثابت، واستمرت في أسرته من بعده لذا عرفوا ببني زيان بعد أن كانوا يعرفون ببني عبد الواد. ولم تطل أيام زيان أكثر من سنتين فقام بعده ابنه زيدان، فثار عليه بنو مطهر، واتفقوا مع بني راشد ضده، وكانت معارك بين الطرفين قتل فيها زيدان عام ٦٣٣ خارج مدينة تلمسان، فقامت بالأمر زوجته عدة أشهر، ثم قام أخوه يغمراسن بن زيان في العام نفسه، وعندما ثار يحيى أبو زكريا الحفصي في تونس ضد الموحدين، وقطع الخطبة عنهم، وأراد امتلاك مراكش سار نحو الغرب عام

٦٣٩، ورغب في ضم تلمسان إليه، فخرج يغمراسن بن زيان منها، واتجه نحو الصحراء، ثم تصالحا، وعاد كل منهما إلى موطنه. وفي عام ٦٤٦ اتجه السلطان السعيد الموحدي لقتال يحيى أبي زكريا الحفصي، فابتعد عنه يغمراسن محبةً في السلم، غير أن السعيد اتجه نحوه فقاتله يغمراسن، وانتصر عليه، وقتله، وربح كل ما في المعسكر الموحدي، وكان ذلك بدء استقلاله، وبقي حتى عام ٦٨١، فكانت مدة سلطته أربعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر. وكان ولي عهده ابنه يحيى الذي تولى أمر سجلماسة غير أنه توفي قبله عام ٦٦٠، ويعدّ يغمراسن السلطان الأول من بني زيان.

خلف يغمراسن ابنه الثاني عثمان أبو سعيد، وزادت قوة الدولة في أيامه إذ وصلت حدودها إلى بجاية، وهاجمه السلطان المريني يوسف بن يعقوب عام ٦٨٩، فانتصر عليه أبو سعيد، وكرر يوسف هجماته على أبي سعيد عام ٦٩٥، و ٦٩٦، و ٦٩٧ وفشل المرينيون في هذه الهجمات كلها، وأخيراً تمكنوا من الوصول إلى تلمسان وإلقاء الحصار عليها، فانفضت القبائل عن عثمان أبي سعيد الزياني لشدة الحصار، واشتداد الجوع، وقلة الحاجيات، وتوفي أبو سعيد وعاصمته محاصرة وذلك عام ٧٠٣.

تولى بعد عثمان أبي سعيد ولده محمد أبو زيان الأول، فتسلم الأمر، وهو محاصر من سلطان بني مرين يوسف بن يعقوب. . . وطال الحصار، وضاقت على الناس الحياة فخرج أبو زيّان على أعدائه المحاصرين له عام ٧٠٦ ومعه بعض أعيان تلمسان، ووثب عبد على سلطان بني مرين فطعنه بخنجر أرداه قتيلا، وبرز أبو زيّان فقتل ابن السلطان المريني، وعقد الصلح مع حفيده عامر أبي ثابت بن عبد الله، وفُكّ الحصار عن تلمسان بعد أن دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر، ونهض أبو زيان وأخوه أبو حمو، فأعادا طاعة القبائل. ولم تطل أيام أبي زيان إذ هلك في العام التالي ٧٠٧.

خلف أبا زيان أخوه موسى أبو حمو الأول فتمكّن من صد بني مرين، وتوسع نحو الشرق فأخذ من الحفصيين بجاية وقسنطينة، وفي عام

٧١٨ قتله ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الأول، وحلّ مكانه، وصالح بني مرين إلا أن الخلاف عاد فوقع، فسار السلطان المريني المنصور بالله علي أبو الحسن إلى تلمسان عام ٧٣٥، وفتحها، وقُتل أبو حمو على أبواب القصر عام ٧٣٧، وأصبحت تلمسان تتبع أبا الحسن المريني، وقد ولّى عليها ابنه فارساً أبا عنان. وبعد أن سار أبو الحسن إلى تونس انتفض بنو زيان عليه في تلمسان، وخرج منها ابنه فارس الذي كان نائباً، خرج داعياً لنفسه واتجه نحو فاس.

وبرز من بني زيان عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن إلّا أنه قد هُزم أمام أبي عنان سلطان فاس المريني الذي دخل تلمسان عام ٧٥٣، وبرز كذلك عثمان بن عبد الرحمن، وابن أخيه موسى أبو حمو الثاني(١) الذي أصبحت له السيادة التامة على بني زيان، وهذا ما أزعج ابن عمه محمداً أبا زيان الثاني فناصر سلطان فاس المريني أبا سالم إبراهيم الذي سار إلى تلمسان عام ٧٦١ ودخلها وولّى عليها من قبله أبا زيان بن عثمان، ولكن ما أن رجع أبو سالم إلى فاس حتى رجع أبو حمو إليى قاعدته وخرج منها أبو زيان الذي قويت شوكته بعد مدة فزحف نحو تلمسان عام ٧٦٦ غير أن رجاله قد تفرّقوا عنه فلجأ إلى وادي ملوية وانقطع خبره، واستتب الوضع لأبي حمو إلا أن بني مرين كانوا يقاتلونه، ويدخلون مقر حكمه فيضطر إلى الفرار نحو الصحراء، فقد سار السلطان عبد العزيز المريني نحو تلمسان عام ٧٧٢ ودخلها وخرج أبو حمو منها متجهاً نحو الصحراء، فلما رجع السلطان عبد العزيز إلى فاس عاد أبو حمو إلى مقره، وسار السلطان عبد العزيز مرةً ثانية إلى تلمسان ودخلها عام ٧٧٤، وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين وقفل راجعاً إلى فاس، وكان أبو حمو قد تغيّب في الصحراء، فما

(١) موسى أبو حمو الثاني بن يوسف: ولد في غرناطة عام ٧٢٣ حيث كان أبوه منفياً إليها، ورجع أبوه في عام ولادة ابنه، واتجه إلى تونس، وأعانه بنو حفص لاسترداد الملك، فجمع حوله الجموع وهاجم أطراف قسنطينة، وزحف نحو فاس، واستولى رجاله على أغادير، ودخل تلمسان عام ٧٦٠.

أن رجع جيش بني مرين حتى استردّ أبو حمو تلمسان وقضى على إبراهيم بن تاشفين، وكذلك دخل سلطان فاس محمد أبو الفضل تلمسان في أواخر أيام أبي حمو الذي فرّ إلى الصحراء كعادته ورجع بعد رجوع محمد أبي الفضل، وخرج على أبي حمو ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني فاضطر إلى قتاله، فاتجه أبو تاشفين إلى بني مرين، وجاء بجيش وقتل أباه أبا حمو عام ٧٩١، وتسلّم حكم تلمسان مكانه.

واستمر حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حتى عام ٨٧٣ أي ما يزيد على ثمانين سنة، وكانت مرحلة ضعف واختلاف فيما بينهم، فقد حكم بعد أبي حمو ابنه وقاتله عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني، واستمر حتى عام ٧٩٦، وخلفه ابنه يوسف أبو ثابت، ولم تطل أيامه إذ توفي في السنة نفسها وبويع بعده عمه يوسف أبو الحجاج بن أبي حمو وقتل بعد سنة، وبويع بعده أخوه محمد أبو زيان الثالث، وانتزع منه السلطة أخوه عبد الله أبو محمد الأول عام ٨٠١ بعد أن جاء بجيشٍ من بني مرين، فهُزم أبو زيان، وفرّ جريحاً، ثم قُبض عليه، وقتل، وبقي عبد الله في الحكم حتى عام ٨٠٤ فجاءه أخوه الآخر محمد أبو عبد الله الأول بجيش من بني مرين أيضاً إذ كان من أتباع السلطان عثمان المريني كأخيه، وتمكّن من دخول تلمسان عام ٨٠٤، وقبض على أخيه عبد الله، وأرسله إلى فاس مقر حكم بني مرين، وبقي محمد في السلطة حتى عام ٨١٣ حيث خلفه ابنه عبد الرحمن ولم تطل أيامه إلى السنة، وقام مكانه عمه سعيد بن أبي حمو فكان مثله قليلة أيامه، وتولى بعده أخوه عبد الواحد أبو مالك بن أبي حمو فحكم في المرة الأولى ثلاث عشرة سنة (٨١٤ ـ ٨٢٧) ثم خلع، فخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله الثاني بن أبي تاشفين فحكم أربع سنوات ثم خلع، وأعيد عبد الواحد أبو مالك لمدة سنتين وبعده أعيد ثانية ابن أخيه لمدة سنة واحدة (٨٣٣ ـ ٨٣٤)، ثم جاء عمه أحمد أبو العباس بن أبي حمو فدام حكمه اثنتين وثلاثين سنة (٨٣٤ ـ ٨٦٦)، ثم خلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد الثالث لمدة سبع سنوات (٨٦٦ ـ ٨٧٣)، وخلفه ابنه

عبد الرحمن أبو تاشفين الثالث، وكانت أيامه قصيرة لم تتعد الأشهر، وبه انتهى حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حيث انتقلت السلطة إلى أبناء عمومتهم. فتسلم الأمر أبو عبد الله محمد الرابع من أحفاد ثابت بن أبي تاشفين الأول، واستمر مدة (٨٧٣ ـ ٩١٠)، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس (٩١٠ ـ ٩٢٣)، وتلاه ولده موسى أبو حمو الثالث (٩٢٣ ـ ٩٣٤) فأخوه أبو محمد عبد الله الثاني (٩٣٤ ـ ٩٤٧)، وكان قد قوي أمر العثمانيين إذ بسطوا نفوذهم على أجزاء من المغرب الأوسط، وفي الوقت نفسه قوي نفوذ الإسبان وسيطروا على بعض المرافئ الساحلية، وضعف أمر بني زيان كثيراً، وخلف عبد الله أبا محمد الثاني ولده أبو عبد الله محمد السادس، وقد استعان بالإسبان، غير أن الحملة الإسبانية قد هلكت بعد وهران بعدة كيلومترات، وقام بعده أخوه أحمد أبو زيان فحكم ما يقرب من سنة (٩٥٠)، ثم خلع، وأعيد لمدة ست سنوات (٩٥١ ـ ٩٥٧)، وقد خلفه أخوه الحسن الذي انتهى به بنو زيان عام ٩٦٢.

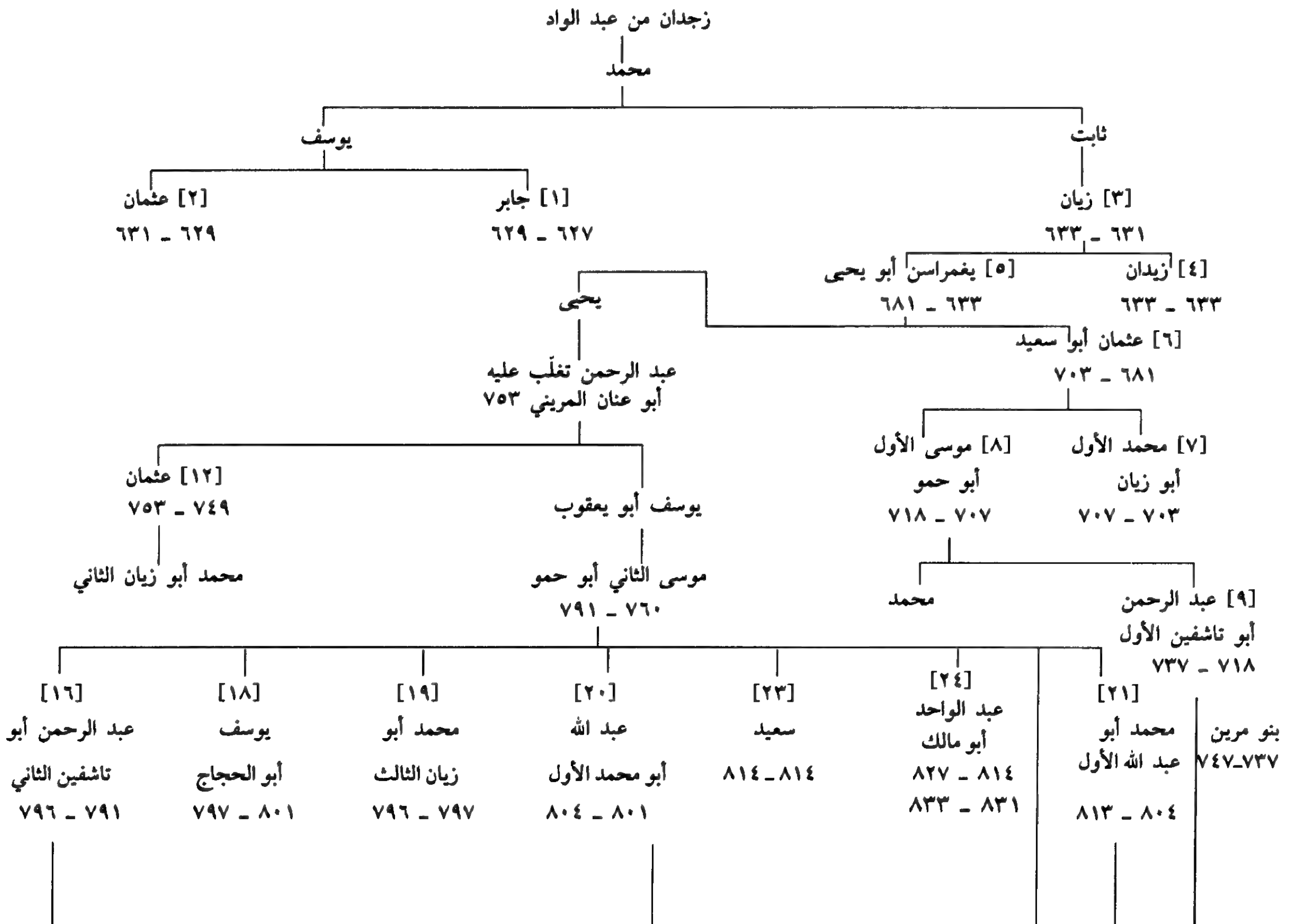
زجدان من عبد الواد
محمد
يوسف
ثابت
[٢] عثمان
٦٢٩ ـ ٦٣١
[١] جابر
٦٢٧ ـ ٦٢٩
[٣] زيان
٦٣١ ـ ٦٣٣
[٥] يغمراسن أبو يحيى
٦٣٣ ـ ٦٨١
[٤] زيدان
٦٣٣ ـ ٦٣٣
يحيى
[٦] عثمان أبو سعيد
٦٨١ ـ ٧٠٣
عبد الرحمن تغلّب عليه
أبو عنان المريني ٧٥٣
[٨] موسى الأول
أبو حمو
٧٠٧ ـ ٧١٨
[٧] محمد الأول
أبو زيان
٧٠٣ ـ ٧٠٧
[١٢] عثمان
٧٤٩ ـ ٧٥٣
يوسف أبو يعقوب
محمد أبو زيان الثاني
موسى الثاني أبو حمو
٧٦٠ ـ ٧٩١
محمد
[٩] عبد الرحمن
أبو تاشفين الأول
٧١٨ ـ ٧٣٧
[١٦]
عبد الرحمن أبو
تاشفين الثاني
٧٩١ ـ ٧٩٦
[١٨]
يوسف
أبو الحجاج
٨٠١ ـ ٧٩٧
[١٩]
محمد أبو
زيان الثالث
٧٩٧ ـ ٧٩٦
[٢٠]
عبد الله
أبو محمد الأول
٨٠١ ـ ٨٠٤
[٢٣]
سعيد
٨١٤ ـ ٨١٤
[٢٤]
عبد الواحد
أبو مالك
٨١٤ ـ ٨٢٧
٨٣١ ـ ٨٣٣
[٢١]
محمد أبو
عبد الله الأول
٨٠٤ ـ ٨١٣
بنو مرين
٧٣٧ـ٧٤٧

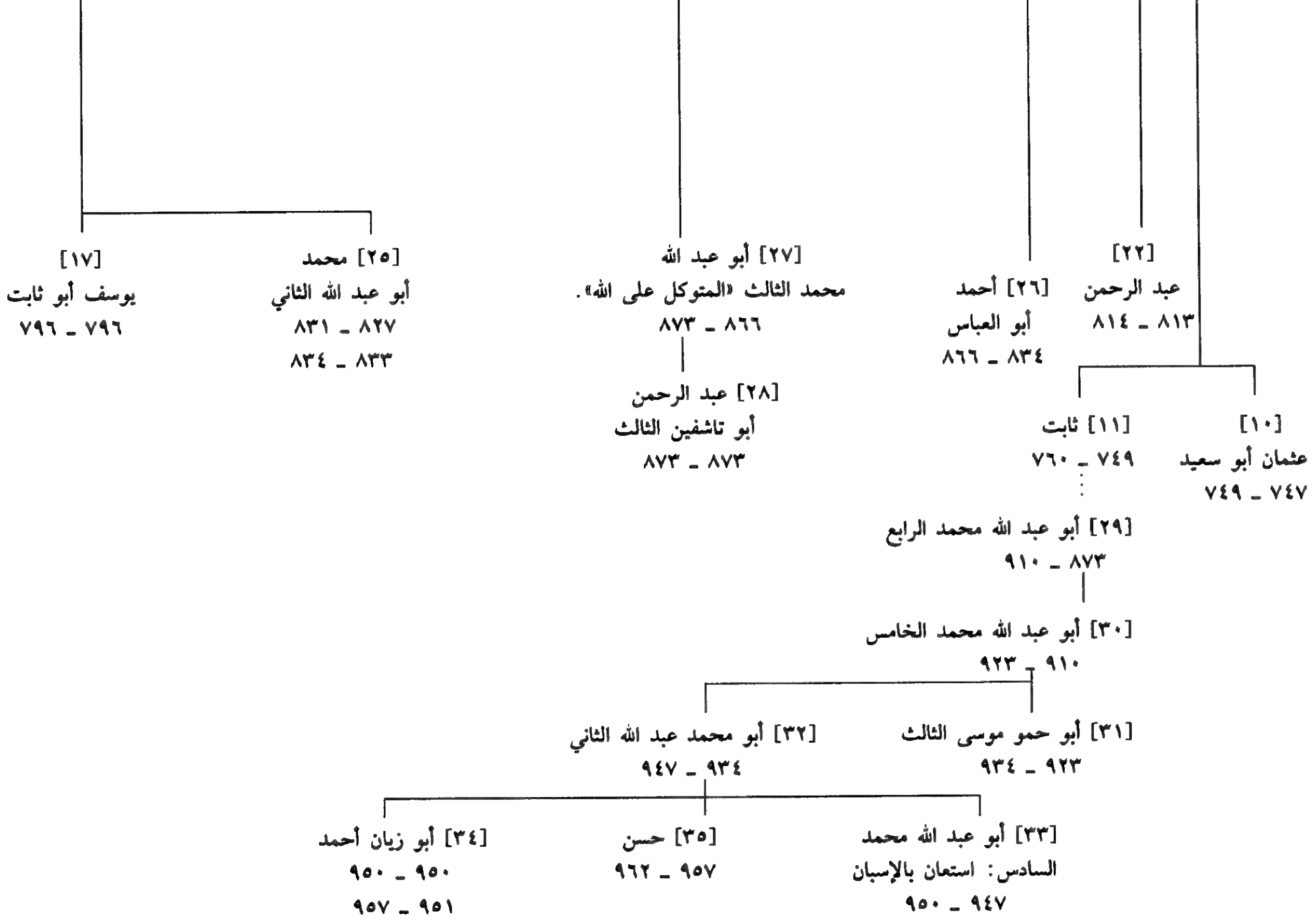
[١٠]
عثمان أبو سعيد
٧٤٧ ـ ٧٤٩
[٢٢]
عبد الرحمن
٨١٣ ـ ٨١٤
[١١] ثابت
٧٤٩ ـ ٧٦٠
[٢٩] أبو عبد الله محمد الرابع
٨٧٣ ـ ٩١٠
[٣٠] أبو عبد الله محمد الخامس
٩١٠ ـ ٩٢٣
[٣١] أبو حمو موسى الثالث
٩٢٣ ـ ٩٣٤
[٣٢] أبو محمد عبد الله الثاني
٩٣٤ ـ ٩٤٧
[٣٣] أبو عبد الله محمد
السادس: استعان بالإسبان
٩٤٧ ـ ٩٥٠
[٣٥] حسن
٩٥٧ ـ ٩٦٢
[٣٤] أبو زيان أحمد
٩٥٠ ـ ٩٥٠
٩٥١ ـ ٩٥٧
[٢٦] أحمد
أبو العباس
٨٣٤ ـ ٨٦٦
[٢٧] أبو عبد الله
محمد الثالث «المتوكل على الله».
٨٦٦ ـ ٨٧٣
[٢٨] عبد الرحمن
أبو تاشفين الثالث
٨٧٣ ـ ٨٧٣
[٢٥] محمد
أبو عبد الله الثاني
٨٢٧ ـ ٨٣١
٨٣٣ ـ ٨٣٤
[١٧]
يوسف أبو ثابت
٧٩٦ ـ ٧٩٦

الفصل الثالث

الحفصيّون في تونس

كان أبو حفص عمر بن يحيى من مشايخ هنتانة أشهر بطون قبيلة مصمودة، وقد رافق بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، وكان من المقربين إليه، بل يعد الرجل الثالث في هذه الدعوة بعد صاحبها وعبد المؤمن بن علي، وكان على مقدمة عبد المؤمن حين بعثه عام ٥٣٧ إلى المغرب الأوسطّ، ولم يدخل الموحدون إلى مراكش بعد، وتولّى أمر المغرب عندما سار عبد المؤمن عام ٥٥٤ لفتح المهدية، وكان لكل معضلة تقع فيها دولة الموحدين، فقد وطد لبيعة محمد بن عبد المؤمن، وبايع ليوسف بن عبد المؤمن، واستنقذ مدينة (بطليوس) من حصار طاغية الإسبان، وتوفي في مدينة (سلا) عام ٥٧١، وهو عائد من الأندلس. ويرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

كان أبناء أبي حفص هذا يتداولون الإمارة في الأندلس، والمغرب، وتونس مع أبناء عبد المؤمن بن علي، فقد كان عيسى بن أبي حفص أميراً في الأندلس، ثم والياً على بجاية، وعلى بونه، ثم على المهدية، وقد توفي عام ٦٤٦ وهو عليها وال، وهو المعروف بأبي علي. كما ولي على تونس أبو سعيد بن أبي حفص. واستوزر الناصر يوسف بن عبد المؤمن أبا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص.

ولما سار الناصر يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية لقتال ابن غانية عام ٦٠١، أرسل إلى مدينة (قابس) أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص لضرب جموع ابن غانية التي احتشدت هناك، فتمكن فعلاً من سحق

تلك الجموع، واستنقذ منهم أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان والي تونس لأبيه. وولّى الناصر بعدها أبا محمد عبد الواحد على إفريقية عام ٦٠٣، وقد حارب ابن غانية في جهات طرابلس وتمكّن من الانتصار عليه عام ٦٠٤. وسار ابن غانية إلى تاهرت وخرّبها عام ٦٠٥ فسار إليه أبو محمد فأخذها منه، وانتصر عليه ثانيةً في جهات طرابلس عام ٦٠٦، وبقي عبد الواحد هذا والياً على تونس (إفريقية) حتى توفي عام ٦١٨.

وخلف عبد الواحد على ولاية تونس ابنه عَبد الله، وبقي حتى عام ٦٢٥ حيث ثار عليه أخوه يحيى أبو زكريا لأنه رفض الاستقلال عن مراكش وقطع الخطبة عن الموحدين، وتسلّم الأمر مكانه، أما هو فقد سار إلى مراكش حيث استقبل فيها، وقُدّم، ثم قُتل بعد مدةٍ لموقف أخيه من الموحدين وقتاله لهم.

منذ أن تسلّم يحيى أبو زكريا الحكم قطع الخطبة عن بني عبد المؤمن من الموحدين، واستقل عام ٦٢٦، وكان يرغب في امتلاك مراكش، وتمكّن من القضاء على ابن غانية عام ٦٣١، وهاجم بعدها تلمسان عام ٦٣٩، ودخلها، وفرّ أميرها يغمراسن بن زيان إلى الصحراء، كما أخذ سجلماسة، وسبته، وطنجة، ومكناس، وهكذا اتسع ملك الحفصيين، وتوفي يحيى أبو زكريا عام ٦٤٧.

تولى أمر تونس بعد يحيى أبي زكريا أخوه عبد الرحمن أبو زيد، لكنه لم يلبث أن عُزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته، إذ قام عليه ابن أخيه محمد بن يحيى أبي زكريا.

حكم محمد أبو عبد الله بن يحيى أبي زكريا باسم المستنصر عام ٦٤٨ بعد أن خلع عمه عبد الرحمن، وقد ذاع صيته، وبايعه أهل مكة عام ٦٥٧ غير أن سلطان مصر الظاهر بيبرس قد أخذ البيعة لنفسه من أهل مكة، وغدت بلاد الحجاز مرتبطة بالدولة المملوكية. وتعرّض المستنصر لغزو ملك فرنسا حيث تمكّن من احتلال تونس وبقي فيها مدة ستة أشهر. وانتفضت الجزائر على السلطان فحارب أهلها عام ٦٦٩، وعام ٦٧١، و٦٧٣، واستطاع أن يدخلها أخيراً عام ٦٧٤، وحانت منيته على ٦٧٥هـ.

خلف المستنصر ابنه يحيى عام ٦٧٥، وتلقّب باسم الواثق بالله، غير أن أمره لم يطل إذ ثار عليه عمه إبراهيم الذي كان قد رحل إلى تلمسان عند موت أخيه المستنصر، وعندما قوي أمره سار إلى بجاية وملكها، ثم اتجه إلى تونس، فخلع ابن أخيه نفسه فقبض عليه عمه وذبحه عام ٦٧٨، وصفا لإبراهيم الجو.

ثار على إبراهيم رجل يُدعى أحمد بن مرزوق ويُعرف بابن أبي عمارة، وقوي أمر الثائر، فتنازل إبراهيم لابنه أبي فارس أمير مدينة بجاية من قبل أبيه، فلقب نفسه بالمعتمد، وسار إلى قتال ابن أبي عمارة غير أنه هُزم وقُتل عام ٦٨٢، أما أبوه إبراهيم فقد فرّ باتجاه تلمسان فأدركه بعض أتباع ابن أبي عمارة حيث حمل إلى بجاية، وقتل فيها عام ٦٨٣.

نجا من هذه المعارك عمر بن يحيى أخو إبراهيم، ويحيى بن إبراهيم وقد كان مع أبيه يوم تلمسان. أما عمر فقد رحل إلى قلعة سنان قرب تونس، واستطاع أن يتغلب على ابن أبي عمارة، وأن يقتله، ويستعيد تونس عام ٦٨٣، واستلم زمام الأمر، وتلقّب باسم المستنصر الثاني، وبقي في الحكم حتى عام ٦٩٤، وفي عام ٦٨٨ استولى صاحب صقلية على جزيرة جربا الواقعة في خليج قابس. أما يحيى أبو زكريا بن إبراهيم فعندما وجد نجاح عمه في تونس، أعلن ملكه لمدينة بجاية وأطاعه أهلها، ثم أخذ الجزائر وبسكرة، وأعلن استقلاله عن تونس، وهكذا انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين: أولهما في تونس ويحكمه المستنصر الثاني عمر بن يحيى، والثاني في بجاية ويحكمه يحيى بن إبراهيم، وبقي هذا الانقسام حتى توفي يحيى بن إبراهيم هذا عام ٧٠٩.

وعندما توفي المستنصر الثاني عمر بن يحيى عام ٦٩٤ بويع محمد بن يحيى الواثق باسم المستنصر الثالث، ويعرف بلقب أبي عصيدة، واستمر حكمه في تونس حتى عام ٧٠٩.

وبعد وفاة المستنصر الثالث بويع أخوه أبو بكر بن يحيى، غير أن ابن عمه أمير بجاية خالد بن يحيى قد وثب عليه، فاستسلم له بعد حكم سبعة عشرة يوماً، فقتله خالد واستلم الأمر، وتلقّب باسم الناصر، ويُكنّى بأبي

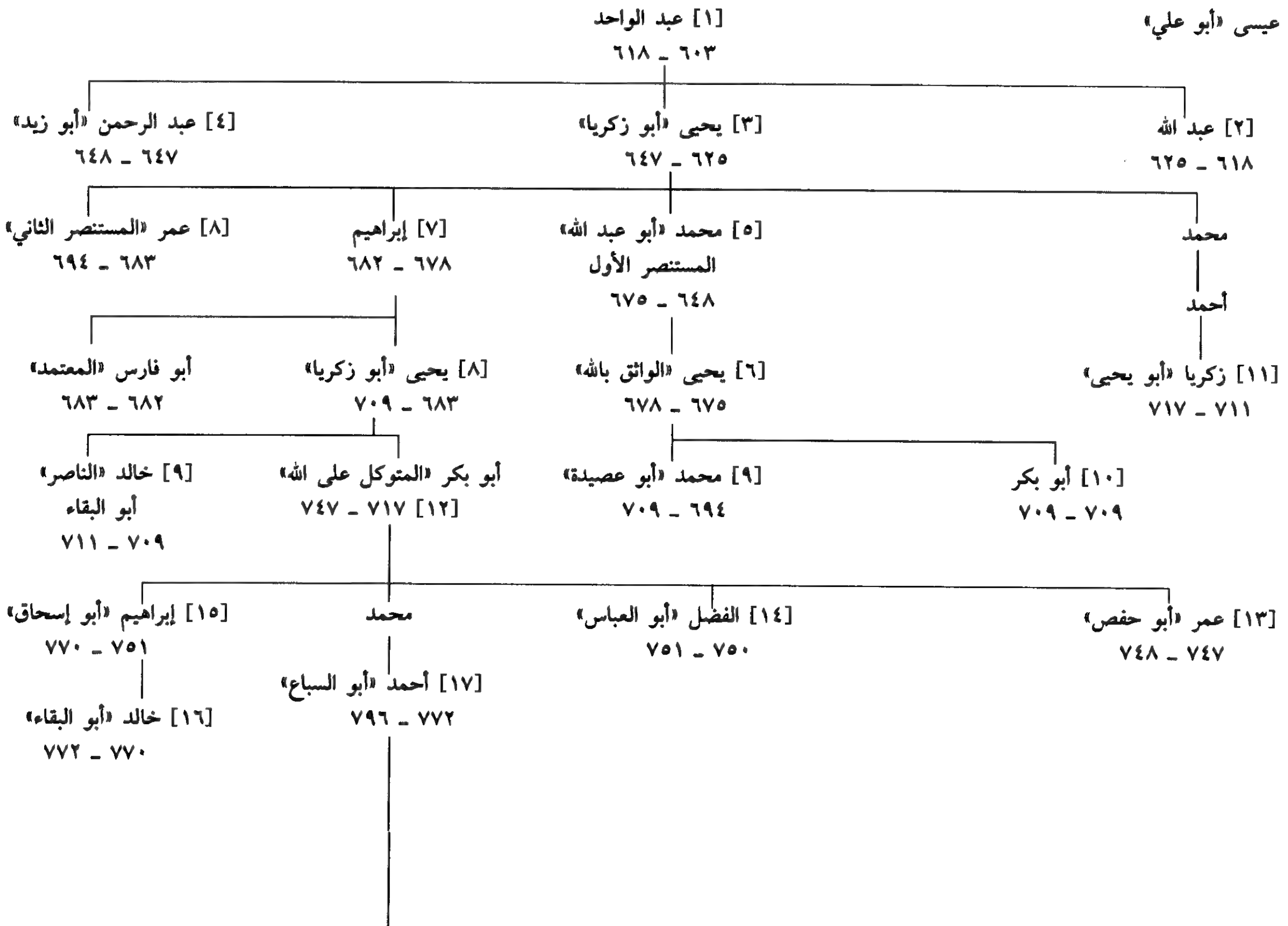
عيسى «أبو علي»
[١] عبد الواحد
٦٠٣ ـ ٦١٨
[٢] عبد الله
٦١٨ ـ ٦٢٥
[٣] يحيى «أبو زكريا»
٦٢٥ ـ ٦٤٧
[٤] عبد الرحمن «أبو زيد»
٦٤٧ ـ ٦٤٨
محمد
أحمد
[١١] زكريا «أبو يحيى»
٧١١ ـ ٧١٧
[٥] محمد «أبو عبد الله»
المستنصر الأول
٦٤٨ ـ ٦٧٥
[٦] يحيى «الواثق بالله»
٦٧٥ ـ ٦٧٨
[١٠] أبو بكر
٧٠٩ ـ ٧٠٩
[٩] محمد «أبو عصيدة»
٦٩٤ ـ ٧٠٩
[٧] إبراهيم
٦٧٨ ـ ٦٨٢
[٨] يحيى «أبو زكريا»
٦٨٣ ـ ٧٠٩
أبو بكر «المتوكل على الله»
[١٢] ٧١٧ ـ ٧٤٧
أبو فارس «المعتمد»
٦٨٢ ـ ٦٨٣
[٩] خالد «الناصر»
أبو البقاء
٧٠٩ ـ ٧١١
[٨] عمر «المستنصر الثاني»
٦٨٣ ـ ٦٩٤
[١٣] عمر «أبو حفص»
٧٤٧ ـ ٧٤٨
[١٤] الفضل «أبو العباس»
٧٥٠ ـ ٧٥١
محمد
[١٧] أحمد «أبو السباع»
٧٧٢ ـ ٧٩٦
[١٥] إبراهيم «أبو إسحاق»
٧٥١ ـ ٧٧٠
[١٦] خالد «أبو البقاء»
٧٧٠ ـ ٧٧٢

[١٨] عبد العزيز «أبو فارس»
عزوز
٧٩٦ ـ ٨٣٧

محمد «أبو عبد الله»
المنصور

[١٩] محمد «المنتصر»
٨٣٧ ـ ٨٣٩

[٢٠] عثمان «المتوكل على الله»
٨٣٩ ـ ٨٩٣

محمد «المسعود»

[٢١] يحيى «أبو زكريا»
٨٩٣ ـ ٨٩٩

الحسن

[٢٢] محمد «أبو عبد الله»
٨٩٩ ـ ٩٣٢

[٢٣] الحسن
٩٣٢ ـ ٩٣٥ وتوفي ٩٥٠

أحمد
٩٣٩ ـ ٩٤١ وتوفي ٩٨٠

محمد
٩٤٢ ـ ٩٨١ تحت حكم الإسبان
وتوفي ٩٩٠ في استانبول

البقاء، ولم يطل حكمه أكثر من سنتين، حيث دخل الميدان شخص ثالث هو الأمير زكريا أبو يحيى بن أحمد بن محمد اللحياني ابن يحيى بن عبد الواحد، فقد بويع عام ٦٨٠ عند حركة ابن أبي عمارة ثم خلع، وقد سافر إلى الحج عام ٧٠٩، وعندما عاد نزل طرابلس والفتنة قائمة بين خالد بن يحيى وابن عمه أبي بكر بن يحيى، فشدّ من عزمه، واتجه إلى تونس فدخلها عام ٧١١، وخرج منها أبو بكر بن يحيى الذي استسلم إلى خالد بن يحيى فقتله ـ كما ذكرنا ـ إلا أن زكريا لم يلبث أن خشي من الفتنة فانسحب من تونس إلى قابس، ومنها إلى طرابلس عام ٧١٧، واكتفى بولايتها، ثم غادرها وسار إلى مصر فاستقبله السلطان محمد بن قلاوون، وبقي زكريا في الإسكندرية حتى توفي عام ٧٢٧.

كان أبو بكر بن يحيى أخو خالد الناصر والياً على قسنطينة لأخيه خالد لكنه ثار عليه، وأعلن موالاته لزكريا بن أحمد اللحياني، وربما كان هذا السبب الذي دعا خالداً لخلع نفسه، غير أن أبا بكر قد تمكّن من الفوز والاستقرار في تونس عام ٧٢٣، ولكن البلاد كانت تمر في محنةٍ كبيرة إذ كانت الحركات في كل مكان، واستطاع أبو بكر من إحراز النصر على معارضيه حتى صفا له الجو عام ٧٣٠ واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٤٧، وبقي الحكم في عقبه، ولقب أبو بكر بالمتوكل على الله.

خلف أبا بكر بن يحيى ابنه عمر أبو حفص، وثار عليه ثلاثة من إخوته وهم أبو العباس، وخالد، وعبد العزيز (عزوز) فقتلهم، ولم يلبث أن لحق بهم إذ قتله أحد الجنود قرب مدينة قابس عام ٧٤٨، ووقعت فتنة في البلاد أو عادت الحركات إلى البلاد، فتغلب في كل ناحية أمير أو ثائر، وفي عام ٧٥٠ انتصر الفضل أبو العباس بن المتوكل على الله، ولم يمض عام حتى قتله بعض المتغلبين. ثم قام أخوه إبراهيم أبو إسحاق عام ٧٥١ وكان صغيراً، فكان حاجب أبيه أبو محمد بن تافراغين يخرج به من تونس ويعود إليها معه حسب القوة التي تؤيده، وبقي كذلك حتى توفي عام ٧٧٠، فنهض بالأمر من بعده ابنه خالد أبو البقاء، وكان صغيراً، وغرق في

الطريق عام ٧٧٢، وثار عليه ابن عمه أحمد أبو السباع بن محمد، وكان والياً على قسنطينة له، فأطمعه صغر السلطان فقام ضده وقوي أمره، وساعده موت السلطان فتولى الأمر بعده عام ٧٧٢، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٧٩٦.

وخلف أحمد أبا السباع ابنه عبد العزيز (عزوز) أبو فارس، وقد زاد حكمه على أربعين سنة، وقد ضمّ إليه تلمسان، وفاس، وقام بغزو جزيرة مالطة، وتوفي عام ٨٣٧. وكان ابنه محمد أبو عبد الله والياً على طرابلس من قبله، ووليّاً للعهد، ويلقب بالمنصور غير أنه توفي عام ٨٣٣ قبل والده بأربع سنوات، فلما مات أبو السباع خلفه حفيده محمد المنتصر، وكان في طرابلس فانتقل إلى تونس، وكان مريضاً، فلم يدم حكمه أكثر من سنة وواحد وسبعين يوماً توفي بعدها عام ٨٣٩، وخلفه أخوه عثمان الملقب بالمتوكل على الله.

اتسعت أرجاء الدولة في عهد المتوكل على الله عثمان فخُطب له بالجزائر وتلمسان، وبايعه أهل فاس ودام عهده أكثر من أربع وخمسين سنة حيث تولى الأمر بعد وفاة أخيه عام ٨٣٩، واستمر حتى توفي عام ٨٩٣، وكان ولي عهده ولده محمد المسعود إلا أنه توفي قبله في عام ٨٧٥، فلما مات هو خلفه حفيده يحيى أبو زكريا بن محمد المسعود، وقد اشتغل بقتال المعارضين له، وتوفي بالطاعون عام ٨٩٩، وخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله بن الحسن.

بعد أن قام محمد أبو عبد الله بالأمر بدأت الدولة بالانهيار، إذ كان الإسبان قد قوي أمرهم، وتمكنوا من إخراج المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وبدؤوا بالإغارة على موانئ بلاد المغرب، واحتلالها إن أمكنهم ذلك، وقد استطاعوا دخول بجاية، ثم ملك بنو عزاب طرابلس وسلّموها للإسبان عام ٩١٤، واستمر اقتطاع الأجزاء من دولته، والحركات في الجهات المتعددة حتى توفي عام ٩٣٢، وخلفه ولده الحسن. وكان العثمانيون قد اشتد ساعدهم في تلك المناطق بعد انضمام خير الدين

باربروس إليهم وضم الجزائر إلى دولتهم، وبدؤوا في صراع مع الإسبان على تلك السواحل، أو الحروب الصليبية ظهرت بوضوح.

تمكّن خير الدين باربروس من أخذ تونس عام ٩٣٥ وهزيمة سلطان الحفصيين الحسن بن أبي عبد الله محمد الذي فرّ إلى إسبانيا، ورجع بأسطول إسباني يدعمه، واستطاع دخول تونس، غير أن الإسبان قد نقضوا عهدهم معه إذ ثارت في نفوسهم الأحقاد الصليبية فصبّوا جام غضبهم على السكان فقتلوا من أهل تونس أكثر من ستين ألفاً، وبقي الحسن مع هذا كله بجانب الإسبان حرصاً على مصلحته ودون أن يرعى للرعية حرمة، فتأثر أهل البلاد، وقام أهل القيروان بحركةٍ واسعةٍ ضدّه، فسار إليهم وفي أثناء غيابه تقدّم ابنه أمير بونه من قبله، وهو ولده أحمد ودخل تونس، متألماً مما وقع فيه أبوه من خنوع للإسبان وهم أعداء دينه، ورجع الحسن ومعه الإسبان لقتال ابنه غير أنه انتصر عليهم، وقبض على أبيه وسجنه، وقد كفّ بصره، وبقي حتى مات عام ٩٥٠.

وقام أحمد بن الحسن بالأمر، وكنيته أبو العباس، ووجد نفسه بين خصمين: الإسبان في حلق الواد وعلى شاطئ البحر، والعثمانيون في طرابلس والقيروان ثم تمكنوا من دخول تونس، فطلب نجدة الإسبان فاشترطوا عليه مشاركته في الحكم فرفض واعتزل، وترك الأمر للعثمانيين بصفتهم مسلمين، وسار هو إلى صقلية حيث أقام في بلرمو حتى مات عام ٩٨٠.

وكان لأحمد بن الحسن أخ يُدعى محمداً وقد وافق الإسبان على شروطهم بعد اعتزال أخيه وسفره فدعموه بأسطول تمكن من أخذ تونس، وبقي تحت رحمتهم خانعاً خاضعاً حتى عام ٩٨١ حيث جاء أسطول عثماني بقيادة سنان باشا، واستطاع إنقاذ تونس من يد الإسبان، وأخذ محمد بن الحسن أسيراً إلى استانبول حيث بقي فيها حتى مات عام ٩٩٠، وانتهت بذلك دولة بني حفص، وتبعت تونس الدولة العثمانية بعد ذلك، واستمرت حتى رجعت الحروب الصليبية إلى تونس مرة أخرى عام ١٢٩٨.

الفصل الرابع

إفريقية الغربيّة

انتشر الإسلام في الصحراء الإفريقية في صدر الإسلام إذ سار عقبة بن عامر[1] عام ٤١ في أيام عمرو بن العاص في ولايته الثانية لمصر على رأس حملة، وتقدّم حتى وصل إلى غدامس وفتحها كما فتح ودان، ويقول ابن عذارى أنه وصل إلى مدينة غانا القديمة[2] وبنى فيها المساجد.

ووصل عقبة بن نافع[3] إلى أطراف الصحراء وفتح الطريق للإسلام كي ينتقل إلى بلاد السودان الغربي حيث كانت القبائل تنتقل بين بلاد المغرب والسودان، وذلك حوالي عام ٦٠هـ.

---

(١) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني: أمير من الصحابة، كان رديف النبي ﷺ. شهد صفين مع سيدنا معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص، وولي مصر عام ٤٤، وعزل منها عام ٤٧، وولي غزو البحر، وتوفي بمصر عام ٥٨، كان شجاعاً، فقيهاً، شاعراً، قارئاً، من الرماة. وهو أحد من جمع القرآن، له ٥٥ حديثاً، ويقال: إنه فتح ودان عام ٤٦ أيام ولايته، ويقال: إن بسر بن أرطأة قد فتح ودان عام ٢٣ ثم نقض أهلها العهد. كما يقال إن عقبة بن نافع هو الذي افتتحها.

(٢) غانا: مدينة قديمة غير قائمة الآن، يقع مكانها في بلاد مالي قرب حدود موريتانيا بين نهري النيجر والسنغال.

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري: ولد في حياة رسول الله ﷺ، ولا صحبة له، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، ووجهه عمرو إلى إفريقية والياً عام ٤٢، ثم ولاه معاوية عام ٥٠ على إفريقية، فبنى القيروان، ثم عزل عن إفريقية عام ٥٥، ثم أعيد أيام يزيد فخرج حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي واستشهد وهو راجع عام ٦٢.

وعندما آلت القيادة إلى موسى بن نصير[1] عام ٧٩ تمكّن أن يصل إلى وادي درعة[2] في أقصى بلاد السوس، وإلى الأماكن التي كان قد بلغها عقبة بن نافع من قبل، وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة وقد عمل موسى على تقريب البربر إليه، وولّاهم الأعمال، وشاركهم مع العرب في إدارة البلاد فأقبلوا على الإسلام رغبة فيه. واتصلت قبائل الملثمين التي تنتشر في المغرب الأقصى به فدعاهم للإسلام فأقبلوا عليه ودانوا به، وبنى المساجد في مدينة (أغمات)[3] وتمتد منازل الملثمين هؤلاء في الصحراء الكبرى وحتى حدود السودان الغربي الشمالي.

وتابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة التي سار عليها موسى وهي الدعوة إلى الإسلام بين البربر، إذ عمل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[4] والي إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، بالدعوة، ولم يبق أيام ولايته أحد لم يسلم. كما أرسل عمر بن عبد العزيز طائفة من التابعين انتشروا في المنطقة يدعون الناس إلى الإسلام، ويبصّرونهم في أمور دينهم.

ويقال: إن بني أمية قد أرسلوا جيشاً إلى داخل إفريقية بقصد فتح السودان الغربي ونشر الإسلام في ربوعه وذلك عام ١٠٢ أي في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية ولي غزو البحر، وغزا قبرص، ثم كان على خراج البصرة أيام الحجاج، واشترك في غزو إفريقية، وتوفي بالمدينة وكان حاجاً بصحبة الخليفة سليمان بن عبد الملك عام ٩٧.

(٢) وادي درعة: في أقصى بلاد السوس، يصب في المحيط الأطلسي، يشكل مجراه الأعلى الحدود بين الجزائر والمغرب اليوم.

(٣) أغمات: مدينة تقع جنوب شرقي مراكش بينهما ثلاثة فراسخ، تشرف على الممرات الجبلية ومن هنا كانت أهميتها العسكرية.

(٤) إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي بالولاء، كان فقيهاً، فاضلاً، ورعاً، استعمله عمر بن عبد العزيز عام ٩٩، وهو من العشرة من كبار التابعين توفي بالقيروان عام ١٣٢.

وقام بعد ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري[١] عندما دانت له المنطقة حوالي عام ١٤٠ بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة (أودغشت)[٢] بصحراء المغرب الأقصى، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء، وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها، كما أصبحت القوافل بسبب هذه الطريق الصحراوية التي أصلحها عبد الرحمن والطريق الساحلية الأخرى القديمة أكثر إمكانية للتحرك نحو غربي إفريقية وتحمل القوافل معها العقيدة الإسلامية والتجارة.

وبعد معركة فخ قرب مكة عام ١٦٩ فرّ بعض الأشراف إلى إفريقية، فوصل إدريس بن عبد الله[٣] إلى المغرب واستطاع أن يؤسس دولة عام ١٧٢، ووجهت هذه الدولة أنظار أهل المغرب إلى الجهاد بقصد العمل عل نشر الإسلام، ووصل نفوذ الأدارسة إلى الصحراء التي تفصل المغرب عن السودان الغربي. وقد انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، وزاد تحول صنهاجة إلى الإسلام، ونتج عن ذلك تحالف قوي بين بطون صنهاجة المختلفة بزعامة لمتونة، وبدأ يتوسع نحو

(١) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري: وقد عرف بالصقلبي لطوله، وشقرته، وزرقة عينيه قاوم الخوارج في إفريقية، كما قاوم عبد الرحمن الداخل الأموي، ودعا لبني العباس، وقتله غيلةً عام ١٤٢.

(٢) أودغشت: مدينة قديمة غير موجودة الآن، تقع بين الجبلين، كانت تعد من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في غربي إفريقية، تقع بين خطي عرض ١٨ ـ ١٩ شمالاً أي في بلاد موريتانيا اليوم، كانت محطة تجارية، ثم حاضرة قبيلة لمتونة من صنهاجه.

(٣) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو محمد ذي النفس الزكية الذي خرج على العباسيين في المدينة المنورة، بينما خرج أخوه الثاني إبراهيم في البصرة في العام نفسه (١٤٥). أما إدريس وأخوه الثالث وبعض الأشراف فقد نجوا من معركة فخ، وقد كانوا مع الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في أيام ثورته على موسى الهادي الخليفة العباسي الرابع عام ١٦٩، وفخ وادٍ من أودية مكة المكرمة، وقتل الحسين في هذه المعركة، وفر إدريس إلى مصر ومنها إلى المغرب، أما أخوه يحيى فقد هرب إلى بلاد الديلم، وأسس فيها دولة له.

الجنوب لقوة الأدارسة، وحلفائهم من زناتة، ومصمودة في الشمال، وقد استولى هذا الحلف على مدينة (أودغشت) وجعلها قاعدة له. وتفككت عرا الحلف عام ٣٠٦ فاستعادت غانا مدينة (أودغشت)، وعاد الحلف من جديد فاستولوا ثانية على أودغشت عام ٣٥٠، وهذا الاحتكاك بين الملثمين المسلمين وأهل السودان قد سهّل انتشار الإسلام بين الزنوج.

وفي الوقت الذي وصل فيه إدريس بن عبد الله إلى المغرب وصل أحد الأشراف إلى غانا وهو على ما يبدو ممن نجا من معركة فخ، ولقي الترحيب نفسه الذي لقيه إدريس، ويدعى هذا الشريف بصالح، واستطاع أن يؤسس مدينة كومبي صالح التي غدت حاضرة إمبراطورية غانا.

وقد انتصر موسى بن أبي العافية(١) على جند إمبراطورية غانا وأخذ منها الجزية عام ٣١٩ و٣٢٠، وكان يأخذ هذه الأتاوة من مدينة كومبي صالح، ولكن نفوذه قد زال بعد انقراض دولته، وتغلب الفاطميين عليه.

وأسس الصنهاجيون دولة في (كوكيا) في وسط الصحراء فكان لها أثر في نشر الإسلام. وعندما قام أبو يزيد مخلد بن كيداد(٢) الخارجي بثورته ضد الفاطميين ٣٣٢، وانتصر عليهم في بداية الأمر، وامتد نفوذه إلى وسط الصحراء فساعد هذا الامتداد على انتشار الإسلام.

---

(١) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك المكناسي الزناتي: كانت له مكناس وكان من دعاة المهدي، وعقد له ابن عمه مصاله بن حبوس على سائر جهات المغرب عام ٣٠٥، وأقره عبيد الله المهدي على ذلك، وضم إليه فاس عام ٣١٣ وأجلى الأدارسة عنها، نقض دعوة المهدي، وخطب للأمويين في الأندلس، فقاتله المهدي وانتصر عليه.

(٢) مخلد بن كيداد، أبو يزيد: من زناتة ومن الخوارج الأباضية، خرج على الفاطميين عندما مات عبيد الله المهدي عام ٣٣٢، فخرج بناحية أوراس وقاتل القائم بأمر الله بن المهدي، فقد دخل رقادة ودانت له القيروان عام ٣٣٣، واحتل مدينة سوسة، وحاصر القائم في المهدية... ثم بدأت الهزائم تحل به، وانتفضت عليه المدن التي دخلها، ومات القائم وتولى ابنه المنصور فقاتل أبا يزيد وانتصر عليه، وأخذه أسيراً، ثم مات متأثراً بجراحة عام ٣٣٦.

وقد زاد انتشار الإسلام حتى يقال إن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٢٢٣، وحارب الوثنيين الذين يعيشون في مملكته، والذين يجاورونها من الممالك والإمارات الأخرى. ولكن الأمر الثابت أن ملك التكرور قد دخل في الإسلام عام ٤٣٢، وصار للمسلمين في غانا مدينة خاصة بجانب العاصمة أو أن العاصمة كانت نصفين أحدهما للمسلمين، وبنى الملك في مدينته مسجداً ليؤدي الصلاة فيه من يأتيها من المسلمين. وأن عدداً من الوزراء كانوا أيضاً من المسلمين.

وقام المرابطون واستطاعوا أن يأخذوا مدينة (أودغشت) من إمبراطورية غانا عام ٤٤٦. ولما مات يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فتحوا بها مدينة (أودغشت) خلفه في زعامة المرابطين أبو بكر بن عمر شيخ لمتونة، وقد اختلف مع ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي اتجه إلى الشمال ونصر المسلمين في الأندلس على حين اتجه أبو بكر بن عمر نحو الجنوب يعمل على نشر الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية. وكانت هذه المدة حافلةً باعتناق الإسلام وخاصةً في منطقة السنغال حيث تحولت قبيلة (الفولاني) إلى الإسلام عام ٤٦٩.

وفي الوقت نفسه فقد ضعفت إمبراطورية غانا، وتفككت ممالكها، واستقلت بعض أقاليمها، وتمكّن المرابطون بمساعدة قبائل التكرور من دخول كومبي صالح عاصمة غانا، وفرض الإسلام على السكان حتى أن ملك غانا (تنكامنين) قد قبل الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، ودخل معه رعاياه في هذا الدين الجديد وذلك عام ٤٦٩.

وتوفي شيخ المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، فضعف أمرهم من بعده، فاستقل حكام غانا السابقين، وهم من قبيلة (السوننكي) عن المرابطين، وأعلنوا استقلالهم، وأعلنوا ارتباطهم بالدولة العباسية مباشرة. وتحمّسوا لنشر الإسلام، حتى غدت كلمة (سوننكي) ترادف كلمة داعية، وأجبر الملوك شعوبهم على لبس العمامة، وأخيراً ادعوا الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. وجاءت سنوات عجاف فانتقلت أعداد

من السكان والقبائل نحو الجنوب حيث الأمطار أكثر غزارة، وهذا ما جعل منطقة (أوكار) التي قاعدتها (كومبي صالح) أو مركز مملكة غانا تقل بعدد سكانها، وتضعف تجارتها، وتنقص مواردها، ويعتريها الضعف، وفي الوقت نفسه يقوى أمر قبيلة الصوصو بصفة أن بلادهم تقع إلى الجنوب من بلاد غانا.

هاجرت جماعة من قبائل الفولاني من بلاد التكرور، واتجهت نحو الشرق، واستقرت في منطقة (كانياغا)، وأسسوا أسرة حاكمة فرضت نفوذها وسيطرتها على شعب الصوصو، وقد عرف باسم مملكة الصوصو. فلما ضعف أمر غانا طمع حكام الصوصو بالسيطرة على غانا، وكانوا قد استقلوا عنها منذ أن دخلها المرابطون عام ٤٦٩. وبدأ حكام الصوصو بالهجوم على غانا، وتمكنوا من دخول عاصمتها عام ٦٠٠، وبعد ذلك وجّه حكام الصوصو هجومهم على دولة الماندينغ في منطقة (كانغابا)، وتمكنوا من السيطرة عليها عام ٦٢٨، وقتل ملك الصوصو (سوما نغارو) ملك دولة الماندينغ (ناري فامغان) وأولاده جميعاً باستثناء صغيرهم، فقد أبقاه لصغره ومرضه ويسمى (سندياتا) أو كما عرف فيما بعد باسم (ماري جاطه)، ولم تمض سوى خمس سنوات حتى استطاع هذا الصغير أن يؤسس جيشاً قوياً ويقوده لقتال الصوصو، وربما كانت مذبحة أهله قد ضاعفت الهمة في نفسه، وأحرز النصر على الصوصو عام ٦٣٣ في معركة فاصلة قتل فيها ملك الصوصو، وتمزّقت مملكته من بعده، ودخل (ماري جاطه) عاصمته، ودمر ما بقي منها عام ٦٣٨، وأسس (ماري جاطة) مملكة عرفت باسم مملكة مالي. أما الموحدون حكام المغرب فلم تكن لهم أطماع سياسية في السودان الغربي، كما لم يكن لهم همّ شديد للدعوة إلى الإسلام، ومع هذا فقد انتشر في أيامهم بسبب انتقال جماعات من الشمال إلى الجنوب إذ فرّ أحد الثائرين أيام عبد الواحد الرشيد (٦٣٠ ـ ٦٤٠) إلى بني معقل، وتوغل في السودان الغربي، ومعه عدد من أتباعه. ومن قبل كان نزوح بني معقل، وهم من العرب الذين انتقلوا إلى المغرب مع بني هلال. ومن بني معقل بني حسان الذين استقروا عند نهر السنغال ومنهم إلى اليوم الترارزة.

مملكة مالي:

دولة مالي قديمة، خضعت أخيراً لمملكة غانا، وبدأت تنمو وتتوسع في ظلها، ثم استقلت عنها، وحكمتها عدة أسر منها أسرة (تراوري)، ومنها أسرة (كيتا) التي قضى عليها الصوصو، ثم أعادها سندياتا أو ماري جاطة الذي نجا من القتل الذي لحق بأبيه وإخوته الأحد عشر، وكانت هذه الدولة من أعظم المماليك الإسلامية في السودان الغربي في المدة الواقعة بين (٦٣٩ ـ ٨٩٤)، وقد كانت أراضيها تمتد من بلاد بورنو في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن جبال البربر في الشمال إلى نطاق الغابات في الجنوب، وتشمل أجزاء من الدول الحديثة (موريتانيا ـ السنغال ـ غامبيا ـ غينيا ـ مالي ـ ساحل العاج ـ ليبيريا ـ سيراليون).

كان جد هذه الأسرة التي حكمت المملكة (أسرة كيتا) هو (موسى ديغيو) الذي حكم من ٥٩٧ إلى ٦١٥، واتخذ مدينة (غارب)[١] التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته بالعمل الصالح والتقوى، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم (بومندانه) ويقول بعض المؤرخين: هذا الرجل الحاكم كان أول من دخل في الإسلام من ملوك مالي، ولكن ابن خلدون يقول: إنه أول من حج إلى مكة المكرمة وليس أول من أسلم.

خلف (موسى ديغيو) ابنه (ناري فامغان) واستمر حتى عام ٦٢٨، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه بين قومه ولا سيما بين قبائل (البمبارا)، وقاتل صنهاجة، والصوصو، وفي أواخر أيامه هجم الصوصو على دولته، وقضوا عليه وعلى أبنائه الذين لم ينج منهم سوى (ماري جاطه). وانتهت مملكته.

قام مري جاطة، وعدّ نفسه وارثاً لأبيه (ناري فامغان)، ووقف في

---

(١) غارب: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى جنوب مدينة (سيغوري)، وتقع اليوم في دولة غينيا.

وجه الصوصو، وانتصر عليهم عام ٦٣٣، وضم إليه أراضي غانا عام ٦٣٨، وخرّب كومبي صالح، ونقل عاصمته من غارب في (كانجابا) إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر (نهر سانكاراني)[1] إلى الشرق من (غارب)، وقد سميت (نياني)، واشتهرت باسم (مالي)، وأصبحت فيما بعد علماً لدولة الماندينغ، وغدت مركزاً تجارياً مهماً، يفد إليها التجار، ويقيمون فيها، وكان أعظم قاطني هذه الدولة من قبائل السيراكوليه، والأمر والنهي فيها لأهل العلم. وبعد عام ٦٣٨ لم يشترك (ماري جاطه) في الأعمال الحربية، إنما كانت جيوشه تصل إلى إمارات الهاوسا في شمال نيجيريا اليوم، وإلى سواحل المحيط الأطلسي. وتدخل إلى قلب الأدغال في الجنوب، وتتوغل في الصحراء شمالاً، وتوفي (ماري جاطه) عام ٦٥٣.

وقام (منسي علي) بعد أبيه (ماري جاطه)، وكان من أعظم حكام بلاده، محباً للسلام. معروفاً بالتقوى والصلاح، وأدى فريضة الحج عام ٦٥٨، وضمّ إليه (بامبوك) و (إنقاراه) وبسط نفوذه على دولة (صنغاي) الناشئة، وأخذ منها عدداً من الرهائن لضمان خضوعها له. وتوفي عام ٦٦٩، وخلفه شقيقه، وسميه (منسي علي)، وفي أيامه خضعت البلاد لمرحلة من الاضطرابات دامت حتى عام ٧٠٧، تولى خلالها عدد من الملوك منهم.

١ ـ شقيقه (منسي علي) (٦٦٩ ـ ٦٧٣).

٢ ـ شقيقه الآخر (خليفة علي) (٦٧٣ ـ ٦٧٤).

٣ ـ أبو بكر سبط من أسباط ماري جاطة (٦٧٤ ـ ٦٨٤).

٤ ـ ساركوه مولى من موالي أبي بكر، اغتصب السلطة حتى عام ٧٠٠، وقد غزا بلاد التكرور التي بقيت موالية للمرابطين أو تعمل باسمهم

---

(١) نهر سانكاراني: من روافد نهر النيجر، ويشكل اليوم جزءاً من الحدود بين غينيا ومالي، ويرفد نهر النيجر عند مدينة كانجابا.

رغم انقضاء دولتهم منذ مدة ليست قصيرة، كما غزا (وانقاره)، وبلاد (مسينا) الوثنية، و (غاو) عاصمة (صنغاي)، كما توسعت التجارة في أيامه، وأدى فريضة الحج عام ۷۰۰، وفي أثناء عودته عن طريق الحبشة والسودان هاجمته جماعة من الدناقل عند ساحل البحر الأحمر وقتلوه.

٥ ـ (منسي قو) وهو ابن (ماري جاطة) (۷۰۰ ـ ۷۰٥).

٦ ـ محمد بن منسي قو (۷۰٥ ـ ۷۱۰).

۷ ـ أبو بكر (۷۱۰ ـ ۷۱۲)، وهو الذي أبحر بالمحيط الأطلسي ليكتشف ما بعده، ولم يرجع وقد وصل إلى أمريكا الجنوبية ـ والله أعلم ـ. ووقعت بعده عدة فتن واضطرابات انتهت بنقل السلطة إلى أولاد أخت (ماري جاطة) وكان أولهم (منسي موسى) بن أبي بكر الملك السابق، ويعد من أعظم ملوك دولة مالي، إذ كان يجيد العربية، صالحاً، ورعاً، أقام علاقات مع مصر والمغرب، وفتح بلاده للفارين من بلاد الأندلس، وبلغت دولته في أيامه ذروة مجدها وقوتها واتساعها. وتوفي عام ۷۳۸، وخلفه ابنه (مغان الأول) أو (منسي مغان)، وحكم حتى عام ٧٤٢، وعادت البلاد إلى الفرقة والاختلاف، فهاجمت قبائل (الموش) المقيمة في إقليم (باتنغا) في بلاد فولتا العليا اليوم، ووصلت إلى (تومبوكتو) فأحرقتها، وأبادت حاميتها من قبائل الماندينغ.

تولى سليمان بن منسي موسى الحكم بعد أخيه (مغان الأول)، وكان معروفاً بالتقوى والصلاح والفقه في الدين، ودام حكمه عشرين سنة (٧٤٢ ـ ٧٦٢)، واستطاع أن يعيد في خلالها معظم البقاع التي خرجت من حكم دولة مالي، وإن كان قد عجز عن استعادة مدينة (غاو) قاعدة (صنغاي)، وبنيت في أيامه المساجد والمنارات، وجاء الفقهاء من خارج البلاد، وأدّى هو فريضة الحج عام ٧٥٢.

تولى حكم مملكة مالي بعد سليمان ابنه (قنبتا)، ولم يمض عليه سوى تسعة أشهر في الحكم حتى توفي، وأخذ الحكم بعده ماري جاطه

الثاني بن مغان الأول (٧٦٢ ـ ٧٧٦)، كان سيء السيرة، مبذراً أتلف ما في خزائن الدولة، غير أن صلته مع سلاطين مصر والمغرب كانت حسنة.

أخذ الحكم بعد ماري جاطه الثاني ابنه موسى الثاني، كان أحسن من أبيه سيرةً، غير أن وزيره قد استبد بالأمر دونه، وحجر عليه، وحارب دولة صنغاي، وتجاوزت جيوشه عاصمتها (غاو) دون أن تدخلها، وكذلك حارب الملثمين في الشمال، وتوفي عام ٧٨٩.

خلف موسى الثاني أخوه (مغان الثاني) غير أنه لم يلبث أن قتل عام ٧٩٠ في فتنةٍ داخلية. وأخذ الحكم (صندكي) زوج أم موسى، واستمر به حتى عام ٧٩٣، وحدثت في أيامه فتن كثيرة، استغلها أحد أبناء أسرة (كيتا) الحاكمة، وتسلم زمام السلطة، وكان اسمه محموداً، وتسمى باسم منسي مغان. وعاشت مملكة مالي بعد ذلك في مرحلة من الضعف بسبب:

١ ـ ضعف الملوك وتناحرهم فيما بينهم.

٢ ـ هجمات الطوارق على الشمال، وقد استولوا على (تومبوكتو) و(ولاته)، وأكثر المناطق في شمال الدولة.

٣ ـ هجمات الفولانيين والتكارنة على إقليم بامبوك الواقع على حدود السنغال اليوم.

٤ ـ انفصال مملكة صنغاي عن مالي واستقلالها في منتصف القرن الثامن الهجري، ، إثر هرب الرهائن الصنغانيين الذين كانوا في قبضة مالي، ومنهم: (على كولن) و (سليمان نار).

وقد نجحت صنغاي من الاستيلاء فيما بعد على مالي وبسط نفوذها عليها في أواخر القرن الثامن.

٥ ـ الغارات التي تشنّها قبائل الموش الوثنية من الجنوب.

ولما بسطت صنغاي نفوذها على مالي، بقيت دولة مالي كإمارة صغيرة في منطقة كانجابا محتفظةً بكيانها، وكانت تحاول أحياناً الخروج

على صنغاي، واستعانت بقوى خارجية، فقد استنجدت بالعثمانيين عام ٨٨٦ وطلبت حمايتهم، وطلبت مساعدة البرتغاليين الذين بدأوا يثبتون أقدامهم على سواحل إفريقية الغربية. وأرسلت البرتغال سفارةً لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١ ووصل إلى أمير مالي محمود الثاني، وكان نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم، وفي الوقت نفسه فقد شجّع هذا الأمير محمود الثاني على القيام بثورة ضد سلطان صنغاي عام ٩٤٠ للتخلص من سيطرته إلا أنه قد هُزم، وأبادت صنغاي حركته، وهذا ما شجع الفتن. واستمر ذلك حتى احتلت المغرب مملكة صنغاي وقضت عليها، وانشغل أمراء صنغاي بما حلّ بهم فاستقل سلطان مالي محمد الثاني، كما استقل سلطان (ماسينا) الفولاني حمد آمنة.

مملكة الصنغاي:

الصنغاي مجموعة قبائل زنجية كانت تعيش غرب نهر النيجر في المنطقة الواقعة اليوم شمال بنين وغربي نيجيريا، ثم انتقلت مع نهر النيجر إلى الشمال، وانتقلت معها عاصمتها فكانت في البداية (دندي)، ثم (كوكو) وغدت أخيراً في (غاو). وتقيم اليوم في مالي في المكان نفسه حول غاو، وفي دولة النيجر عند مجرى النهر، وحول مدينة (أغاديس).

خضعت الصنغاي لدولة مالي، وقدمت رهائن لضمان خضوعها، واستمرار سيطرة مالي عليها. وكانت هذه الرهائن ولدي ملك صنغاي (زايا سبي) وهما: (علي كولن) و (سليمان نار) وهما طفلان صغيران، وذلك حوالي عام ٦٦٨ في عهد ملك مالي (منسي علي).

استطاع الرهينتان أن يفرا من مالي، وأن يصلا إلى (غاو)، وأن ينقذا مدينتهما من الحامية المالية، وأن يؤسسا مملكةً جديدةً أخذت تتوسع على حساب مملكة مالي التي بدأ يدب فيها الضعف، وتسلم (علي كولن) أول ملكٍ فيها، ولم يطل عهده إذ كان كبير السن، وخلفه أخوه (سليمان نار)، ثم عادت مملكة صنغاي تتبع اسمياً لمملكة مالي. وبدأ الضعف بعدئذ يدبّ

في مملكة مالي وتضعف قبضتها على المناطق الشرقية، وهذا ما قوّى أمر الصنغانيين. وفي عام ٨٢٣ قام ملك صنغاي (محمد دوغو) بحملة ضد مملكة مالي، وأخضع قبائل (البمبارا)، وثبت دعائم حكمه، ثم تمكّن من التخلّص من سيطرة مالي التي وصلت إلى مرحلة من الضعف كبيرة، واقتصرت سيطرتها الفعلية على منطقة (كانجابا).

خلف (محمد دوغو) ابنه (مسنا علي) عام ٨٦٩، ويعدّ مؤسس مملكة صنغاي إذ استطاع أن يحتل مدينة (تومبوكتو) عام ٨٧٣، وطرد منها الطوارق، وحرق أكثر أحيائها، وقتل الكثير من سكانها، وفي عام ٨٧٥ أخضع منطقة النيجر كلها، فاستولى على مدينة (جني)، وبسط نفوذه على منطقة (باتنغا) مقر قبائل الموش، وإن لم يتمكن من إخضاع هذه القبائل تماماً. وحاولت مملكة مالي الاستعانة بالعثمانيين إذ طلبت أن تكون تحت حمايتهم وذلك عام ٨٨٦ فلم تستفد من ذلك.

توفي (مسنا علي) عام ٨٩٨ وخلفه ابنه أبو بكر فثار عليه قواد أبيه، وتمكن القائد محمد بن أبي بكر من أن يهزمه، وتوفي أبو بكر عام ٨٩٩، وانتهى حكم أسرة (زا)، وانتقل إلى أسرة محمد بن أبي بكر الذي عرف باسم (إسكيا محمد) الذي بلغت مملكة صنغاي في عهده أوج قوتها، فقد نظّم الجيش، واهتمّ بالشؤون الإسلامية، وحجّ عام ٩٠١، وعندما رجع من أداء فريضته، أعلن الجهاد، واتجه إلى قبائل (الموش) الوثنية، وطلب من أمرائهم الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، وتقدّم نحو الغرب حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي إذ ضم بلاد الماندينغ وبلاد الفولاني إليه، ووصل في ناحية الشرق إلى بحيرة تشاد، ومن جهة الشمال وصل إلى الصحراء. وطالت أيامه فضاق منه أولاده أو استعجلوا الحكم فقاموا عليه عام ٩٣٥ وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى، فنفى أباه إلى جزيرة في نهر النيجر، وتسلّم الأمر حتى قتل عام ٩٣٨. وتولّى بعده أخوه (محمد بنكه) حتى عزل عام ٩٤٤، وتولى من بعده أخوه (إسكيا إسماعيل) لمدة عامين، أعاد بعدهما أباه (إسكيا

محمد) وكان قد كف بصره، ثم توفي عام ٩٤٩. واستنجدت إمارة مالي في هذه الأثناء بالبرتغاليين ولكن حركتها قد قمعت بشدة في عهد (محمد نبكه).

تولى حكم صنغاي عام ٩٥٠ (إسكيا إسحاق) فساءت العلاقات بين دولته والمغرب. وخلفه (إسكيا داود) عام ٩٥٦، واستمر حتى عام ٩٩٠، وزادت العلاقات سوءاً مع المغرب. وخلفه ابنه (إسكيا الحاج محمد الثاني)، وفي عام ٩٩٥ خلعه إخوته، وكانت المناوشات مع المغرب قد بدأت. وجاء أخوه إلى الحكم وهو (محمد بن إسكيا داود) لمدة ثلاث سنوات، أتى بعدئذٍ (إسكيا إسحاق الثاني) فتوترت العلاقات مع المغرب وجاءت حملة مغربية احتلت دولة الصنغاي بعد معركة (تندي)، ودخلت العاصمة (غاو).

مملكة التوكلور:

حكم شعب التوكلور منطقة السنغال من عام ٤٦٩ حتى عام ٦٣٨، حيث جاء شعب الفولاني وبسط نفوذه حتى عام ٧٥١ حيث ثار عليه شعب الولوف، وحكم البلاد حتى القرن العاشر إذ رجع التوكلور إلى السيطرة.

وسط إفريقية:

قامت بعض المماليك في وسط إفريقية ومنها:

١" ـ مملكة كانم: ومركزها شمال شرقي تشاد، وقد قامت منذ عام ١٨٣، وكانت تحكمها أسرة سيف، وتدين بالوثنية، وانتشر الإسلام فيها في القرن الخامس، وأول من اعتنق الإسلام من حكامها الملك (أوم) الذي حكم (٤٧٨ ـ ٤٨٩)، ولقب الملوك الذين خلفوه بلقب (ماي)، وشن هؤلاء الملوك حروباً على الشعوب الوثنية المجاورة لهم مثل (التيدا) في الشمال، و (صوص) في الجنوب، وتوسعت هذه المملكة من النيجر غرباً حتى واداي شرقاً.

ثم جرت حروب متكررة بين شعب (البولالا) ومملكة كانم واستمرت ما يقرب من مائة سنة (٧٨٩ ـ ٩٠٠)، وقتل خلال هذه الحروب أربعة ملوك من حكام هذه الدولة، واضطر أولو الأمر فيها أن يتركوا منطقتهم، وأن يفروا إلى غرب بحيرة تشاد حيث أسسوا هناك دولة في بلاد الكانوري الذين يشكلون أكثر سكان تلك المنطقة المعروفة باسم (بورنو)، وفي منتصف القرن التاسع استطاع ملك هذه الدولة الجديدة (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يهاجم قبائل (البولالا)، وأن ينتصر عليها، وأن يعود إلى منطقة كانم ثانيةً، حيث ازدهرت المملكة من جديد في كانم.

وقامت إمارات متعددة في وسط إفريقية ولكن لم يكن الإسلام قد ساد فيها، وإن بدأ ينتشر في هذه المرحلة التي نتحدث عنها.

لم يكن لحكام المغرب من المرينيين الذين ملكوا في هذه المرحلة أطماع في المناطق التي تلي الصحراء بل كانت علاقتهم وثيقة مع حكام مالي، إذ نلاحظ أن أبا علي قد ثار على أخيه أبي الحسن وحاول الاستقلال بسجلماسة، غير أن أخاه أبا الحسن قد قضى عليه عام ٧٣٢ ويبدو أن منسي موسى ملك مالي قد أعانه على أخيه حيث كانت الصلات بين البلاطين قائمة ومتينة. وعندما استطاع سلطان المغرب المريني أبو الحسن فتح تونس أرسل له ملك مالي (منسي سليمان) قوةً. وخفت العلاقات بين المنطقتين قليلاً ثم عادت حسنة حتى نهاية دولة مالي.

نصارى أوروبا:

بعد أن ضعف المسلمون في الأندلس، وقوي أمر النصارى، وبدأت المدن الأندلسية تسقط بأيديهم منذ نهاية القرن السادس الهجري، وبعد أن سقطت قرطبة عام ٦٣٣، وبلنسية ٦٣٦، وإشبيلية عام ٦٤٦ زاد أملهم بإخراج المسلمين من الأندلس تدريجياً، فلما وقفت غرناطة أمامهم وصمدت حتى عام٨٩٧هـ رأوا أن يلتفوا عليها ويطوّقوها، وأن يضربوا قواعد المسلمين التي خلفها كي لا تدعمها أولاً، وليحتلوها بصفتها مراكز

إسلامية، وكان يدفعهم الحقد الصليبي الأسود، فقد ضربوا عدداً من مرافئ البحر المتوسط، واحتلوا بعضها، وفي الوقت نفسه انطلقوا على سواحل المحيط الأطلسي غزاةً أحياناً عندما يرون في أنفسهم القوة، وتجاراً زائرين عندما يبتعدون عن مواطنهم ولا يجدون عندهم القوة الكافية.

وصل بعض البحارة الأوروبيين إلى مصب نهر السنغال عام ٧٤٧، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغين) الصغيرة. واحتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر النصارى في هاتين الجزيرتين حتى أواخر القرن التاسع إذ بدأ الفرنسيون يترددون على شواطئ السنغال، ويقيمون مراكز لهم يستقرون في بعضها، وحتى ذلك الوقت لم يجد الأوروبيون عندهم القدرة الكافية للتوغل في داخل إفريقية خوفاً من قوة المسلمين.

ولما سقطت الأندلس بيد النصارى من إسبان وبرتغال دفعتهم نشوة النصر للانطلاق على السواحل في محاولة لتطويق المسلمين، فكان أن عرفوا سواحل إفريقية الغربية، ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح وخرجوا على المسلمين في شرقي إفريقية وجنوبي آسيا من جهة الجنوب، وبدأ الصراع هناك.

الفصل الخامس

بنو نصر "الأحمر" في الأندلس

لما ضَعُفَ أمر الموحدين في الأندلس، واشتد ضغط النصارى على المسلمين حيث كانت حرباً صليبية شرسة إذ كان المتطوعون النصارى يفدون إلى الإسبان من كثير من جهات أوروبا وخاصةً من إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وزاد تفرّق المسلمين، وأصابهم الوهن بحبهم الدنيا وكراهيتهم للموت، لذا فكر عدد من الزعماء بجمع مدن الأندلس المتنافرة في دولة واحدة، تستطيع أن تقف في وجه النصارى، وإذا كنا لا نستطيع أن نطرح من هذه الفكرة بالذات حب الزعامة والأنانية إلا أن فكرة الوحدة فيها من الفائدة ما فيها، واستطاع المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أن يضم عدة مدنٍ كبرى في دولته ومنها قرطبة، ومرسية، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقةَ، والمرية إلا أن ابن هود هذا كان متسرعاً في قراراته لا يُجيد إحكام الخطط رغم شجاعته، وهذا ما جعله يخسر في معاركه، ويُضيّع عدداً من المدن والمواقع لصالح النصارى، فقد سقطت الجزيرة الشرقية ميورقة عام ٦٢٧ أي بعد قيام دولته بأقل من عامين، وبعد عدة سنوات سقطت الجزيرة الثانية يابسة ثم ضاعت قرطبة عام ٦٣٣.

لم يصل أمر ابن هود في غرناطة[١] إذ تغلّب عليه منافسه أبو عبد الله

(١) أصبحت غرناطة أول مرةٍ دار ملك عام ٤٠٣ عندما ملكها الحاجب المنصور أبو مثنى زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، عندما استولى الجيش البربري بإمرة سليمان بن=

محمد بن يوسف أحد رجال بني نصر الدين الذين ينتمون إلى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، سيد الأنصار من الخزرج، وكان قد ملك جيان ثم دخل غرناطة عام ٦٣٥، وابن هود يستعد لدعم بلنسية التي يحاصرها النصارى الذين يبارك عملهم ويدعمهم البابا غريغوري التاسع وهذا ما يوضح الصفة الصليبية للقتال الذي كان يدور يومذاك على تلك الأرض. وإذا استطاع محمد أبو عبد الله هذا أن يضمّ إليه قرطبة وإشبيلية ولكنها كانت مدة قصيرة فلم تلبثا أن خرجت من يده، وقد حاول عدم الصدام مع النصارى فكانت المدن تسقط بأيديهم الواحدة تلو الأخرى إذ سقطت بلنسية عام ٦٣٦، ودانية ٦٤١، وجيان ٦٤٣، وشاطبة ٦٤٤، وإشبيلية ٦٤٦، ومرسية ٦٦٤. وتلقّب بالشيخ، والغالب بالله. وتظاهر في أول أمره بطاعة ملوك المغرب من أواخر الموحدين، فلما دالت دولتهم، وغلبهم بنو مرين دعا لهم أيضاً، عام ٦٦٥، كذلك افتتح أمره بالدعاء للخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله مثل سابقه وسميّه ابن هود، وبعد مدة ترك ذلك. وصالح ملك قشتالة فرانده بن الفونس عام ٦٤٣. وخشي سلطان بني مرين لذا فقد تحالف مع النصارى الإسبان، وترك لهم حامية في الجزيرة الخضراء. ولما رأى قوة سلاطين المغرب تحالف معهم، وقدّم لهم مالقة.

كانت أعداد من المسلمين من سكان المدن التي سقطت بأيدي النصارى يرون وضع الأندلس الأليم وما سيؤول إليه فيفضلون البقاء حيث هم تحت رحمة أعدائهم الحاقدين من النصارى، ولا شك فإن بعضهم كان يرتد عن دينه تحت الضغط، وبعضهم الآخر يذوب مع الزمن في المجتمع الذي يعيش فيه في سبيل تأمين حاجاته ومتطلباته الدائمة والضرورية، أو نتيجة الحياة في وسط الإغراءات البهيمية والمصلحية وقد عرف هؤلاء باسم

= الحكم على قرطبة. وبقي زاوي في غرناطة مدة سبع سنوات عاد بعدها إلى إفريقية بعد أن ولي على غرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي توفي عام ٤٢٩، وخلفه عليها ابنه المظفر الحاجب باديس الذي توفي عام ٤٦٥، وتولى أمر غرناطة بعدها حفيده عبد الله بن بلقين الذي خلع عام ٤٨٣ وأصبحت إلى أمراء ملوك لمتونة من المرابطين أيام يوسف بن تاشفين.

المُدَجّنين وكان بعض المسلمين من سكان تلك المدن ينتقلون إلى تلك الجهات التي لا تزال تحت نفوذ إخوانهم المسلمين.

وعندما قوي أمر بني مرين وبدؤوا يدعمون الأندلسيين ضد الإسبان صارت جماعات من المجاهدين ينتقلون إلى العدوة الأندلسية، ويعرفون باسم الغزاة، وتعرف قيادتهم باسم مشيخة الغزاة، وغدا لهم دور في تلك الحروب، وفي رسم السياسة الأندلسية أحياناً.

وتوفي أبو عبد الله محمد الأول عام ٦٧١، وخلفه ولده الذي يحمل اسمه وكنيته أيضاً، ويُعرف باسم المنتصر، وإن كان أحياناً يسمى بالثاني تمييزاً له عن والده أو عن الآخرين الذين جاءوا بعده، وحملوا الاسم والكنية ذاتها. وكانت علاقته مع بني مرين حكام المغرب تتناوب بين الود والوحشة. وكان الإسبان يستغلّون أيام الجفاء فيغيرون على المواقع الإسلامية، وقد هاجم طاغيتهم الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨ وكاد يفتحها ثم تحالف مع ملك قشتالة، وكان المنتصر يخشى سلطان بني مرين لذا فقد قدّم لهم مدينة مالقة عام ٦٩٧. أما الإسبان فقد أخذ صاحب برشلونة جزيرة ميورقة عام ٦٥٨.

وتوفي المنتصر عام ٧٠١ وخلفه ابنه الذي يحمل اسمه وكنيته وهو أبو عبد الله محمد الثالث، فبنى المسجد الأعظم بالحمراء، وهاجم مدينة المنظر، واستولى عليها عنوةً، وأسر صاحبها التي قدّمها إلى ملك المغرب، وتملّك مدينة سبتة عام ٧٠٥، وخُلع بعدئذٍ عام ٧٠٨، وقد عُرف بالمخلوع.

تولّى أمر غرناطة نصر أبو الجيوش بن محمد عام ٧٠٨ بعد خلع أخيه، واصطدم مع ابن عمه صاحب مالقة، وقد هُزم نصر أمام ابن عمه، وقامت حركة في غرناطة يقودها العلماء تدعو إلى خلع السلطان، وتشكّك في إسلام وزيره، وقد تمكّن أبو الجيوش من إخماد هذه الحركة، غير أن عدداً من العلماء قد غادروا غرناطة، وتوجّهوا إلى مالقة الذي شعر صاحبها بقوته فأراد السير إلى غرناطة إلا أن والده فرج لم يوافقه حرصاً على وحدة

كلمة الأسرة، وعدم تفرّق الكلمة كي لا يستغل الإسبان ما يحدث من ضعف ويهاجموا المسلمين غير أن أبا الوليد إسماعيل بن فرج قد قبض على أبيه، وسار إلى غرناطة مطالباً بحقه بالملك، وقد استطاع أن يدخل غرناطة عام ٧١٣.

حكم أبو الوليد إسماعيل غرناطة، وهُزم أمام طاغية الإسبان، ثم تمكّن من العودة إلى النصر، وقام بالغزو عام ٧٢٤، وعام ٧٢٥، وقتله أحد أقربائه وهو راجع من غزوته الأخيرة غير أن خصمه قد قُتل أيضاً، وقُتل معه كل من ناصره، وأُخذت البيعة لمحمد ولد إسماعيل، وقد عرف أبو الوليد بابن الأحمر، وأصبحت علماً لحكام غرناطة.

تولى الحكم أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي الوليد، وقد قاتل الإسبان، وأنقذ حصن قبرة[1]، وجبل الفتح، وجاءه طاغية الإسبان فداراه حتى تمكن من الاستبقاء على جبل الفتح، وحدثت فتنة في أيامه، فاستغل الطاغية هذه الفرصة فاستولى على ثغر (وبرة)، وخرج السلطان من غرناطة مغاضباً، وأخذ سلطان المغرب رندة وغيرها، وأخذ الإسبان جبل الفتح، فعبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلا البحر بنفسه عام ٧٣٢ مستصرخاً ملك المغرب فأنجده، وأرسل معه ابنه على رأس نجدة فأنقذ جبل الفتح عام ٧٣٣، وقُتل السلطان محمد بيد أحد أعدائه عند جبل الفتح في أواخر العام المذكور.

خلف السلطان محمد الرابع أخوه أبو الحجاج يوسف الأول، واستمر عهده حتى عام ٧٥٥، وفي أيامه حدثت معركة بحرية عام ٧٤٠ بين المسلمين والنصارى الإسبان حيث تجمعت القوى الصليبية كلها بدعم من البابا وهُزم فيها المسلمون، فأخذ المسلمون للاستعداد غير أنهم هزموا ثانية في معركة طريف عام ٧١٤، وعندما توفي خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس الذي تلقب بـ «الغني بالله» وبعد خمس سنوات قام عليه أخوه

(١) حصن قبرة: في منتصف المسافة بين قرطبة وغرناطة.

إسماعيل الثاني، وكان قد ألزمه قصراً مع أمه وأخواته، إذ أخذت أم إسماعيل مبلغاً كبيراً من المال من خزائن أبيه عند وفاته، وبدأت تعمل لتولية ابنها الحكم، واستعانت بزوج ابنتها، وهو ابن عم زوجها، فتمكن ابن العم من الفوز وإنجاح عملية الدعوة لإسماعيل، فقام بالأمر، وانتقل السلطان محمد إلى وادي «آش» ثم استدعاه سلطان المغرب فانتقل إليه.

استعان إسماعيل بملك قشتالة، إلا أن ابن عمه أبا عبد الله محمداً لم يلبث أن تنكر له، وقام عليه وقتله عام ٧٦١ أي بعد سنة واحدة فقط من اتفاقهما والقيام بالأمر. وتفرّد ابن العم بالسلطة وهو أبو عبد الله محمد السادس. وعاد السلطان محمد إلى الأندلس فأطاعه أهلها عام ٧٦٣، وهرب ابن عمه من غرناطة، والتجأ إلى ملك قشتالة، ودخل غرناطة محمد واستقر له الوضع ثانيةً، ولم يلبث ملك قشتالة أن قتل خصم السلطان محمد الخامس وأرسل إليه رأسه. وثار على السلطان محمد أحد أبناء عمومته وهو علي بن علي بن أحمد بن نصر، ولكنه ظفر به. وطالت أيامه، واتسعت دولته حتى صارت له السيطرة على المغرب بسبب الاختلافات بين بني مرين، حيث كان يضرب أحدهما بالآخر، كما تصالح مع مملكتي آرغون وقشتالة.

وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الثاني وأراد البقاء على الهدنة مع ملوك قشتالة، ولكن لم يتم له ذلك، وحدثت بعض الحروب، ثم عقد صلحاً مع الملك النصراني الشاب هنري الثالث، واستمر حتى توفي عام ٧٩٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد السابع الذي توفي عام ٨١٠، وكان محمد السابع هذا قد سجن أخاه الأكبر منه يوسف الذي كان ولي عهد أبيه، وبقي سجيناً حتى توفي الأصغر فتسلم الأمر باسمه يوسف الثالث، وعقد هدنة مع ملك قشتالة لمدة عامين تجدد بعدها القتال فهُزم عام ٨١٥، واضطر إلى عقد هدنة جديدة، وخسر فيها الكثير كما خسر في معاركه، وكان شاعراً، وتوفي عام ٨٢٠. وكان على خلاف مع سلطان بني مرين في المغرب عثمان بن أحمد، وكان يخشى أن يحتل سلطان المغرب غرناطة.

تولى أمر غرناطة أبو عبد الله محمد الثامن وقد عرف باسم الأيسر، وبقي حتى عام ٨٣١ حيث خلع، وولي ابنه أبو عبد الله محمد التاسع الذي اشتهر بالصغير، غير أنه خلع بعد عامين، وأُعيد أبوه الأيسر للمرة الثانية، ثم خُلع مرة أخرى بعد عامين (٨٣٥) وتولى أبو الحجاج يوسف الرابع الذي أمه ابنة محمد الغني بالله وحكم عدة أشهر وتوفي بعدها، فأُعيد الأيسر مرة ثالثة وبقي حتى عام ٨٤٥، حيث خلع أيضاً وخلفه أبو عبد الله محمد العاشر الذي عرف بالأحنف، كما يطلق عليه أحياناً الأعرج، وخلع عام ٨٤٨ أي بعد ثلاثة أعوام من حكمه، وأعطي الحكم ليوسف الخامس بن إسماعيل وخلع بعد حكمه بعدة أشهر، وأُعيد الأحنف فاستمر حتى ٨٦٣ حيث خُلع، وتقلّد مُلكَ غرناطة بعده سعد بن محمد السابع حتى عام ٨٦٧ حيث خُلع، وأُعيد محمد الخامس حتى عام ٨٦٨، ورجع إلى الملك مرة ثانية سعد بن محمد السابع.

وفي عام ٨٦٩ خلع سعداً ابنه علي أبو الحسن وبقي حتى توفي عام ٨٨٧ فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الحادي عشر، وقد عُرف بالصغير، وقد قاتل النصارى الإسبان فأُسر عام ٨٨٩، فتسلّم عمه محمد الثاني عشر أبو عبد الله وقد عرف بالزغل. ولكن أُطلق سراح أبي عبد الله محمد الصغير عام ٨٩٠ بعد صلح تنازل فيه كثيراً للنصارى، وأُعيد إلى السلطة عام ٨٩٢، فبقي حتى عام ٨٩٧ حيث ضاعت الأندلس نهائياً إذ سقطت بيد النصارى وانتقل أبو عبد الله الصغير إلى العدوة المغربية حيث استُقبل في فاس وبقي حتى وفاته... وضاعت الأندلس من أيدي المسلمين وقامت حروب الإبادة والتنصير والتشريد... حيث كانت غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

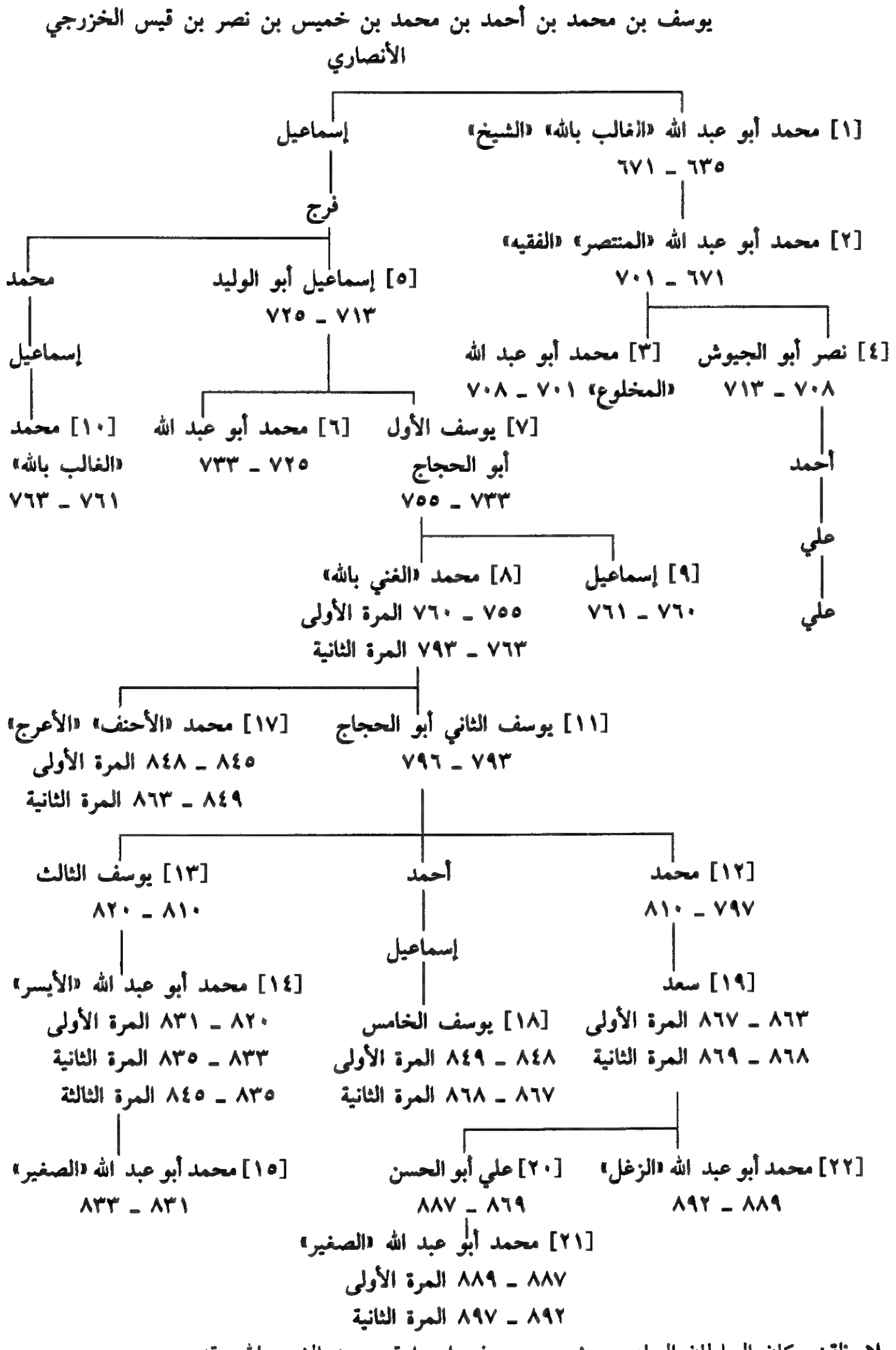

ملاحظة: كان السلطان السادس عشر هو يوسف ابن ابنة محمد الغني بالله وقد حكم عدة أشهر من عام ٨٣٥ ثم توفي وهو يوسف الرابع.

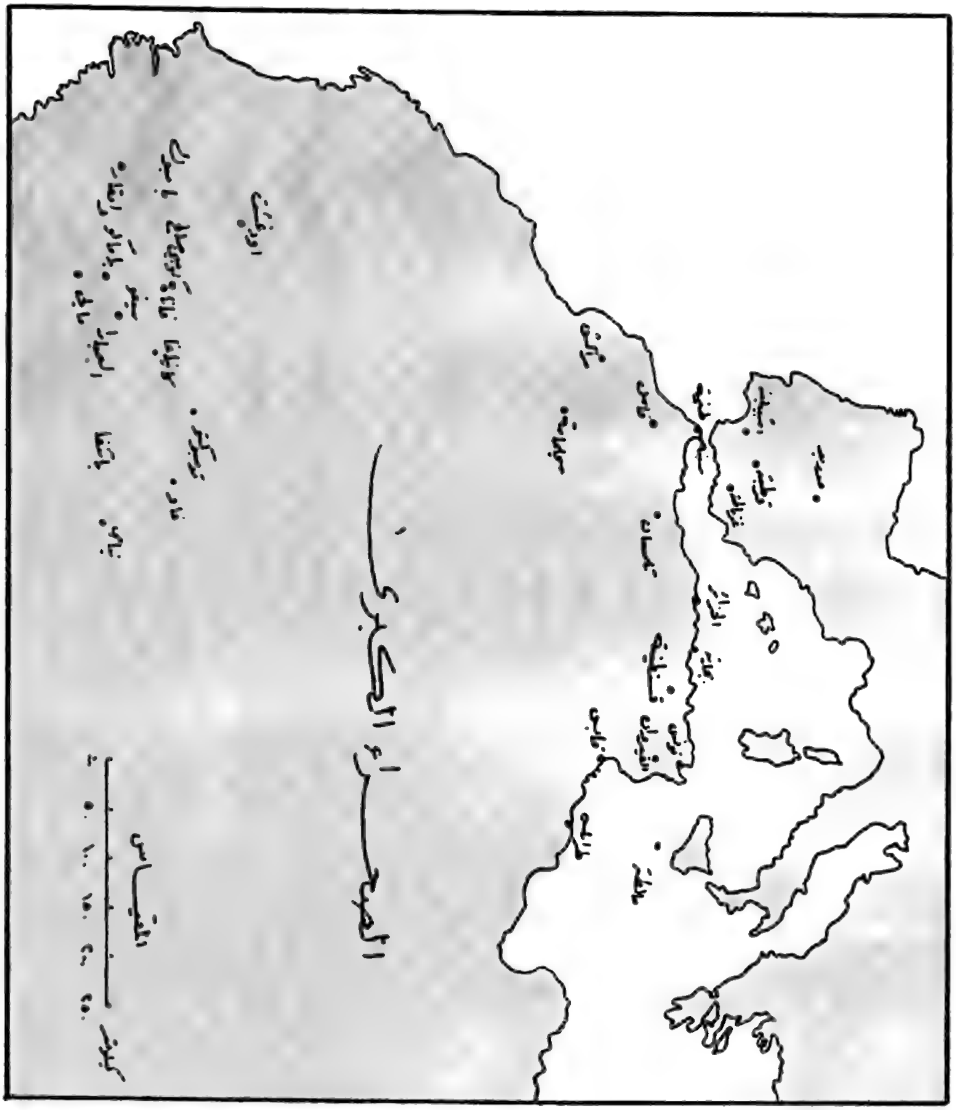
الصحراء الكبرى
المقياس

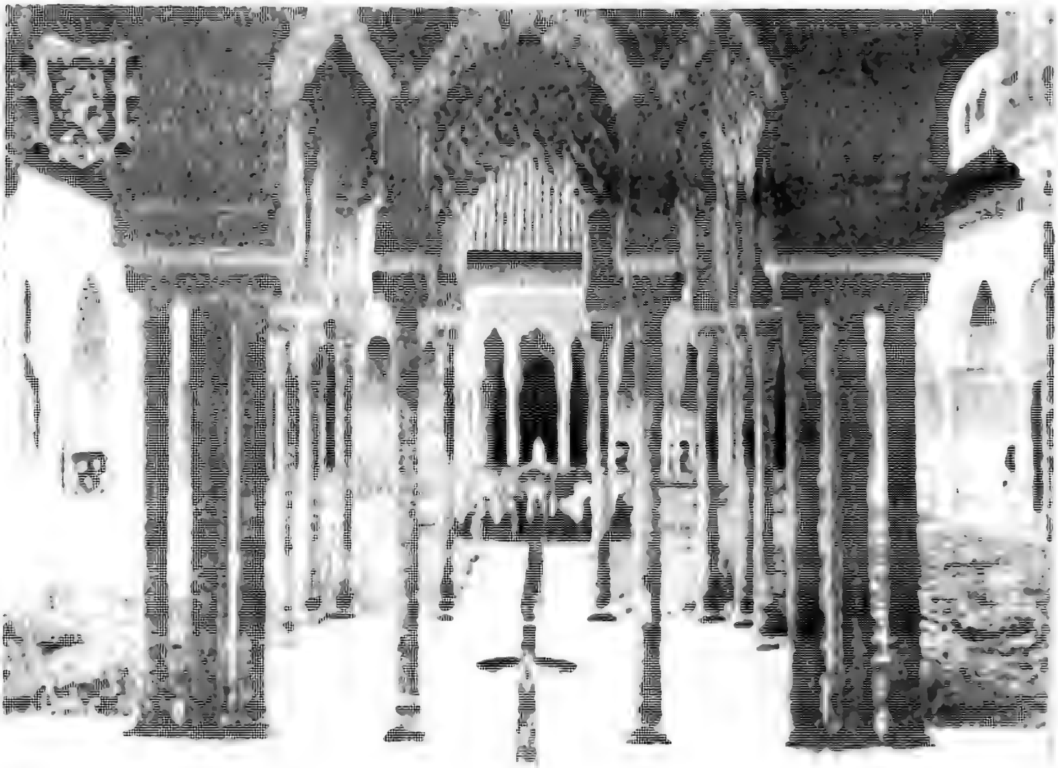

المـراجع

- **الأشرف قانصوه الغوري**: محمد رزق سليم، المؤسسة المصرية العامة، من سلسلة أعلام العرب، ٢٥ ـ.
- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي**: سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٣٩٦هـ.
- **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**: محمد الغربي، دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ ١٤٠٢هـ.
- **البداية والنهاية**: إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى ٧٧٤، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الفلاح، الرياض.
- **تاريخ ابن خلدون كتاب العبر**: عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ.
- **تاريخ الإسلام**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- **تاريخ الخلفاء**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١، المكتبة التجارية ـ القاهرة، ١٣٧١.
- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع**: أبو شامة المتوفى ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان والبلغار وملوك التتار**: م.م الرمزي، المطبعة الكريمية والحسينية، أورنبورغ ١٣٢٥.
- **حياة جنكيزخان**: ب. يا، فلاديمير ستوف، ترجمة سعد بن محمد حذيفة الغامدي.
- **الدعوة إلى الإسلام**: سير توماس. و. أرنولد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١.

- **الدول الإسلامية**: ستانلي لين بول إضافات بارتولد وخليل أدهم، ترجمة محمد صبحي فرزات ـ دمشق ١٣٩٤.
- **الروضتين في أخبار الدولتين الغورية والصلاحية**: أبو شامة المتوفي ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ.
- **سقوط الدولة العباسية**: سعد بن محمد حذيفة بن مسفر الغامدي، ١٤٠٣هـ.
- **العصر المملوكي في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٣٩٦.
- **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**: علي بن الحسن الخزرجي، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٣٢٩هـ.
- **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت ـ ١٣٨٩.
- **الكشوف الجغرافية حقيقتها ـ دوافعها**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **اللمحة البدرية في الدولة النضرية**: لسان الدين بن الخطيب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**: أحمد بن عبد الله القلقشندي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحمدي الرومي البغدادي المتوفى ٦٢٦، دار بيروت للطباعة، دار صادر.
- **المغول**: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.
- **المغول في التاريخ**: فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٩٠هـ.
- **المنهل الصافي**: يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية ـ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ١٣٧٧.
- **مواطن الشعوب الإسلامية سلسلة كتب**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **المواعظ والاعتبار**: أحمد بن علي المقريزي المتوفى ٨٤٥، دار صادر ـ بيروت.
- **الناصر صلاح الدين**: سعيد عبد الفتاح عاشور، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٤١.

- **الناصر محمد بن قلاوون**: محمد عبد العزيز مرزوق، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٢٨.
- **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي**: نوال حمزة يوسف الصيرفي، دار الملك عبد العزيز، ٣١ ـ الرياض.
- **الهند في العهد الإسلامي**: عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، الهند ١٣٩٢.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

المماليك

الفصل الأول: قيام دولة المماليك ٢١

الفصل الثاني: عصر المماليك البحرية ٣٥

الفصل الثالث: المماليك الجراكسة «البرجية» ٦٩

الباب الثاني

جزيرة العرب

الفصل الأول: الحجاز ٩٧

الفصل الثاني: اليمن ١٠٣

الفصل الثالث: اليمامة ١١٥

الفصل الرابع: البحرين ١١٧

الفصل الخامس: عمان ١٢١

الباب الثالث

دول المغول

الفصل الأول: دولة مغول الشمال ١٣٥

الفصل الثاني: الدولة الإيلخانية ١٦٩

الفصل الثالث: أسرة جغطاي ١٨٣

الفصل الرابع: أسرة أوغطاي ١٨٩

الفصل الخامس: تيمورلنك ١٩٥

الباب الرابع

المسلمون في الهند

الفصل الأول: المسلمون في أطراف الهند ٢٠٩

الفصل الثاني: ملوك دهلي ٢١٣
الفصل الثالث: ملوك المقاطعات ٢٣١
الفصل الرابع: الإسلام في الجزر وجنوب شرقي آسيا ٢٥٥

الباب الخامس
المغرب والأندلس وغربي إفريقية

الفصل الأول: بنو مرين في المغرب ٢٦٧
الفصل الثاني: بنو زيان «عبد الواد» في المغرب الأوسط ٢٨١
الفصل الثالث: الحفصيون في تونس ٢٨٩
الفصل الرابع: إفريقية الغربية ٢٩٧
الفصل الخامس: بنو نصر «الأحمر» في الأندلس ٣١٣
المراجع ٣٢٣